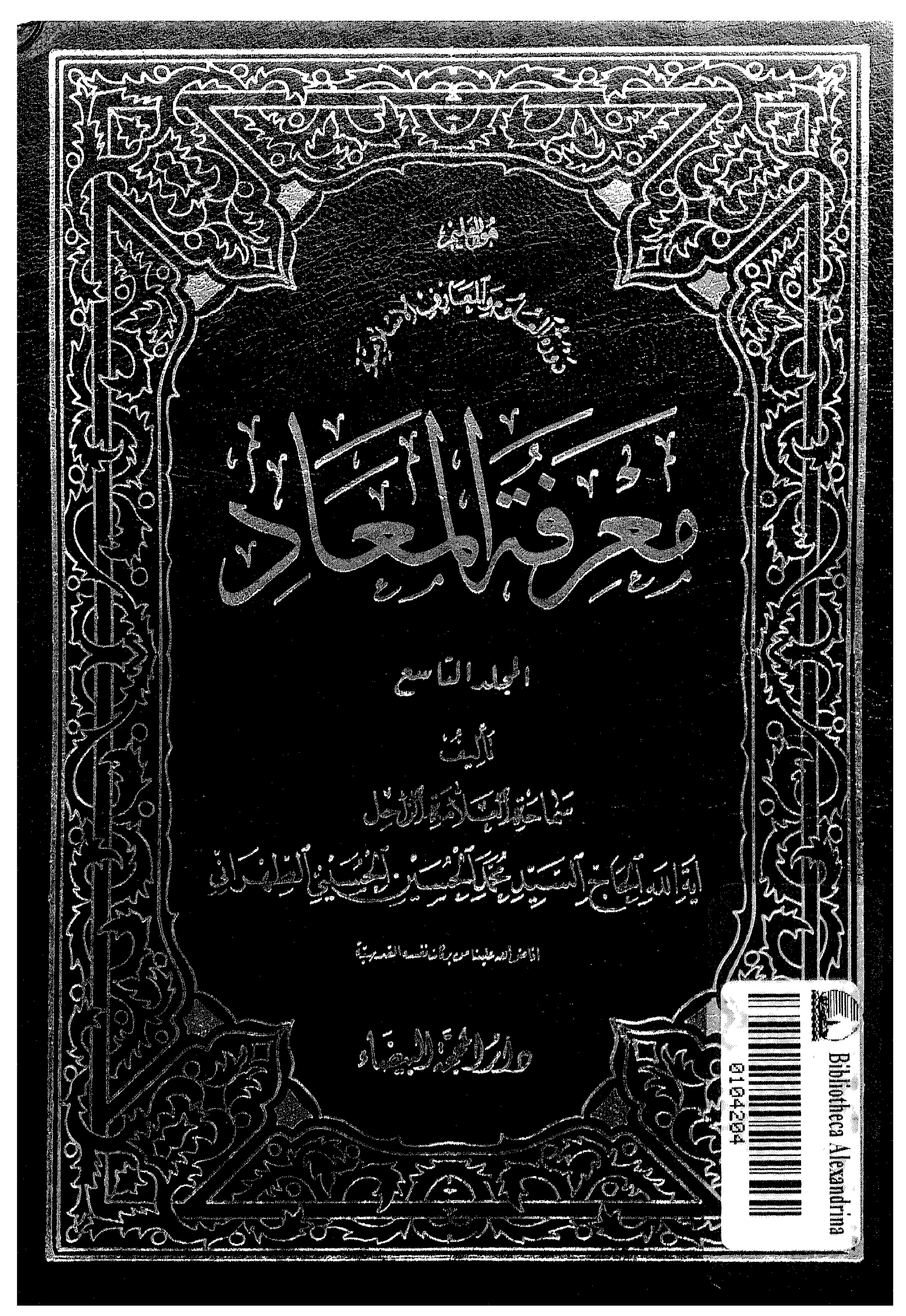
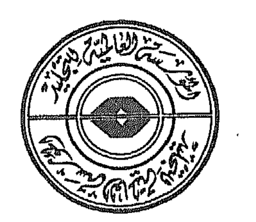
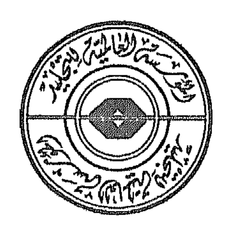


دورة العلوم والمعارف الإسلامية
معرفة المعاد
المجلد التاسع
تأليف
سماحة العلامة الراحل
آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني
أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية
دار المحجة البيضاء













بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م



بيروت - لبنان - حارة حريك - ص.ب : ١٤/٥٤٧٩
ت : ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٥٢٨٤٧ - فاكس : ٠١/٦٠١٠١٩ - ٠١/٦٠٣٣٧٩

هو العليم

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٣

معرفة المعاد

الجزء التاسع

تأليف

سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

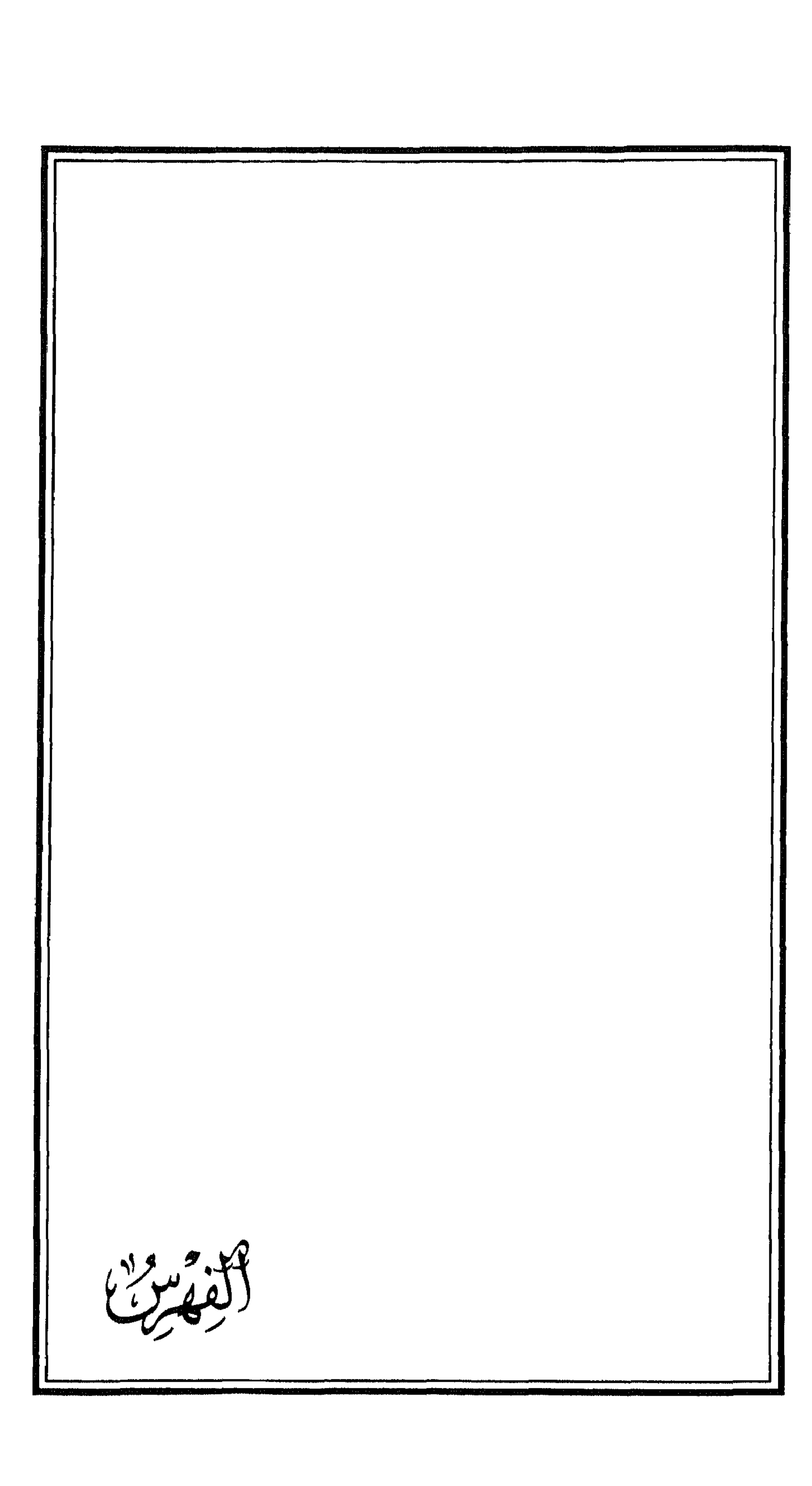
أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب

عبد الرحيم مبارك

دار المحجة البيضاء




الفهرس



فهرس مطالب وموضوعات

معرفة المعاد

الجزء التاسع

المطالب	الصفحات

المجلس التاسع والخمسون :

عموميّة المعاد لجميع الموجودات الأرضيّة والسماويّة

الصفحة ٣ إلى الصفحة ٣١

يشمل المطالب التالية :

المطالب	الصفحات

الدرس الستّون :

الشفاعة ومسائلها الكلّيّة

الصفحة ٣٥ إلى الصفحة ٧٠

يشمل المطالب التالية :

الدرس الحادي والستّون :

شفعاء يوم القيامة

الصفحة ٧٣ إلى الصفحة ١٠٨

يشمل المطالب التالية :

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب	الصفحات

المجلس التاسع والخمسون

عمومية المعاد لجميع الموجودات الأرضية والسماوية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّٰه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ. [1]

ونظير هذه الآية ، قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآىِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ. [2]

ذكرنا بحول الله وقوّته في المجلس الثاني من الجزء الأوّل مطالب عن الأجل والأجل المسمّى ، فاتّضح إلى حدٍّ ما ، أنّ جميع الموجودات الأرضيّة والسماويّة ذات أمد معيّن وحدّ محدود . أمّا الأجل المسمّى الذي هو عند الله ، فباقٍ لا ينفد ولا يزول تبعاً لمفاد الآية الكريمة :

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ. [3]

١ـ الآية ٢ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف.

٢ـ الآية ٨ ، من السورة ٣٠ : الروم.

٣ـ صدر الآية ٩٦ ، من السورة ١٦ : النحل.

وأمّا هذه الآجال المعهودة ، فليست إلّا ظاهراً لذلك الأجل المسمّى ، ومقاماً متنزّلاً عنه . وحقيقة الأمر أنّ الأجل أمر واقعيّ ذو جهتين ، تقابل أولاهما عالم الطبع والفساد والكثرة ، وتقابل الثانية عالم التجرّد والثبات والوحدة . وتدعى الجهة الأُولى أجلاً ، بينما تدعى الثانية أجلاً مسمّى .

وهاتان الآيتان في صدد بيان أنّ السماوات والأرض وما بينهما قد خُلقت بالحقّ وأجل مسمّى . أمّا «الباء» المتعلّقة بـ «الحقّ» و«أجل مسمّى» فهي إمّا للسببيّة أو للملابسة . أي أنّنا خلقناهما بسبب الحقّ والأجل المسمّى ؛ أو ملابسةً للحقّ والأجل المسمّى .

والأجل المسمّى هو حياة الخلود عند الله تعالى ؛ حياة الفوز والظفر والسعادة ؛ وهي حياة تامّة لا يعتريها زوال ولا فناء ، ولا يخالطها فساد ولا تلف ؛ حياة لا تماثل الحياة الدنيويّة المشوبة بالآلام والغصص والمصائب ، بل تُجسّد ـ وباستمرار ـ النور والتجرّد والحقيقة .

وليست هذه الحياة الدنيا إلّا درجة ضعيفة ومرتبة متدنيّة من تلك الحياة ، لأنّ تلك الحقيقة تتنزّل بالتقيّد والتعيّن بلباس القيد والكثرة وبالتأطّر بحدود وقيود هذا العالم ـ عالم الطبع ـ فتتجلّى في رداء تلك الحدود والتعيّنات .

والآية الشريفة : **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** [1] ناظرة إلى هذا المعنى .

وباعتبار أنّ مصدر حياة جميع الموجودات إنّما يتمثّل في خزائن الله التي لا تنفد وأنّ خلق تلك الموجودات هو نزولها من تلك الخزائن والمصادر المطلقة الواسعة المجرّدة وغير المقدّرة بِقَدَر ، وأنّ تلك المصادر

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ١٥ : الحجر .

الأصليّة الحقيقيّة هي منشأ هذه الموجودات الكثيرة ؛ وباعتبار أنّ ذلك الإطلاق هو أساس هذه التعيّنات ، وأنّ ذلك الإجمال هو منشأ هذه التفاصيل ، وأنّ تلك الأمور الواحدة هي مصدر هذه الكثرات ، فلا محالة ـ إذاً ـ من أن تكون تلك الخزائن طافحة بالحياة التامّة اللامحدودة ؛ هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى ، فنحن نعلم أنّ هذا العالم لم يُخلق عبثاً ولا لهواً ، بَيدَ أنّنا لو نظرنا إلى جهة النفاد والزوال والفناء والفساد والآلام والغصص والمصائب وحوادث الموت دون أن نلحظ بعدها تلك الحياة الأبديّة السرمديّة ، ودون أن نعتبر ذلك طريقاً لبلوغ تلك الحقيقة الثابتة ؛ فإنّ خلق العالم سيكون ـ بلا شكّ ـ عبثاً لا طائل بعده .

أمّا لو استهدفت هذه الحركات مقصداً معيّناً ، واستهدف كلّ هذا البحث أمراً معيّناً ، وتعلّق بهدفٍ مشخّص ؛ ولو كان كلّ هذا الفِراق من أجل وصالٍ ما ، وهذه المَجازات من أجل بلوغ حقيقةٍ ما ، وهذه النشاطات من أجل إدراك منزل محدّد ، فسيكون محطّ رحال هذا العالم المتحرّك معاده الذي يتحرّك إليه فيصله ويسكن إليه . ولدينا برهان فلسفيّ وعقليّ في عدم بطلان العالم ، إذ حيثما وُجدتْ حركة ما ، وُجد هنالك هدف وغاية .

ولمّا أثبتنا أن أساس العالم قائم على الحقّ ، فلن يكون الباطل هو الغاية والنتيجة المتوخّاة من أساس الحقّ ، لأنّ الباطل والعبث واللغو أُمور عارية عن القصد والغاية .

أمّا فيما لو تحرّك الحقّ ، اتّجهت حركته نحو الحقّ ، ولبلغه . وسيكون ذلك الحقّ هو الغاية الإراديّة لذلك الفعل وتلك الحركة .

وبما أنّ الفعل الإراديّ يبلغ بالمتحرّك إلى الغاية الباعثة على الحركة ، وأنّ نفس المحرّك ـ وهو العلّة الفاعلة للتحريك ـ هو علّة غائيّة لذلك

التحريك ، فمن المحال أن تكون الغاية من الفعل (أي الفعل الذي تمثّل الحركة والبحث أساس وجوده) منصبّة في نفس الفعل . ولا يمكن أن يكون الهدف من عالم الخلق هو نفس عالم الخلق ، مع افتراض مشاهدتنا لعالم الخلق متحرّكاً في ذاته ، في سير وبحث دائبين .

وينبغي ـ على هذا الأساس ـ أن تتّجه هذه الحركة إلى السكون المطلق ، ويركن هذا النشاط والحيويّة إلى الهدوء والاستقرار ، ويميل هذا الهيجان إلى السكون والصمت ، وأن يستهدف هذا التغيير والتحوّل بلوغ جانب الثبات والاستقرار ، وإلّا فسيستلزم ذلك لغويّة وبطلان هذا العالم .

أجل ، فليس هناك من معاد للموجودات التي لا تمتلك حركة ، سواء كانت تلك الحركة ذاتيّةً أم عرضيّة ، أم حركة من النقصان إلى الكمال ؛ ولا للموجودات التي خُلقت منذ البدء في حال من الثبات والاستقرار والتجرّد ، إذ ليس لتلك الموجودات من مبدأ ، ليكون لها ثمّة عود ومعاد ؛ وليس لها من نزول ، ليتبعه ثمّة صعود ؛ وليس لها من حركة ، لتبحث عن السكون ؛ إذ يختصّ هذا الأمر بالأسماء والصفات الكلّيّة الإلهيّة والاسم الأعظم والروح ـ وهو أفضل من جميع الملائكة ـ وبالمخلَصين المهيمنين على عالم الكثرة ، الذين هم واسطة الفيض من المبدأ الواجب إلى الماهيّات والقوالب الإمكانيّة ؛ وهو مما سنتحدّث عنه لاحقاً .

وبالإضافة إلى الآيتين السالفتي الذكر ، ثمّة آيات أُخرى تدلّ على عدم بطلان العالم ، مثل آية :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ.[1]

١ـ الآية ٢٧ ، من السورة ٣٨ : ص .

وآية : إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ.[1]

وآية : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ (دون أن يعترض علينا أحد ، لكنّ ما خلقناه كان عين المصلحة والحكمة) إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ.[2]

والآية التالية أكثر وضوحاً :

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ.[3]

أي أنّ الباطل له صورة غير دائمة من الباطل ، ومسيّر نحو الحقّ ، وأنّ ثمّة حقّ مقاوم يكمن في باطن كلّ باطل . وهذه أمثال يضربها الله عزّ وجلّ لتدركوا من سير الزمان وتغييرات العالم ، ومن المصائب والشدائد ما اقترن بها من الحقّ ، ولازمها ملازمة حتميّة. إذاً ، فحركة العالم هي حركة باتّجاه الحقّ تعالى .

وقد ذكرنا في الأبحاث السابقة أنّ تمام العالم حيّ ذو شعور وقدرة ،

١ـ الآيتان ١٩٠ و١٩١ ، من السورة ٣: آل عمران.

٢ـ الآيتان ١٦ و١٧ ، من السورة ٢١: الأنبياء.

٣ـ الآية ١٧ ، من السورة ١٣: الرعد.

وأنّ الحيوانات والنباتات والجمادات ذات قدرة وقوّة إدراك . وعلى الرغم من تصوّرنا بأنّ الجمادات لا تتمتّع بالحياة والعلم ، إلّا أنّها ليست كذلك في حقيقة الأمر ، لكنّنا لا نعلم بذلك .

إنّ الله تعالى لا يفرّق في آيات الخلقة ، كآية : **مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى** ، الآية :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا بين الموجودات التي نتصوّرها حيّة أو غير حيّة ، ويحكم على الجميع بالمعاد والحشر على نحو الإطلاق والعموم .

وعلى هذا الأساس ، فلا اختصاص للمعاد بالإنس والجنّ ، بل المعاد والحشر للملائكة والنباتات والجمادات أيضاً ، وبشكل عامّ فالمعاد لكلّ موجود سواء كان أرضيّاً أم سماويّاً أم ما بينهما .

أمّا بخصوص الموجودات الحيّة كالحيوانات بكافّة أنواعها وأصنافها المختلفة التي يضيق حصرها والتي تعيش على الأرض أو في البحر أو الهواء ، فالآية التالية تمثّل شاهد صدق صريح على ادّعائنا :

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ (سواء على الأرض أم في البحر) **وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ** (كتاب التكوين ، وهو عالم الوجود والإمكان) **مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**.[1]

ويوصلنا ظاهر هذه الآية إلى أنّ الحيوانات أُمم كحال الإنسان ، لذا فهي لم تُخلق عبثاً أو باطلاً وعليه فهي مشمولة بالحشر ؛ ثمّ إنّ في خلقها غاية ونهاية مطلوبة ، وتلك الغاية هي عودها إلى خالقها .

فما هذا الافتراق والتشتّت في هذا العالم إلّا من أجل الاتّصال

١ـ الآية ٣٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

والاجتماع والحشر في ذلك العالم . فهذا هو المقدّمة ، وذاك ذو المقدّمة .

كما ويعود الافتراق والنشر في بدايته الحاصل في هذا العالمإلى جهة النزول من عالم الجمع والحشر ، والآية : **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** تظهر هذه الحقيقة بوضوح ؛ وكذلك الأمر في مقام أسماء الحضرة الأحديّة سبحانه وتعالى وصفاتها ، فالأسماء الجزئيّة والمتعيّنة تمثّل مرتبة نزول الأسماء والصفات الكلّيّة في كلّ عالم ،كلاًّ بحسب درجته ومرتبته ؛ فالأسماء والصفات الكلّيّة هي مرتبة صعود وإطلاق الأسماء والصفات الجزئيّة في كلّ عالم ،كلاًّ بدوره وبحسب درجته ، وصولاً إلى تلك الأسماء والصفات المبرّأة من حدود التعيّنات من جميع جهاتها ، والخارجة عن كثرات عالم الصورة والمعنى والمبرّأة حتّى من تعابير انطباق المفاهيم المتعددة :

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ.[1]

ويستفاد من الآية السابقة من سورة الأنعام أنّ حشر الحيوانات إلى خالقها هو نتيجة كونها أُمماً كالإنسان ، وأنّ علّة وسبب هذا الخلق واحد كما عبّرت عنه الآية : **مَا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ**. أي أنّنا لم نفرّط في كتاب الخلق وصحيفة التكوين الإلهيّة من خلق أي شيء ذي غاية ونهاية وحركة على أساس الحقّ ، وذلك لانتفاء أيّ قصور في كتاب التكوين وخلوّه من العبث واللغو ، ولأنّ هذا الكتاب هو الذي يقول عنه : **هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ**.[2]

وأنّ أحقّيّته توجب عدم جعل الاختلافات بين الموجودات الحيّة

١ـ الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

باطلاً ولغواً وعبثاً ـ كأن يجعل بعضها دوابّ ، وبعضها زواحفَ ، وبعضها الآخر طيوراً ، أو أن تُجعل ذات أشكال وصور مختلفة وأفعال وخواصّ تميّز كلاً منها عن الأُمم الأُخرى ـ بل إنّ هذه الاختلافات ـ كلاً بدوره ـ مؤثّرة في بلوغ الغاية وفي وصول كلّ شيء إلى كماله المطلوب ، وفي انتهاء الحركة الخاصّة بكلّ فرد دون أن يهلك ويفنى خلال الطريق قبل إدراكه الغاية المستهدفة . وبغير هذا التوجيه فستكون الاختلافات بين الموجودات أمراً باطلاً ، ممّا يجعل الخلل يتسرّب إلى إتقان الكتاب الإلهيّ وسيُشاهد فيه تفريط وقصور ! **وَسُبْحَانَ اللهِ أَنْ يَكُونَ فِي فِعْلِهِ تَفْرِيط ، كَمَا لَا يَكُونُ فِي صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ قُصُورٌ.**

فالنتيجة الحاصلة هي أنّ الحيوانات الأرضيّة هي أُمم كالبشر ، وأنّها ستماثل الإنسان في معاده واجتماعه عند ربّه تعالى .

وهناك آية أُخرى تبيّن معاد الحيوانات عموماً :

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ.[1]

فقد أثبتت هذه الآية حكم الجمع (أي الحشر) لكلّ ذوات الأرواح الموجودة في السماوات والأرض . وثمّة نظير لهذه الآية في سورة مريم :

إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَـٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا.[2]

والمراد من إتيان جميع الأفراد إلى الله تعالى في حال العبوديّة ، هو أنّ الالتفات الكامل لجميع الأفراد هو التفاتٌ إلى الله سبحانه ، وقد خضعوا

١ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٢ـ الآيات ٩٣ إلى ٩٥ ، من السورة ١٩ : مريم .

أمامه تكوينياً في صفة العبوديّة المحضة ، وصار كلّ منهم **لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**.

أمّا المراد من مجيء كلّ مَن في السماوات والأرض عند ربّه فرداً ، أي إتيان الجميع صفر الأيادي خالية ، لم يحملوا معهم من أسباب الدنيا وتعيّناتها شيئاً ، ولم يصطحبوا معهم شيئاً من الحول والقوّة والأولاد والعون والعشيرة والأموال والرسوم الدنيويّة التي جعلتهم ذوي وجاهة واستكبار .

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ.[1]

وهذا هو معنى الفرد الوارد في الآية : **وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا**.

أي أنّ كلّ امرئ يذهب إلى الله وهو عارٍ ، أي دون أن يستصحب معه أيّ شيء ممّا كان يدّعي ملكيّته في الدنيا ، فيأتي ربّه فرداً وحيداً بكلّ ما للكلمة من معنى ، وعبداً بحقيقة معنى العبوديّة .

لقد كان عبداً أبداً ، وما كان مالكاً ولن يكون ، على الرغم من ادّعائه الربوبيّة والملكيّة وهو في عالم المجاز وخلف حجاب الأنانيّة ؛ وسيُكشف يوم ظهور الحقائق وتجلّيها ـ يوم القيامة ـ زيف دعواه الملكيّة ، وأنّه ما كان إلّا عبداً حقّاً،ولن يكون إلّا كذلك .

وهذا هو معنى الفرد ، الذي ذُكر بصيغة الجمع ـ فرادى ـ في آية أُخرى ، حيث تقول الملائكة عند قبض أرواح الظالمين :

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ (بلا تعيّن ولا أسباب) **كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**.[2]

١ـ الآية ١٦٦، من السورة ٢: البقرة.

٢ـ الآية ٩٤، من السورة ٦: الأنعام.

حيث أبانت الجمل التالية تفسير كلمة فرادى ، وهي : كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُم ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ .

فهذا هو المطلب كما في الآية مورد البحث : وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا . أي أنّ جميع موجودات السماوات والأرض ستأتي الله يوم القيامة فرداً ، دون أيّة جهة للتعيّن .

ولمّا اتّضح معنى الفرد ، وعلمنا أنّه مَن يذهب فرداً دون تعيّنات نفسيّة ولا كثرات صوريّة ، فقد اتّضح معنى الجمع أيضاً ؛ وبما أنّ معنى الجمع في أذهان العامّة هو اجتماع الناس مع بعضهم ، فقد يتبادر إلى الذهن هذا المعنى المتعارف دون المعنى المراد منه ، باعتباره من أسماء يوم القيامة .

أمّا الآن فقد أضحى جليّاً أنّ له معنى آخر ، وهو : الورود إلى عالم تزول فيه الكثرات الاعتباريّة وا لتوهّمات الصوريّة والتقيّدات المموّهة وكلّ ما هنالك من شوائب التفرّق .

هذا العالم هو عالم التفريق والنشر ، أمّا ذلك العالم ، فعالم الجمع والحشر . هنا الافتراق عن الحقيقة والمعنى والتلبّس بلباس الكثرة وآثارها ، من أيّ نوع كانت ؛ أمّا هناك فالاجتماع ، أي ورود الإنسان في اجتماع نفسه مخلّفاً وراءه الكثرة وآثارها ، ومتناسياً تماماً شوائب الاثنينيّة والتغرّب والاعتباريّات التخيّليّة والصوريّة .

وحين يتوجّه الإنسان في ذلك العالم إلى الجنّة أو إلى النار ، فإنّه يجتمع مع مَن يشترك معهم في السلوك . أي أنّ الكثرات والجهات التي من شأنها التفريق والتمييز سوف تنهار وتتلاشى ، فتمتزج أُصول النفوس الحسنة مع بعضها امتزاج السكّر بالحليب ، ثمّ إنّها ترد الجنّة . أمّا أُصول ومبادئ النفوس السيّئة ، فتمتزج مع بعضها كامتزاج الحنظل بالسمّ ، ثمّ

تُساق إلى جهنّم .

وهذا هو معنى الجمع والحشر الذي تكرّر الحديث عنهما في الآيات القرآنيّة ، حيث عُدّ **يوم الجمع** من أسماء يوم القيامة .

كما أنّ المعنى الذي ورد في الآيات بألفاظ **فَرْد وفُرادى** هو معنى دقيق جدّاً ، وقد استفيد ممّا يقابل لفظ الجمع . وقد أُطلق لفظا الجمع والحشر في كثير من الآيات القرآنيّة ، مثل : **لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ.**[١]

وآية : **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ.**[٢]

وقد اتّضح أنّ معنى الفرد والجمع هو معنى واحد ، بخلاف ما يتبادر إلى الذّهن . أي أنّ الذهاب إلى الحضرة الأحديّة في هيئة فرادى يستلزم الجمع ، حيث تُنسى آنذاك الكثرات المفرّقة والمشتّتة . وسنرى بحول الله وقوّته في مسألة الشفاعة واللحوق والإلحاق كيفيّة تصدّي لفظ الجمع المذكور لحلّ تلك المسائل .

وعلى هذا الأساس أيضاً ، يتّضح معنى الآيتين :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا.[٣]

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا.[٤]

فقد نُظّمت هذه الطوائف والزمر على أساس هذا الجمع ، حيث ينبذ الأفراد المتماثلون في الفكر والعقيدة والسلوك الجهاتَ التفريقيّة

١ـ الآية ٨٧، من السورة ٤: النساء.

٢ـ الآية ٩، من السورة ٦٤: التغابن.

٣ـ الآية ٧١ ، من السورة ٣٩: الزمر.

٤ـ الآية ٧٣، من السورة ٣٩: الزمر.

والاختلافات الشخصيّة جانباً ، ويتّحدون ببعضهم في مقام الجمع فيفدون بأجمعهم على الجنّة ، أو يساقون بأجمعهم إلى النار .

كما تبيّن الآيتان الكريمتان : **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ** ،[1] هذا المعنى بجلاء .

أجل ، فآية **وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا** ذات دلالة على حشر ذوات الأرواح ومعادها .

ومن جملة الآيات الدالّة على حشر ومعاد غير ذوات الأرواح (من الجمادات غير ذوات الشعور والإحساس) ، الآية الكريمة :

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ .[2]

فقد عزا ضمير **كَانُوا** في كلام الموضعين : **كَانُوا لَهُمْ** ، و**كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ** إلى المعبودات من الجماد والنبات دون البشر والملائكة .

وقد نُصّ في هذه الآية على أنّ هذه المعبودات تُحشر يوم القيامة فتكفر بعبادة مَن عبدها . والسبب في اعتبارنا لفظ **مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ** عائداً إلى غير ذوات العقول ، وفي إرجاعنا ضمير **كانوا** إليها ، هو قوله تعالى :

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ[3] *** إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ**

١ـ الآيتان ٣٦ و٣٧ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٢ـ الآيتان ٥ و٦ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٣ـ القطمير : القشرة الدقيقة التي على النواة بين النواة والتمر .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.[1]

حيث نفهم منه وبقرينة : **إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ**، و : **وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا**، أنّ المراد من الشركاء الذين أشرك بهم المشركون في هذا العالم هم الأصنام الجامدة الفاقدة للشعور والإدراك. فهي ـ إذاً ـ ستُحشر يوم القيامة فتكفر بشرك المشركين وتنكره. ويتمثّل كفرها يوم القيامة وإعراضها عن المشركين الذين كانوا يعبدونها في قولها : تبرّأنا إليك ـ يا إلهنا ـ من أعمالهم وأفعالهم، وتوجّهنا إليك وعُذنا بك! إنّهم لم يعبدوننا أساساً، وليس من اللائق ـ مع وجود أصالتك وحقّانيّتك ـ أن تُنسب العبادة إلينا أو أن تتحقّق بنا.

تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ.[2]

ولمّا فُسّر مراد الآية التي سبقتها : **مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ** بمصاديق الآية اللاحقة : **إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ**، فسيكون المراد بـ : **مَن لَّا يَسْتَجِيبُ** هو نفس هذه الأصنام الجامدة الفاقدة للشعور والإدراك، إذ ستُحشر هذه الأصنام في يوم القيامة بنصّ هذه الآية، فتصبح عدوّة للمشركين بالله الذين عبدوها : **كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ.**

ومن بين الآيات الدالّة على بعث الجمادات :

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.[3]

١ـ الآيتان ١٣ و١٤، من السورة ٣٥ : فاطر.

٢ـ الآية ٦٣، من السورة ٢٨ : القصص.

٣ـ الآيتان ٢٠ و٢١، من السورة ١٦ : النحل.

ومع أنّ تعبير **أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ** الذي يشمل ـ بحسب المعنى العقليّ الدقيّ ـ الأفراد من ذوي الأرواح ،كالفراعنة الذين كان الناس يعبدونهم في الأزمنة الغابرة، إلّا أنّ الظاهر يدلّ على هذه الأصنام والتماثيل التي اتّخذها مشركو الجاهليّة أرباباً يعبدونها .

وهذه الآية صريحة في أنّ تلك الأصنام لا تدرك زمن حشرها ومعادها .

ومن بين الآيات الدالّة على حشر الجمادات :

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦهُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.[1]

وبلحاظ قوله في هذه الآية الشريفة بأنّ نفس الأموال التي بخل البخلاء عن إنفاقها ، ستكون طوقاً يطوّق أعناقهم ؛ فإنّ معاد الأموال التي وقعت مورداً للبخل سيكون طوقاً يطوّق البخلاء في جهنّم .

أجل ، فالآيات التي أوردناها في هذا المجال ، والتي بيّنت حكم حشر الجمادات ومعادها ، من خلال استخدامها لضمير العاقل ، مثل : **وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِم ، وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ، كَانُوا لَهُمْ ، كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ ، مَا يَمْلِكُونَ ، إِن تَدْعُوهُمْ ، لَا يَسْمَعُوا ، لَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا ، يَكْفُرُونَ ، مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ، فإنّها تفيد أنّ بعث النباتات والجمادات يوم القيامة متلازم مع الحياة والعلم ، لأنّ ذلك العالَم هو عالم الحياة والعلم ، ولأنّه العالم الذي يمثّل فوران الحياة والعلم حتّى أنّ الذرّة الصغيرة التي لا تساوي شيئاً سوف تنضح بالعلم والحياة ؛ وتشير الآية ٢٩ ، من السورة

١ـ الآية ١٨٠ ، من السورة ٣: آل عمران.

٤٢ : الشورى ، إلى هذا المعنى إشارةً لطيفة ، فتقول :

وَمِن ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ.

ويبدو أنّ الضمير في **جَمْعِهِمْ** عائد إلى **ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ** ، ممّا يجسّد دلالة على حياة وعلم السماوات والأرض وما بثّ فيهما من دَوابّ .

أمّا في فصل شهادة الشهداء يوم القيامة ، فقد برهنّا على أنّ الشهادة ـ سواء في مرحلة التحمّل أم في مرحلة الأداء ـ تستلزم الحياة والعلم ، وأنّ ظاهر الآيات الدالّة على شهادة الجمادات ،كأعضاء البدن والأمكنة والأزمنة وغيرها تُظهر سريان الحياة والعلم إلى جميع الموجودات .[1]

وتناولت الأبحاث التي أوردناها في هذا المجال أمر دلالة الآيات القرآنيّة الكريمة على حشر ومعاد النباتات والجمادات وجميع الموجودات السماويّة والأرضيّة ، وقد استفدنا في هذا المجال من دقّة النظرة العقليّة والفلسفيّة .كما أوردنا في المجلس الأربعين (الجزء السادس) مطالباً نفيسة عن المرحوم صدر المتألّهين رحمة الله عليه من «رسالة الحشر» .

أمّا الروايات الواردة في حشر ما سوى البشر والملائكة من أصناف المخلوقات والموجودات التي خلقها الله تعالى في السماوات والأرض وما بينهما ، فكثيرة وتدلّ على أنّ كلب أصحاب الكهف وناقة النبيّ صالح يدخلان الجنّة ، وأنّ الوحوش والكلاب ترد جهنّم فتمزّق المجرمين بأنيابها ، وأنّ الناقة التي يُحجّ عليها ثلاث مرّات أو سبع مرّات تدخل

١ـ انظر : الجزء السابع من هذا الكتاب ، المجلسان ٤٧ و٤٨ .

الجنّة . وهناك روايات ذكرناها في المجلس السابق تتحدّث عن اقتصاص الله **للضحايا** ، واقتصاصه من الشاة **القرناء للجمّاء** .

إنّ الحيوانات ذات شعور وفهم وإدراك ، وهذا الشعور والفهم يستدعيان أن يكون لها حشر ومعاد ، ناهيك عن أنّ جملة **أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ذات دلالة على معانٍ كثيرة ، إذ على الرغم من أنّنا ننظر إليها بعين الاستصغار ، إلّا أنّها ليست على الصورة التي نتصوّرها أبداً ، بل هي ذات عالم خاصّ ، شأنها في ذلك شأن الإنسان . كما أنّ لها مبدأ ونهاية وسير وهدف وشعور وإدراك . وبالإضافة إلى الجهات الظاهريّة الطبيعيّة كالقوّة الناميّة والجاذبة والدافعة والمولّدة والغاذية ـ فإنّ لها في الجهات الباطنيّة ـ كالمثال والنفس ـ آمالاً وإرادةً وعزماً ، ولها ـ كما للإنسان ـ وجود وماهيّة . وبطبيعة الحال فإنّ هذه الأُمور محدودة بحدود هذه الحيوانات وسعتها الوجوديّة .

وقد تذاكر العلماء الأعلام بشأن هذه الحيوانات ، ودوّنوا فيها كتباً ورسائل قد أثارت بحقّ عَجب الإنسان وحيرته ؛ وقد دعانا القرآن الكريم إلى التفكّر والتأمّل فيها ، وعدّ عجائبها وغرائبها من آيات عظمة وجلال الباري تعالى شأنه العزيز ، فيقول :

أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ.[1]

لقد كتب جميع المؤرّخين قصّة أصحاب الفيل الذين استهدفوا تدمير مكّة ، وجاء ذكرهم في الشعر الجاهليّ ؛ فكانت تلك الواقعة بمثابة البداية للتأريخ . وقد ذكروا كيف أهلك الله تعالى بالطيور المحلّقة ملك اليمن ـ وكان جدّاً للنجاشيّ ـ واسمه **أبرهة بن صباح الأشرم** ، وكنيته **أبو يكسوم**

---

١ ـ الآية ١٩ ، من السورة ٦٧ : الملك .

الذي تحرّك بجيش عظيم جرّار تصحبه الفيلة الحربيّة باتّجاه مكّة ، حين صبّت تلك الطيور الحجارة فوق رؤوسهم :

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ.[١]

«حتّى إذا كان مع طلوع الشمس ، طلعت عليهم الطير معها الحجارة ، فجعلت ترميهم ، وكلّ طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران ، وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أُخرى ، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلّا خرقه ، ولا عظم إلّا أوهاه وثقبه»[٢] .

كما أنّ قصّة النبيّ سليمان على نبيّنا وآله وعليه السلام قصّة عجيبة ، حيث سخّر له اللهُ تعالى الطيورَ فكانت من جنوده ، فضلاً عن الجنّ والإنس . وكان سليمان يعرف منطق الطيور ، وكان يرسل تلك الطيور في مهمّات تنجزها له :

وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.[٣]

ويستفاد من الآية الأخيرة عدّة أُمور :

أوّلاً : أنّ نملة قد تكلّمت بهذا المطلب ؛ فللنمل ـ إذاً ـ كلام وتخاطب وقابليّة للبيان والإدراك .

١ـ الآيتان ٣ و ٤ ، من السورة ١٠٥ : الفيل . والسجّيل : حجارة من طين متصلّب .

٢ـ تفسير «مجمع البيان» ج ٥ ، ص ٥٤٠ و ٥٤١ ، طبعة صيدا ؛ و«الميزان في تفسير القرآن» ج ٢٠ ، ص ٥١٢ .

٣ـ الآيات ١٦ إلى ١٨ ، من السورة ٢٧ : النمل .

ثانياً : أنّ تلك النملة قد عرفت سليمان ، وعلمت أنّ هذا الجيش العظيم العرمرم هو جيشه . وبالتأكيد أنّ معرفة هكذا أمر من قبل نملة ضعيفة مهمّ جدّاً .

ثالثاً : لقد علمت النملة أنّ بإمكان جيش سليمان أن يحطم النمل ويسحقه بخيوله ، إضافةً إلى علمها بأنّ سليمان وجنوده لا يعلمون بذلك السحق والتحطيم ، سواءً كان سليمان وجنده لا يعلمون أساساً بأنّ النمل سيُسحق تحت أقدامهم ، أم أنّهم كانوا يعلمون بذلك ولا يعدّونه ظلماً ، لذا تراهم لا يحذرون ـ كما ينبغي ـ في حركتهم ، ولا يبذلون في سيرهم الدقّة المنتظرة من أمثالهم . ومن الجليّ أنّ إدراك هذه المعاني الباطنيّة ، والإخبار عن أفعال سليمان وجنوده في أمر لم يتحقّق بعدُ ـ سواءً كان ظلماً أم لم يكن ـ هو أمر مهمّ جدّاً .

رابعاً : أنّ هذه النملة ـ بناءً على أمر تحطيم النمل وسحقه ـ صارت تنسب إلى سليمان عدم الشعور ، وتعزوه إلى عدم الإدراك ، مع كلّ جلاله وعظمته وقدرته وهيمنته !

ولم يؤاخذ سليمان تلك النملة على ما نسبته إليه ، ولم يُعر لقولها أهمّيّة ، بل تبسّم ضاحكاً من قولها ، ودعا ربّه أن يوفّقه ليشكر النعم التي منّ بها عليه وعلى والديه ، وأن يوفّقه لأعمال صالحة يرضاها له ، وأن يُدخله في زمرة عباده الصالحين :

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ.[1]

١ـ الآية ١٩ ، من السورة ٢٧ : النمل .

فيا إلهنا ! ماذا في هذا العالم ؟ وما هذه الضجّة التي لا نعلم عنها شيئاً ؟ ما قصّة النمل والأرضة ؟ وكيف يجري تكاثرها وتناسلها وتنظّم صيغة عقد الأُخوّة بينها ؟ وكيف يتمّ نكاحها ومعاملاتها ومناجاتها وسيرها وسلوكها ؟ وكيف هي حياتها وموتها ؟ وهنا ، ليُصاب الإنسان بالحيرة والذهول ولا يمكنه من التفوّه ببنت شفة .

مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ.[1]

ولقد عزا الهدهد عدم الإحاطة في العلم إلى سليمان ؛ فقال : جئتُك من سبأ بنبأ يقين :

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ.[2]

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.[3]

أجل ، فثمّة مطالب يمكن استخلاصها من هذه القصّة في أحوال الهدهد :

الأوّل : أنّ الهدهد لم يكن حاضراً عند سليمان في بداية الأمر ، ثمّ إنّه حضر لاحقاً . ولقد كان الهدهد القادم من مدينة سبأ عالماً في الباطن باستدعاء سليمان له ، لكنّه برّر تأخيره في الحضور بعذر وجيه يتمثّل في

١ـ الآيتان ٣ إلى ٤ ، من السورة ٢٧ : النمل .
٢ـ الآيات ٢٠ إلى ٢٣ ، من السورة ٢٧ : النمل .
٣ـ الآيتان ٢٩ و٣٠ ، من السورة ٢٧ : النمل .

إتيانه بخبر جديد إلى سليمان .

الثاني : كان يعلم أنّ حاكم مدينة سبأ ملكة ، فميّز بين المرأة والرجل ، ثمّ إنّه لاحظ عظمتها واقتدارها .

الثالث : علمه بما في ذهن سليمان ، إذ كان يعلم أنّ سليمان لم يُحط بهذا الأمر من قبل .

الرابع : علمه أنّ بلقيس وقومها هم من عبدة الشمس ، وأنّهم ما كانوا يعبدون الله تعالى . وعلمه كذلك أنّ ذلك إنّما هو من تسويلات الشيطان الذي صدّهم عن سبيل الله ؛ وبأنّ سبيل الحقّ والنهج الواضح هو سبيل الله تعالى لا غير .

ولم ينفِ سليمان كلام الهدهد ، بل قال ـ وما أعجب ما قال ـ ينبغي أن نختبر كلامك لنعلم مدى صدقك فيه ؛ حيث نشاهد أنّ سليمان كان بحاجة إلى امتحان وإرسال من أجل تشخيص مدى صدق الهدهد في ادّعائه .

أجل ، فقد كان القصد من ذلك هو بيان كون هذه الأُمور عبارة عن حقائق من عالم الحيوانات ، وأنّ على الإنسان أن ينظر بعين الإعجاب إعجاز قوله تعالى : **أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**.

لقد امتنعت ناقة الإمام السجّاد عليه السلام عن الأكل والشرب بعد وفاته عليه السلام واتّجهت نحو قبره الشريف فبركت عليه وبقيت تضرب برأسها الأرض حتّى تلفت .[1]

١ـ أورد المحدّث القمّيّ في «منتهى الآمال» ج ٢ ، ص ٢٨ ، القطع الرحليّ ، المكتبة العلميّة الإسلاميّة ، عن «جلاء العيون» و«بصائر الدرجات» أنّ الصادق عليه السلام قال : قال أبي الباقر عليه السلام : لمّا كانت الليلة التي وُعدها عليّ بن الحسين قال : يا بنيّ ! هذه ⇦

ومن الأُمور التي لا يشوبها الشكّ ، والحوادث التي شهدها الكثيرون عياناً ، قصّة فرار بعير من المسلخ في مدينة مشهد المقدّسة ، وخروجه مسرعاً من المجزرة الواقعة خارج المدينة ، وطوى الشوارع الواحد تلو الآخر دون أن يُخطئ ، حتّى وصل إلى شارع «بالا خيابان»[1] فاتّجه إلى باب الصحن المطهّر ، وما أن وصل إلى داخل الصحن ، حتّى اتّجه إلى الشبّاك الحديديّ والذي يمثّل محلّ التجاء اللائذين بالإمام ، وبرك على الأرض ووجهه باتّجاه الشبّاك والقبر المطهّر وهو يرغو في حالة رجاء وتوسّل !

وقد قرأنا القصّة في الجرائد ، ولم نسمع مَن ينكرها ، بل إنّ جميع أهالي المشهد الرضويّ المقدّس على مقدّسه آلاف التحيّة والثناء ، يشهدون على صدق وقوعها .[2]

وقد وردت رواية عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام مفادها أنّ فَرَس سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام كان يصهل صهيلاً عالياً ويمرّغ ناصيته بدم الحسين ويشمّه ، وكان يقول في صهيله :

الظَّلِيمَةَ الظَّلِيمَةَ مِنْ أُمَّةٍ قَتَلَتْ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّهَا .[3]

⇐ الليلة التي وُعدتْها . فأوصى بناقته أن يُحضر لها عصام ويُقام لها علف فجُعلتْ فيه . فلم تلبث أن خرجتْ حتّى أتت القبر فضربتْ بجرانها ورغتْ وهملت عيناها . فأتاها [الباقر عليه السلام] فقال : مه ! الآن قومي بارك الله فيك ! فسارت ودخلتْ موضعها ، فلم تلبث أن خرجتْ حتّى أتت القبر فضربت بجرانها ورغتْ وهملت عيناها . فأوتي محمّد بن عليّ ، فقيل له : إنّ الناقة قد خرجت ، فما نفعل ؟ قال : دعوها فإنّها مودّعة . فلم تلبث إلّا ثلاثة حتّى نفقت .

١ـ المدعو حاليّاً بشارع الشهيد نوّاب صفوي . (م)

٢ـ وقد اشترت إدارة أولياء المشهد الرضويّ المقدّس ذلك البعير من صاحبه ، وتركته يرعى في المراتع مع باقي الجمال التابعة إلى موقوفات الإمام .

٣ـ «مقتل الحسين عليه السلام» للمقرّم ، ص ٣٣٢ ، عن كتاب «تظلّم الزهراء» ⇐

ونقلت المرحومة والدتنا رحمة الله عليها لنا (لأولادها) : لم تكن السيّارات قد استُعلمت في طهران بعد ، وكان الناس يستخدمون الخيل والبغال والحمير في تنقّلهم من مكانٍ إلى آخر . وكان لكلّ عالم من العلماء دابّة يمتطيها ، ويربطها في ساحة البيت الخارجيّة .

قالت : وكان لأبيكم حمار مصريّ من الحمير المصريّة المشهورة بالخفّة وصغر الجثّة وسرعة السير ، وكان يمتطيه حيثما أراد الذهاب ، سواء إلى المسجد أم إلى الدرس أم إلى مكان آخر ، وأوّل ما يقوم به عند عودته إلى البيت هو تفقّد أحوال حماره وتقديم الماء والعلف ، قبل أن يخلد بنفسه إلى الراحة . وذات يوم شدّ الرحال لزيارة العتبات المقدّسة ضمن إحدى القوافل ، وكانت القوافل آنذاك تستخدم صناديق خشبيّة مفتوحة تدعى « كَجَاوة» تُربط إلى جانبي الجمل أو البغل ليركب عليه الناس . وقد أناط مهمّة رعاية أُمور المنزل لعمّنا الأكبر المرحوم الحاجّ السيّد محمّد كاظم ، فكان عمّنا هذا يجلب العلف للحمار ، لكنّ الحمار لا يأكل منه شيئاً . ومهما حاول معه بأُسلوب الرعاية والملاطفة لكنّه لم يصل إلى نتيجة ، حتّى مرّت ثلاثة أيّام كاملة والحيوان جائع طاوٍ ، فاضطرّ إلى إهدائه إلى شخصٍ ما ، لعلّ ذلك الشخص يتمكّن من إطعامه بطريقة ما لينجيه من الموت .

وكان أحد أساتذتنا الأجلاء في علم العرفان الإلهيّ ، وهو المرحوم رضوان مقام عرفان الحقّ واليقين : آية الله الحاجّ الشيخ جواد الأنصاريّ الهمدانيّ رحمة الله عليه ، يقول : نهض أحد السالكين ليلاً ليصلّي نافلة الليل ، فسمع كلب الجيران يقرأ سورة الشمس .

⇐ ص ١٢٩ ، وعن «بحار الأنوار» ج ١٠ ، ص ٢٠٥ ؛ طبعة الكمبانيّ .

وأظنّ أنّ «أحد السالكين» هو نفسه ، إلّا أنّه ذكره هكذا ، لأنّ الأعلام لا ينسبون إلى أنفسهم في الغالب مثل هذه الأُمور .

وباعتقادي أنّ قراءة الكلب بسورة الشمس قد مثّلت مكاشفة حصلتْ له من صوت الكلب ، لأنّه كان آنذاك منهمكاً بالمجاهدات النفسانيّة لتزكية النفس ، فتحقّقت في شأنه هذه السورة المشتملة على قَسَم زائد في إثبات نجاح وفوز مَن يزكّي نفسه .

كما قد ذكرت والدتنا قصصاً عن وفاء الكلب ، منها : أنّ المرحوم الميرزا حسين علي فرمانفرما ، كان ذات يوم واقفاً على ساحل البحر يريد السباحة ، فاعترضه كلبه ، لكنّه لم يُعره اهتماماً ، وحين أراد الدخول في الماء ، سبقه الكلب فرمى بنفسه أمامه ، فابتلعه على الفور حيوان ضخم . فانصرف المرحوم فرمانفرما عن السباحة وقد أدرك أنّ هذا الكلب قد منعه من التوجّه إلى الماء لهذا السبب ، وقد أفدى الكلب حياته قرباناً لصاحبه غير العابئ به !

ومن تلك القصص ، نُقل عن المرحوم الحاجّ معتمد الدولة فرهاد ميرزا قوله : كان لي سابق معرفة بالسفير الإنجليزيّ في طهران ، فذهبت لزيارته يوماً ، فأخرج ألبوماً ليريني ما فيها من صور ، وكان يعرض عَلَيّ الصور الواحدة تلو الأُخرى ، حتّى بلغ صورة لكلبٍ ، فأجهش عند رؤيتها بالبكاء ، فسألته متعجبّاً : مِمَّ بكاؤك ؟

قال : لديّ ذكرى رائعة عن وفاء هذا الكب . ففي أحد الأيّام قرّرت الدولة إرسالي في مهمّة ما إلى خارج المدينة ، وكان عَلَيّ أن أسير مسافة غير قليلة ، فأعددتُ حقيبتي الحاملة لوثائق حكومية مهمّة جدّاً ، وأخذت كلبي معي في تلك الرحلة . وبعد مدّة من المسير وصلت إلى شجرة كبيرة ، فأخلدتُ في ظلّها إلى الراحة هنيئة . ثمّ نهضتُ لمواصلة السير ، لكنّ

الكلب اعترضني وحاول منعي ، وقد وقف بإصرار أمام متابعتي للرحلة ، وباءت كلّ محاولاتي معه بالفشل ، فاضطررت لإخراج مسدّسي وإطلاق النار عليه لأتمكّن من مواصلة سيري .

وبعد أن سرت مسافةً ما انتبهت إلّا أنّي قد نسيتُ حقيبتي تحت الشجرة ، فرجعت مسرعاً باتّجاه الشجرة ، وما إن وصلت هناك فقد أدركتُ سبب معارضة الكلب الشديدة لي ، فأُصبت بحزن شديد ، لأنّي قد أضعت الحقيبة وقتلتُ الكلب بلا داع . ثمّ قلتُ في نفسي : لأبحث عن الكلب وأرى ما حلّ به . فذهبت إلى الموضع الذي أطلقت فيه الرصاص فشاهدت بقعة دم على الأرض ، ولاحظت أنّ الكلب قد تحرّك من موضعه ، فاقتفيت آثار الدماء ، حتّى وصلت إلى الكلب فرأيته ساقطاً في حفرة وقد فارق الحياة وهو مطبق على حقيبتي بأسنانه . فعلمت أنّ هذا الحيوان قد رأى أنّ ممانعته لا تجدي نفعاً معي ، ففكّر ـ بعد إطلاقي الرصاص وسيري ـ في إبقاء الحقيبة بعيداً عن متناول أيدي العابرين ، علّها تصل إلى يدي بهذه الطريقة ، لذا فقد أوصل نفسه إلى تحت الشجرة ، على ما فيه من جراحات فأزاح حقيبتي عن الطريق جانباً ، ثمّ هوى في حفرة وأسلم الروح ! أفلا يليق بي ـ والحال هذه ـ أن أحزن على مثل هذا الكلب ؟

أجل ثمّة الكثير من الحكايات والقصص التي تحكي عن وفاء الكلب ، وكثيراً ما شوهد هذا الحيوان وقد تيبّس في البرد القارس وأسلم الروح وهو يحرس أموال صاحبه ، بينما كان بإمكانه أن يلوذ بمكان دافئ يحميه .

وبغضّ النظر عن هذه المعاني النفسانيّة ،فبعض إحساسات الحيوان تفوق ما يتمتّع به الإنسان، فالكلب ـ مثلاً ـ يحسّ بالزلزلة قبل وقوعها ،كما أنّ حاسّة الشمّ لدى القطّة والنملة قويّة جدّاً .

ويقال إنّ الأُذن البشريّة لا تحسّ بالأصوات التي تقلّ ذبذباتها وتردّد أمواجها عن ستّ عشرة ذبذبة في الثانية أو التي تزيد على عشرين ألف ذبذبة في الثانية ، بَيدَ أنّ آذان بعض الحيوانات قادرة على التقاط تلك الأصوات إلى حدود سبعين أو ثمانين ألف ذبذبة في الثانية .

كلّ ما قدّمناه شواهد حيّة على معاد الحيوانات وحشرها ، حيث إنّها ـ شأن الإنسان ـ أُمم تمتلك آلاف الآثار والخصائص ضمن حيّز وجودها ، إلّا أنّ الإنسان يجهلها ، ولا يعلم منها سوى القليل .

فمن رفع أحجار بيت المقدس رأى دماً عبيطاً بعد شهادة الإمام عليّ وسيّد الشهداء عليهما السلام . وقد استحالت عصا النبيّ موسى بأمر الله تعالى ثعباناً يتحرّك ، ممّا ألقى الفزع حتّى في قلب موسى : **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ**.[١]

وكانت الريح ـ وهي من الجمادات ـ تجري بأمر سليمان رخاءً حيث شاء : **فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ**.[٢]

كانت هذه آيات وروايات حول مسألة معاد وحشر جميع الحيوانات السماويّة والأرضيّة . ونقول تلخيصاً للمطلب : إنّ جميع هذا العالم ، عالم وحدانيّ مترابط ، قد اندمجت كلّ قواه وذرّاته ، واجتمعت مخلوقاته واتّصلت مع بعضها البعض؛ وإنّه عالم ذو مبدأ واحد خلقه بأمره ، فتنزّل من العوالم العليا في هذه الصورة والكيفيّة . وهو ـ كذلك ـ عالم متحرّك بأجمعه إلى ذلك المبدأ الواحد ، وإنّ له معاداً إلى ربّه . ولا معنى ـ مع هذا الصنع

١ـ الآية ٩، من السورة ٢٧: النمل.

٢ـ الآية ٣٦، من السورة ٣٨: ص.

العجيب والخلقة البديعة ـ أن يكون لبعضه معاداً يصل من خلاله إلى هدفه وغايته ، بينما يتوقّف البعض الآخر دونما داعٍ عن الحركة إلى معبوده ومقصوده .

ولا تفاوت في هذه العودة بين الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ، والفقير والغنيّ ، والمرأة والرجل ، والإنسان والجنّ والملائكة ، والحيوانات البريّة والبحريّة والطيور المحلّقة في الجوّ ، والنباتات والأشجار والجمادات ، إذ إنّ على جميع الموجودات ذات القوّة والقابليّة أن تبلغ مرحلة تكاملها وفعليّتها ، وإلّا لزم من ذلك نقض الغرض ، ولتبدّل هذا العالم المتقن المحكم إلى عبث وباطل .

ولقد طُبع ختم **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**[1] على الجبين المبارك للرسول الأكرم وعلى جبين سائر الأفراد الآخرين دونما استثناء . ولقد بلغهم جميعاً خطاب **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**،[2] ودعاهم إلى ذلك الوطن المألوف والمبدأ الموعود، وبعثهم في هذا المسير.

وخطاب : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ**[3] جذب الجميع إلى الربّ الرحيم الغنيّ العالم القدير من خلال الفاقة والالتجاء والانجذاب المعنويّ .

وخطاب **وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**،[4] و**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**[5] يوصل عالم الإمكان وبناء الوجود الشامخ إلى غايته وهدفه المنشود ؛ وهو غاية

١ـ الآية ٣٠، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ الآيتان ١٥ و١٦ ، من السورة ٢٣: المؤمنون.

٣ـ الآية ١٥ ، من السورة ٣٥: فاطر.

٤ـ الآية ١٨ ، من السورة ٥: المائدة.

٥ـ الآية ١٢٣ ، من السورة ١١: هود.

الغايات ،كما أنّه مبدأ المبادئ .

لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ.[١]

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.[٢]

وما ذكرنا من الآيات القرآنيّة الكريمة في معاد الحيوانات وحشرها راجعة إلى المخلوقات السماويّة والأرضيّة ؛ أمّا بالنسبة إلى معاد الموجودات التي هي في ما وراء السماوات والأرض ، والخارجة عن دوران الزمان وحدود المكان ، والتي تمتلك مقام الفعليّة التامّة ، فلم يجرِ التعرّض لها ولا لمعادها وهي الموجودات التي لم يحدّ وجودَها شيء ، ولم تُقدَّر ذواتها بقدر معيّن ، لأنّها تفوق الحدّ والمقدار وترتفع عن التعيّن والتقيّد . وقد خُلقت تلك الموجودات من قِبل المبدئ المتعال بفعليّة تامّة ، فلم يعد المعاد متصورّاً بالنسبة إليها ، وصار بدؤها وعودها واحداً . وقد اختصّت الآيات المتعلّقة بالمعاد بالموجودات الأرضيّة والسماويّة ، أمّا تلك الموجودات ، فخارجة عن السماوات .كما أنّ تلك الصفات والتجلّيات والظهورات الحاصلة في يوم القيامة موجودة لتلك الموجودات وملازمة لها باستمرار . على أنّها لا تمتلك قوّة وقابليّة لتبلغ بها مرحلة الفعليّة ، بل هي فعليّة محضة ونور صرف ثابت . ويُلحق المخلَصون ـ بلحاظ الأحكام ـ بهذه الموجودات الفعليّة المحضة ، حيث ذكرنا مفصّلاً ضمن الفصول السابقة شيئاً عن حالات المخلَصين ومقاماتهم ودرجاتهم ، وتعرّضنا لبيان آثارهم وخصائصهم الاستثنائيّة ، فاتّضح أنّهم ما برحوا حاضرين عند الله تعالى دونما حجاب ، بل إنّهم يمثّلون أقرب الحجب والحجاب الأقرب .

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٢ـ الآية ١١ ، من السورة ٣٠ : الروم .

وعلمنا أنّ تلك الموجودات حاضرة لدى الله تعالى دون أن يحجبهم عنه حجاب ، لأنّهم هم الحجاب الأقرب . كما علمنا أنّها ليست ضمن السماوات والأرض ، وأنّها فارغة من الزمان والمكان ، ومهيمنة على كافّة المخلوقات الإلهيّة ، وأنّها تمثّل الواسطة بين الخالق والمخلوق ، سواءً في المبدأ أم في المعاد ، وأنّها مستثناة من حكم قبض الأرواح من قِبل ملك الموت وأعوانه ، وفي مأمن من الخوف عند نفخة الفَزَع ، ومن الموت عند نفخة الصَعْق ، وأنّها لا تحضر في عرصات القيامة وصحراء المحشر ، بل هي حاضرة في الحجاب الأقرب المشرف على عرصة القيامة ، وأنّها الحاكمة يوم القيامة في أمر ورود الجنّة أو اقتحام النار .

وهذه الطائفة من الموجودات مستثناة من المعاد ، لأنّ عودها وبدءها واحد ، ولأنّها لا تمتلك قوّة وحركة ، ولأنّها مبرّأة ومنزّهة عن الطبع وآثار عالم الطبع . أمّا باقي الموجودات ـ مهما كانت وأنّى كانت ـ فذات قوّة وقابليّة تستتبع كونها في حركة إلى أصلها ومقرّها الأوّل ، وهي ـ لذلك ـ ذات معاد، إذ إنّ الله تعالى منتهى كلّ شيء ، كما أنّه مبدأ كلّ شيء :

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ .[1]

وأساس الدليل الفلسفيّ على هذه الحقيقة ، هو وحدة الفاعل والغاية ، إذ كلّما صار الشيء مبدأً لشيء آخر ، فسيكون غاية ذلك الشيء ومنتهاه . وكلّما اكتسب الشيء تعيّنه من شيء آخر واكتسب في ذاته وجوداً منه ، فسيكون مضطرّاً ـ في نهاية المطاف ـ للعودة إلى ذلك الشيء :

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .[2]

١ـ الآية ٤٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٢ـ الآية ٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

ويمكن الاستفادة من القاعدة الكلّيّة القائلة بأنّ المعلول يقف في مرتبة أدنى من العلّة ، أنّ كلاًّ من الجنّة وجهنّم ذات درجات ومراتب متفاوتة . فالجنّة ذات درجات تبدأ من الأعلى وتهبط إلى الأسفل ، وأرفع تلك الدرجات أعلاها ، وأدناها أسفلها ، وكلّ درجة من تلك الدرجات مهيمنة على الدرجات التي هي دونها علوّاً .

أمّا دركات جهنّم فعلى العكس من الجنّة حيث تشرع من الأسفل وترتفع إلى الأعلى . وأشدّها أسفلها ، ثمّ الأعلى منها فالأعلى .

ويستفاد ممّا قيل أنّ كلّ درجة في الجنّة هي في حكم الفاعل للدرجة الأدنى منها وصولاً إلى الدرجة الدنيا منها ، وأنّ كلّ درجة سفلى في جهنّم هي في حكم الفاعل للدرجة التي تعلوها وصولاً إلى أعلاها درجة . ونأمل أن يكون لنا بحول الله وقوّته بيانات مفصلّة عن ذلك في أبحاث الجنّة والنار ، وما توفيقي إلّا بالله ، عليه توكّلت وإليه أُنيب .



المجلس الستون

الشفاعة ومسائلها الكلية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّٰه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا.[1]

بحث الشفاعة من أفضل أبحاث المعاد وأرقاها ، وكثيراً ما تطرّقت إليه الآيات القرآنيّة وروايات المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ، كما وبلغ النقاش والجدل بشأنه بين الباحثين حدّاً جعل البعض يتطرّف في قوله بالشفاعة ، إذ اعتبر الشفاعة المحمديّة شاملة حتّى للمعاندين والناصبين ؛ وجعل البعض الآخر يتطرّف في إنكارها ، إذ يحصرها على الأُمور التكوينيّة فقط ، أمّا في الأُمور التشريعيّة فقد أنكر العفو عن المجرم والتغاضي عن إنزال العقاب الإلهيّ ، وعدّهما أمراً منكراً .

وقد ألّف الفريقان كتباً كثيرة في إثبات الشفاعة أو في نفيها وإنكارها ، ودام البحث بشأنها وطال . بَيدَ أنّ أفضل الأبحاث التي تطرّقت إلى موضوع الشفاعة وسبرت أغوارها ، والتي بُنيت على أساس التفسير

١ـ الآيات ٨٤ إلى ٨٦، من السورة ١٩ : مريم .

الموضوعيّ (الآيات بالآيات)، وعلى الاستشهاد بالروايات الصحيحة، ودُعمت ببحوث اجتماعيّة وفلسفيّة، بحث أُستاذنا الجليل العلّامة الطباطبائيّ في كتابه «الميزان»؛ كما أنّه أورد في «رسالة المعاد»؛[1] بحثاً موجزاً عن الشفاعة قد استنبطه من ارتباط الآيات القرآنيّة بعضها بالبعض الآخر.

ونأمل أن نناقش بحول الله المتعال وقوّته هذا الموضوع بالقدر الكافي، ونتفحّص جميع جوانبه. ونُلقي الآن نظرة إجماليّة على المعنى اللغويّ للشفاعة.

المعنى اللغويّ للشفاعة

جاء في «لسان العرب»: **شَفَع لِي، يَشْفَعُ، شَفَاعَةً وتَشَفَّعَ: طَلَبَ؛ وَالشَّفِيعُ: الشَّافِعُ**، والجمع: **شُفَعَاءَ**.

وجاء في القرآن الكريم:

مَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا.[2]

وجاء في حديث الحدود: **إِذَا بَلَغَ الحَدُّ السُّلْطَانَ فَلَعَنَ اللَهُ الشَّافِعَ وَالمُشَفَّعَ.**[3]

وتكرّر في الحديث ذكر الشفاعة في أُمور الدنيا والآخرة، وهي طلب العفو عن الذنوب والجرائم، ويقال لمن يقبل الشفاعة: **المُشَفِّعُ**، ولصاحب الشفاعة المقبولة: **المُشَفَّع**.

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١، من ص ١٥٦ إلى ١٨٨.

٢ـ الآية ٨٥، من السورة ٤: النساء.

٣ـ أورد مالك هذا الحديث في «الموطّأ» كتاب الحدود، الحديث ٢٩.

وفي «تاج العروس» : **الشَّفْع** : الزيادة . وفي قوله تعالى : **مَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً** ، قال الراغب : أي مَن انضمّ إلى غيره وعاونه وصار شفعاً له أو شفيعاً في فعل الخير أو الشرّ ، فعاونه أو شاركه في نفعه أو ضرّه . فصار كأنّه شفَع له . وذلك كما قال (الرسول الأكرم) صلّى الله عليه وآله وسلّم : **مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَمَن سَنَّ سُنَّةً قَبِيحَةً فَلَهُ إِثْمُهَا وَإِثْمُ مَنْ عَمِلَ بِهَا** .

وفي «صحاح اللغة» : **الشَفْع** : خلاف الوَتْر ، وهو الزوج . تقول : **كَانَ وَتْراً فَشَفَعْتُهُ شَفْعاً** .

وجاء في «النهاية» لابن الأثير نفس ما أوردناه عن «لسان العرب» .

وفي «مجمع البحرين» : **الشَّفيع** : صاحب الشفاعة . قال تعالى :

مَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا . قيل : معناه من يُصلح بين اثنين يكن له جزء منها . **وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً** ، أي يمشي بالنميمة مثلاً **يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا** ، أي إثم منها .

وفي «لغت نامه دهخدا» :[1] نُقل عن معجمي «ناظم الأطبّاء» و«صراح اللغة» أنّها تأتي بمعنى الترجّي والتوسّط . وفي هوامش «دهخدا» أنّ الشفاعة بمعنى التوسّط والوساطة بين اثنين . وفي «ناظم الأطبّاء» أنّها بمعنى التوسّط ، كما جاء فيه أنّها بمعنى ترجّي العفو . وفي هوامش «دهخدا» أنّها تأتي أيضاً بمعنى التوسّط لدى ملك أو عظيم ليعفو عن مذنب ما . وجاء في «فرهنك آنِندراج» أنّ الناطقين بالفارسيّة يستعملون لفظ

١ـ من المعاجم اللغوية الفارسيّة المشهورة ، يُنسب إلى مؤلّفه «دهخدا» . وسيرد لاحقاً أسماء معاجم لغوية فارسيّة أُخرى مثل «ناظم الأطبّاء» و«صراح اللغة» و«فرهنك آنندراج» . (م)

الشفاعة بمعنى الطلب اللفظيّ للمغفرة عن مذنب .

ويستفاد من مجموع ما ذُكر أنّ الشفاعة بمعنى تقوية ومساعدة شيء أو شخص ضعيف محتاج لمعونة ومساعدة . ويستعمل هذا اللفظ في دعم ذلك الموجود المحتاج إلى القوّة ، لحين وصوله إلى مرحلة الاعتدال والكمال وانتفاء الفاقة .

فعصا اليد ـ مثلاً ـ تُدعى شفيعاً ، لأنّ صاحب العصا يحتاجها بسبب ضعف بدنه وقدميه وظهره ، حيث تعينه هذه العصا وتجبر فاقته ، فيرتفع احتياجه خلال الحركة والسير من خلال استناده عليها .

أمّا قدم الإنسان فلا تُدعى شفيعاً مع أنّها تعين قدمه الأُخرى وأنّه سيعجز عن السير بقدم واحدة ، لأنّ عنوان إعانة البدن حال السير أو الوقوف قد لوحظ في العصا ولم يلاحظ في القدم ؛ فالشَّفع مقابل الوَتْر ، وهو الفرد الذي لا يحتاج إلى إعانة أو دعم .

وعليه ، فلدينا ثلاثة تعابير : **شَفْع ووَتْر** ؛ **زوج وفَرْد** ؛ **واثنين وواحد** .

الواحد ، وهو الذي لا يلاحظ له معنى غير الوحدانيّة ، ويقابله **الاثنان** ، وهو تكرار الواحد بغضّ النظر عن أيّ لحاظ آخر .

الفَرْد ، وهو العدد الذي يقابله العدد الزوج .

أمّا **الوتر** فيعني المتوحّد الذي لا يحتاج إلى إعانة ، ويقابله **الشَّفْع** ، وهو المعين والمساعد للشيء الذي لوحظ فيه فاقته واحتياجه لتلك الإعانة .

ولهذا فقد قال في «مجمع البحرين» ، مادة (وتر) : «في تفسير قوله تعالى : **وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ** ؛ قيل : الشفع يوم الأضحى ، والوتر يوم عرفة ؛ وقيل : الوَتْر الله ، والشفع الخلق خُلقوا أزواجاً ؛ وقيل الوَتْر آدم شُفع بزوجته حوّاء ؛ وقيل : **الشفع والوتر** الصلاة منها شفع ومنها وتر» .

أي الصلاة ذات الركعة الواحدة التي تعدّ تامّة وكاملة في حدّ نفسها ،

والصلاة الأُخرى التي لا تعدّ تامّة دون ضمّ ركعة ثانية إلى الأُولى .

ويمكن القول بصورة عامّة إنّ الشفيع عبارة عن انضمام وسيلة وأسباب معيّنة إلى شيء أو إلى شخص لتشفعه بعد أن كان وحيداً ، لإيصاله من خلال ذلك إلى نيل مراده ، ذلك المراد الذي لم يكن نيله ميسوراً له أبداً بسبب ضعفه وقصوره .

وكثيراً ما نستعمل لفظ الشفاعة في أحاديثنا اليوميّة ومحاوراتنا العرفيّة والإجتماعيّة ، ونريد بها ـ على ضوء ما هو متعارف في الوسط الاجتماعيّ ـ نفس هذا المعنى وصولاً للمطلوب وقضاء الحوائج الحيويّة .

وبناء على ما سبق ، فلا اختصاص لكلمة الشفاعة بالشفاعة التكوينيّة أو بالشفاعة التشريعيّة ، سواء في اللغة أم في المحاورات العرفيّة ، بل إنّها تشمل كلا القسمين .

ثمّ إنّ الشفاعة من مصاديق السببيّة ، أي توسيط سبب قريب بين السبب الأوّل البعيد وبين مسبّبه ، سواءً في الأسباب الخارجيّة أم في الأسباب التشريعيّة .

الشفاعتان التكوينيّة والتشريعيّة مختصّتان بالله تعالى

إنّ الله تعالى هو الشفيع في جهتي التكوين والتشريع ؛ أمّا في جانب التكوين ، فلأنّ التأثير منه تعالى ، ولأنّ السببيّة تُختم به . فالله سبحانه هو المالك لبناء الوجود المشيّد ولعالم الوجود والإيجاد . ومن هنا، فإنّ العلل والأسباب التي تتوسّط بين ذاته القدسيّة وبين المسبّبات فتستدعي نشر أنواع الرحمة والنعم التي لا تعدّ ولا تُحصى على عالم مخلوقاته وصنائعه التي ابتدعها ، إنّما تعود إليه جميعاً وهي منه .

فتمام سلسلة العلل والأسباب ـ باعتبار كون كلٍّ منها واسطة للفيض ـ

تمتلك حقيقة الشفاعة ، والله سبحانه هو **الشفيع والشافع** ، بل هو **شَفِيعُ الشَّافِعِينَ وَأَشْفَعُ الشَّافِعِينَ** .

ومن المعلوم أنّ انطباق معنى الشفاعة على شؤون الأسباب والعلل الوجوديّة المتوسّطة واضح في جانب التكوين ، لأنّ هذه العلل والأسباب المتوسّطة ـ كالملائكة والأنواع المجرّدة وغيرها ـ تستمدّ من صفات الله العليا وأسمائه الحسنى ، كالرحمة والإحياء والإماتة والرزق والعلم والقدرة وغيرها ، فتفيضها على هذه الماهيّات العدميّة المفتقرة ، مشيّدة عالم الإمكان بمثل هذه الطراوة والجمال ، وناهضة بعالم الصنع بمثل هذا الإبداع العجيب المحيّر .

وقد ورد في القرآن الكريم : **لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ**.[1]

وورد أيضاً : **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ**.[2]

وتبيّن هذه الآيات في ظاهرها الشفاعة في التّكوين ، إذ إنّ الشفاعة التكوينيّة ـ كما ذُكر سابقاً ـ هي عبارة عن توسّط العلل والأسباب بين الذات الإلهيّة المقدّسة وبين المسبّبات والموجودات الخارجيّة في تدبير وجودها وتنظيمه ، وفي بقائها ودوامها في عالم الخلقة .

الشفاعة التشريعيّة

أمّا في الجانب التشريعيّ فإنّ الله تبارك وتعالى في علوّه وسُمُوّه قد تفضّل على عالم الإنسان الترابيّ الذليل بإرسال الأنبياء وإنزال الكتب

١ـ الآية ٢٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٣ ، من السورة ١٠ : يونس .

السماويّة ، ووضع الأحكام والقوانين في الأوامر والنواهي ، والجزاء عليها بتبعات الطاعة والعصيان التي يجسّدها الثواب والعقاب في دار الآخرة ، وأنعم علينا بنعمة السير التشريعيّ في طريق التكامل . وقد جاء الأنبياء ـ على هذا الأساس ـ فبشّروا الناس برحمة الله ونعمته ، وحذّروهم من العواقب الوخيمة للظلم والخيانة والاعتداء ، فتمّت بذلك الحجّة على الناس ، ولزمهم البرهان والبيّنة باتّباع الصراط المستقيم :

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .[1]

ولابدّ هنا من ذكر مقدّمة لإيضاح جميع جوانب الشفاعة في الأُمور التشريعيّة ولبيان معناها والتعرّف على موقعها وأهمّيّتها .

مقدّمة لإثبات الشفاعة التشريعيّة

إنّ الشفاعة التي نتوسّط بها في أُمورنا الاجتماعيّة ، إمّا أن تكون استجلاباً لنفعٍ ما ، أو أن تكون دفعاً لضررٍ ما ، إلّا أنّه لا يمكن إطلاق كلمة الشفاعة وتعميمها على استجلاب أيّة منفعة أو دفع أيّ ضرر ، لأنّنا لا نتوسّل بالشفاعة فيما تتضمّنه العلل والأسباب التكوينيّة من خير أو شرّ ، كالجوع والعطش والصحّة والمرض والإحساس بالحرّ والبرد ، بل نلجأ في مثل هذه الأُمور إلى الأسباب الطبيعيّة ، فنستخدم الوسائل المناسبة لصيانة أنفسنا من الإصابة بالآفات ، كتناول الطعام والشراب ، وارتداء الملابس والعيش في بيت ومحلّ مناسب ، ومعالجة المرض .

إلّا أنّنا نحصر استخدامنا الشفاعة في أُمور الخير والشّر والمنافع والأضرار المعتبرة في الحكومات الاجتماعيّة على نحو الخصوص أو

١ـ الآية ١١٥ ، من السورة ٦ : الأنعام.

العموم ، لأنّنا نعلم أنّ هناك في دائرة المولويّة والعبوديّة ، ولدى كلّ حاكم ومحكوم عليه ، أحكاماً وقوانيناً وأوامر ونواهٍ ، إن امتثل المكلّف بطاعتها ، فستعود عليه بالثواب الجميل والمدح والثناء وارتقاء الدرجة ، وستدرّ عليه المال والجاه ؛ وللحقه ـ في حال عدم امتثاله ـ توابع ذلك من العقوبات المادّيّة والأضرار المعنويّة .

وبشكل عامّ ، فلو أمر مولىً ووليّ أمرٍ ما عبده ، ومن كان منضوياً تحت لواء حكمه وسيادته ، أن يخضع لحكومته بأمرٍ أو نهيٍ ما ، فإن امتثل للطاعة فسيكافأ بما هو حسن ومرضي ، وإن تمرّد وعصى فسيعاتب ويوبخ بما هو غير مرض .

فهناك ـ إذاً ـ قانونان واعتباران ، هما قانون الحكم والأمر ، وقانون الجزاء الذي يوضع على إثر إطاعة الأمر أو مخالفته .

إنّ هذا الأصل والقاعدة الكلّيّة جارياً في جميع الحكومات ـ سواء الحكومات العالميّة ، أم الخاصّة ، أم بين فرد من أفراد الإنسان مع مَن هم تحت سلطته ـ أي قاعدة : وجود القانون ، والعقوبة والجزاء الحسن على ضوء مخالفته أو موافقته .

ولو أراد إنسان أن يحظى بفائدة مادّيّة أو معنويّة ويحصل على ما عُيّن له من قبل المجتمع ، دون أن يمتلك الأسباب الموجبة لتلك الحظوة ، أو إذا أراد أن يتّقي شرّاً ويدفع عن نفسه الضرر بامتثال الأمر وتحمّل مسؤوليّة التكليف ، فعليه أن يتوسّل بالشفاعة .

وبعبارة أُخرى ، فإن أراد الحصول على الجزاء الحسن دون أن يمهّد له أسبابه من طاعة الأوامر المولويّة والاجتماعيّة ، أو أراد أن يدفع عن نفس عقوبة شديدة دون أن يُنجز ما كلِّف بإنجازه ، فعليه التوسّل بالشفاعة . وسيتّضح في مثل هذه الحالة معنى الشفاعة وتتجلّى حقيقتها ، بَيدَ أنّه ينبغي

أن يكون واضحاً أنّ هذه الشفاعة لا تتحقّق بصورة مطلقة إلّا في موارد خاصّة .

فالذي لا يمتلك لياقة التلبّس بكمال خاصّ ،كأن يريد شخص عامّيّ عاديّ أن يتصدّى لرئاسة كلّيّة في إحدى الجامعات ، أو يتصدّى للتدريس فيها ، أو يريد أن يظهر كمستكبر طاغٍ يستنكف من إظهار الخضوع أمام مولاه ؛ فلا شفاعة في هكذا حالات ، لأنّ الشفاعة تستدعي تكميل العلّة ، لا أن تكون سبباً مستقلاً في التأثير .

وبغضّ النظر عن هذه الأُمور ، فينبغي ألّا تكون شفاعة الشفيع لدى صاحب الشفاعة جزافاً بلا فائدة ، وألّا تحصل دونما سبب أو داعٍ ، وينبغي على الشفيع أن يظهر لدى صاحب الشفاعة أمراً يؤثّر فيه ويقنعه ، فيوجب ـ بهذه الوسيلة ـ الجزاء الحسن ، أو يصرف ـ بها ـ العذاب الشديد .

لا يمكن للشفيع أن يقول للمولى : أبطل مولويّتك واكفف عبوديّتك عن عبدك ، واصرف عقابك وجزاءك عنه !

كما لا يمكنه أن يقول له : أوقف حكمك الذي جعلته وكلّفتَ به عبدك ، وافسخ ذلك الحكم في شأن عبدك بشكل عامٍ أو خاصّ ، وارفع العذاب عنه !

ولا يمكنه أيضاً أن يقول له : أبطِل قانون العقوبات إمّا بشكل عامّ أو في خصوص هذه الواقعة ، ولا تعاقب عبدك .

ومن هنا ، فليس للشفيع أيّ أثر في مرحلة المولويّة والعبوديّة بين العبد ومولاه ، ولا في مرحلة الحكم والأمر ، ولا في مرحلة جزاء الحكم والأمر ، ولا دخل له في هذه المراحل الثلاث .

لكنّ بإمكان الشفيع ـ بعد مراعاته هذه الجهات الثلاث ـ إمّا أن يتوسّل بما يتّصف به الحاكم من صفات تستدعي العفو عن العبد ومسامحته ،

كالتوسّل بجلال المولى وسيادته وكرمه وسخائه وشرفه وأصالته ؛ أو أن يتوسّل بما لدى العبد المذنب من صفات تستجلب رحمة الحاكم وتستدرّ عطفه وشفقته ، وتثير في وجوده حسّ المغفرة والتغاضي ،كذلّ العبد ومسكنته وحقارته وحيرته وسوء حاله ؛ أو أن يتمسّك بالصفات الموجودة فيه بذاته أي في نفس الشفيع ،كقربه من صاحب الشفاعة وكرامته عليه وعلوّ درجته وسموّ منزلته عنده .

وبهذا الطريق يمكنه أن يقول له : إنّني لا أسألك رفع يدك عن مولويّتك وعن عبوديّة عبدك ؛ ولا أسألك إبطال حكمك ، ولا إيقاف قانون جزائك ؛ بل أسألك أن تغضّ الطرف عن ذنبه ، وأن تشمله بغفرانك وعفوك ، لأنّك أنت صاحب الشرف والسيادة والكرم والرأفة ، ولأنّ عذابك له لن يعود عليك بشيء ، وعفوك عنه لن يضرّك بشيء ، أو لأنّه مسكين مستكين ، وأنت أجلّ وأسمى مقاماً من أن تصرّ على عقابه ، أو أسألك بمقامي ومنزلتي عندك أن تقضي لي حاجتي ، أن ترعاه بنظرة عطف تؤدّي به إلى العفو والنجاة .

وفي الحقيقة فالشفيع يطرح موضوعاً جديداً يستلزم حكماً جديداً فيسأل العفو على أساس ذلك الموضوع الجديد ، وذلك الموضوع ناتج عن تحكيم بعض العوامل المتعلّقة بالمورد المعيّن ، والمؤثّرة في رفع عذاب الشخص المجرم وعقوبته الشديدة ، بحيث تصبح تلك العوامل الجديدة حاكمة على العامل القديم الذي أوجد الحكم ورتّب الجزاء والعقاب .

ومرادنا من هذه الحكومة هو أنّ الشفيع يرفع موضوع الحكم الأوّل عن موضعه ، ويدخله تحت موضوع حكم آخر ، وهو العفو والتغاضي والغفران .

ومن هنا ، فالحكم الأوّل (وهو العقوبة) سوف لن يجري في موضعه ،

لخروجه من مصاديق موضوعيّة الموضوع .كما أنّ الأمر ليس بالشكل الذي يبطل الشفيع حكم الموضوع على نحو التضادّ .كما هو الحاصل عند إبطال بعض الأسباب المتعارضة في الطبيعة بعضها الآخر من خلال التضادّ والغلبة في التأثير .

فحقيقة الشفاعة ـ إذاً ـ ليست تضادّاً ولا تزاحماً ، بل هي التوسّط في إيصال نفع أو إزالة ضرر عن موضوعٍ ما على إثر جريان عنوان جديد يطرأ على ذلك الموضوع ، فيُخرجه من عنوان حكم العقاب ويُدخله تحت عنوان حكم العفو والغفران .

وبناء على ما قيل فالشفاعة هي من مصاديق السببيّة ، لأنّها تفصل بين السبب الأوّل والمسبَّب ، فلا تدع السبب الأوّل يُلحق حكم الضرر بالموضوع ، بل تجعله ـ على أساس هذا التوسّط ـ يصدر حكم العفو والمسامحة بشأن ذلك الموضوع .

من هنا ، نحصل على أن ليس ثمّة من إشكال أو محذور من وجهة نظر التشريع أيضاً (الشفاعة عند الله) .

الشفاعة التشريعيّة الإلهيّة

اتّضح ممّا سبق أنّ عنوان الشفاعة لدى الحاكم المطلق جائز وفق شرائط خاصّة ، وقد وردت في هذا الشأن آيات قرآنيّة كريمة ، منها آية :

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا .[1]

وآية : **وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ .**[2]

وآية : **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ**

١ـ الآية ١٠٩ ، من السورة ٢٠ : طه.

٢ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٣٤ : سبأ.

بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَى.[1]

وآية : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.[2]

وهي آيات تقرّر أمر الشفاعة لطائفة من الملائكة والناس بإذن الله وارتضائه ، لأنّ الملك والأمر لله سبحانه ، إن شاء مَلّك الأمر غيره ، أو أشرك سواه في حقّ الشفاعة المختصّ بذاته المقدّسة .

شفاعة العباد الصالحين بأمرٍ من الله

ومن حقّ عباد الله الصالحين وملائكته المقرّبين المتمسّكين بذيل رحمته أن يستفيدوا من صفاته العليا من خلال العفو والمغفرة والمسامحة ، فيشملوا بعناية الله عبداً من عباده قد ساءت حاله بمعصيته ، وإنقاذه من بلاء العقوبة ، وإخراجه من مصداق حكم العقاب الذي يشمل المجرمين .

وذلك لأنّ تأثير الشفاعة ـ كما علمنا سابقاً ـ هو على نحو الحكومة وليس على نحو التزاحم والتعارض والتضادّ .

أجل ، إنّ الله قادر على إنجاز أيّ تغيير وتبديل ، وعلى تكفير الفعل القبيح الذي يرتكبه عبده ، وستره بأنواع الستائر والحجب ؛ أوَ لم يقل سبحانه :

أُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ.[3]

فهو عزّ وجلّ قادر على تبديل السيّئات حسنات ، وقادر أيضاً على إعدام العمل الموجود ونفيه : وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً

١ـ الآية ٢٦ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٢ـ الآية ٨٦ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

٣ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

مَّنثُورًا.[1]

وقادر كذلك على أن يجعل العمل الحسن موجباً لمغفرة العمل القبيح وكفّارةً له : **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ.**[2]

وقال تعالى : **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ.**[3]

ومن الجليّ أنّ عدم غفران الشرك مغاير لمورد الإيمان والتوبة ، إذ لو أشرك امرؤ ما ثمّ آمن ، لكان نفس إيمانه توبةً له وسبباً في العفو عنه . من هنا فالشرك غير قابل للمغفرة حال الشرك ، لا بعد التوحيد وتبدّل الموضوع ، أمّا بعد التوبة والإيمان فسيكون قابلاً للمغفرة ، شأنه في ذلك شأن سائر الذنوب .

أجل ، فالله قادر أن يضاعف العمل القليل ، فقد قال سبحانه : **مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا.**[4]

كما أنّه قادر أن يجعل العمل المعدوم موجوداً ؛ كما في آية اتّباع الذرّيّة آباءها وأجدادها ولحوقها بهم : **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ.**[5]

وبالتأكيد ، فالله عزّ وجلّ لا يفعل هذه الأُمور جزافاً وبلا داعٍ ، بل يفعلها على أساس المصلحة المقتضية والعلّة المتوسّطة في البين .

١ـ الآية ٢٥ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢ـ الآية ٣١ ، من السورة ٤ : النساء .

٣ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٤ : النساء .

٤ـ الآية ١٦١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٥ـ الآية ٢١ ، من السورة ٥٢ : الطور .

وعليه ، فما الإشكال في أن يكون بين تلك الأسباب والعلل المتوسّطة شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه المقرّبين وعباده الصالحين ؟ أفي ذلك ظلم ما ! أوَ هذا الأمر أمر جزاف ؟!

في إثبات الشفاعة الحقّة على أساس الآيات القرآنيّة

تنفي كثير من الآيات القرآنيّة الشفاعة عند الله سبحانه بشكل مطلق ، منها آية :

وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ.[1]

وقوله تعالى : **وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ.**[2]

وقوله تعالى : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ.**[3]

ولبيان مضامين هذه الآيات وتعيين مصاديقها ، لابدّ لنا من ذكر مقدّمة .

الشفاعة عند عبدة الأصنام

لقد وُضعت دعائم الحكومات الدنيويّة ـ على اختلاف أساليبها وتنوّع شؤونها وأنواع قواها المقننّة والحاكمة والتنفيذيّة ـ على أساس الحاجات الضروريّة الدنيويّة .

والهدف من هذه القوانين هو سدّ احتياجات الناس على حسب ما

١ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٢٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآية ٢٥٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

تقتضيه الظروف الزمنيّة والمكانيّة . وكثيراً ما يحصل أن تطرأ في القوانين تغييرات غير محكومة بضابط ولا خاضعة لميزان عامّ ، من قبيل تبديل مالٍ إلى مال آخر ، أو تغيير مقام إلى مقام آخر ، أو نسخ حكم بحكم آخر . هذا وقد يكون قانون العقوبات أكثر من غيره عرضة لهكذا تغييرات . وعلّة ذلك هي أنّ الجريمة والجناية تستتبع في قوانين الحياة الوضعيّة الحَبس والعقاب والإعدام وإسقاط الرتبة وسائر أنواع العقوبات الأُخرى .

وغالباً ما يحصل أن تتغير أحكام العقوبة تبعاً لأغراض مختلفة ، فيغيّر الحاكم حكمه نتيجة حدث طارئ يستوجب تغيير تلك العقوبة ؛كأن يصرّ الشخص المجرم ـ وهو على أعتاب جريمته ـ في أمله باستثارة عواطف القاضي لكي يستدر عطفه ليغضّ النظر عنه أو يرشو القاضي فيحرفه عن المسار الصحيح للحكم ، ويدفعه لمغايرة حكم الحقّ ؛ كأن يبعث المجرم إلى الحاكم شفيعاً يتوسّط له لديه ؛ أو يرسل الشفيعَ إلى منفّذ الحكم ليوقف تنفيذ الحكم على ذلك المجرم ؛ وكأن يفدي المجرم نفسه بغلامه أو بابنه أو بأخيه ، فيبعث بأحدهم إلى الحاكم لمعاقبته بدلاً عنه .

ويحصل ذلك في حال احتياج الحاكم المتأهّب لإنزال العقاب إلى هذا البديل أكثر من احتياجه إلى نفس المجرم ، فيقوم برفع العقوبة عن المجرم وإصدار حكمها على من جُعِل كبشاً لفداء المجرم ؛ وكأن يستعين المجرم بقومه وعشريته وأصحابه ، فيجتمعون ويتعاضدون على إعانته وتخليصه . وقد راج هذا النوع من التخلّص بالشفاعة والرشوة وغيرها بين الأُمم منذ قديم الزمان .

وكان عبدة الأصنام وغيرهم من الأُمم القديمة يعتقدون أنّ الحياة الآخرة تشبه الحياة الدنيا تماماً ، وأنّ الأسباب المادّيّة والطبيعيّة الجارية في هذا العالم ستكون سارية في ذلك العالم أيضاً ، وأنّ الفعل والانفعال الطبيعيّ

جاريان هناك .

وعلى هذا الأساس ، فقد كانوا يقدّمون لآلهتهم أنواع الهدايا والقرابين لتغضّ الطرف عن عقابهم ، أو لتعينهم في أُمور معيشتهم ، أو أملاً في شفاعة تلك الآلهة ، أو فداءً لأنفسهم منها . وكانوا يدفنون معهم في قبورهم غلمانهم وأسلحتهم الحربيّة ، ويتسلّحون بمختلف الأسلحة ليتمكّنوا - حسب اعتقادهم بتلك الوسيلة أي كثرة الأعوان والأنصار وحمل السلاح - من الدفاع عن أنفسهم ودرء الجزاء المنتظر وشدّة العقوبة .

ونلاحظ في متاحف العالم اليوم كثيراً من هذه الأُمور وهي تحكي عن أُسلوب تفكير تلك الأُمم الجاهليّة .

كما نلاحظ على مقربة من الأهرام الثلاثة - التي تمثّل قبور فراعنة مصر - أرضاً ممتدّة قد استخدمت كمقبرة لعبيد أُولئك الفراعنة ؛ أُولئك العبيد الذين كانوا يرزحون تحت السياط ووطأة الأعمال الشاقّة حتّى الموت ، بل الذين كانوا يُقتلون لأتفه الأسباب . وكانت أجساد أولئك العبيد تُدفن قرب قبور الفراعنة ، على أمل أن يقوموا للدفاع عن أسيادهم عند قيام القيامة .

حتّى كان الأسياد يدفنون مع موتاهم المجوهرات ووسائل الزينة المختلفة على أمل الاستفادة منها في الآخرة ؛ ويدفنون معهم أسلحتهم ليدافعوا بها عن أنفسهم . وكثيراً ما كانوا يدفنون مع الميّت الجواريّ الجميلات ، ليأنس بهنّ ذلك الميّت ولا يعاني من قساوة الوحدة ! بل ويضعون في اللحد عدّة رجال من الشجعان من قادة جيش ذلك الفرعون المستكبر ، ويضعون الحنطة والعدس وغيرها من الحبوب المعقّمة بموادّ التحنيط لكي لا تفسد ويتمكّن ذلك الميّت من الانتفاع بها إلى يوم القيامة .

ويُشاهَد في المتاحف العالميّة اليوم الكثير من هذه الأمور وما

شابهها .

وقد طرأ هذا النوع من التفكير وما شابهه على بعض الفرق الإسلاميّة ، وترسّخ لدى أقوام قد اختلفوا في اللغة والعنصر والأصل ، فاستمرّوا يتوارثونه بينهم . بل كثيراً ما ظهر في الأعقاب المختلفة بأشكال وصور عديدة مختلفة .

وقد حارب القرآن الكريم جميع هذه العقائد الفاسدة والآراء الكاذبة والأوهام الواهية ، وصرّح جهاراً : **وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**.[1]

وقال : **وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ**.[2]

وقال : **هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**.[3]

وقال (والخطاب موجّه من الملائكة إلى الظالمين) :

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ.[4]

وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة على خلوّ ذلك العالم وتلك النشأة من الأسباب الدنيويّة والعلائق الطبيعيّة والروابط المادّيّة إذ لا دور للنسب والحسب هناك . وهذا قانون عامّ وسنّة شاملة وأساسيّة تبطل بهما جميع تلك الأقاويل الكاذبة والمزاعم الواهية لتلك الأُمم الغابرة ،ويُذرى ذلك

١ـ الآية ١٩ ، من السورة ٨٧: الإنفطار.

٢ـ الآية ١٦٦ ، من السورة ٢ : البقرة.

٣ـ الآية ٣٠، من السورة ١٠ : يونس.

٤ـ الآية ٩٤، من السورة ٦: الأنعام.

الاستكبار والتفرعن بأجمعه ذَرْوَ الرياح؛ وهذا أمر عامّ وأصل أساس تتفرّع منه باقي الفروع .

أمّا على النطاق الخاصّ ، فقد تصدّى القرآن الكريم أيضاً لمحاربة كلّ واحد من هذه الأقوال الفاسدة السيّئة ، فقد بيّن مفصّلاً ـ في الآيتين سالفتي الذكر اللتين قد بدأتا بـ **وَٱتَّقُوا** ـ أن ليس ثمّة تغيير في أمر الجزاء على الأعمال بحيث يجازى شخص بدلاً عن شخص آخر ، أو يقبل شفاعةً من أحد ، أو يقبل فداءً وعوضاً ينجرّ إلى مجازاة شخص آخر بدلاً من المجرم ؛كما نفى أيّ نصر وإعانة للمجرمين من قِبَل أصحابهم وأخلّائهم ، وبيّن أنّ يوم القيامة هو : **يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلىً عَن مَّوْلىً شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**.[1]

وقال : **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**.[2]

وقال : **مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**.[3]

وقال : **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**.[4]

وقال : **مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**.[5]

وقال : **فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**.[6]

١ـ الآية ٤١ ، من السورة ٤٤ : الدخان .

٢ـ الآية ٣٣ ، من السورة ٤٠ : المؤمن .

٣ـ الآيتان ٢٥ و٢٦ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٤ـ الآية ١٨ ، من السورة ١٠ : يونس .

٥ـ الآية ١٨ ، من السورة ٤٠ : المؤمن .

٦ـ الآيتان ١٠٠ و١٠١ ، من السورة ١٦ : الشعراء .

وتنفي هذه الآيات القرآنيّة الكريمة ونظائرها وقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والأسباب يوم القيامة .

إثبات شفاعة الصالحين يوم القيامة

وفي مقابل هذه الطائفة من الآيات النافية للشفاعة بصورة مطلقة وقطعيّة ، ثمّة آيات قرآنيّة أُخرى تثبت أمر الشفاعة وتربأ به عن مستوى الشبهات ،كقوله تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ.[1]

وقوله : **لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ.**[2]

وقوله : **قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا.**[3]

وقوله : **لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ.**[4]

وقوله : **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ.**[5]

وقوله : **وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ** (الأنبياء والملائكة) **عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ**

١ـ الآية ٤، من السورة ٣٢: السجدة.
٢ـ الآية ٥١، من السورة ٦: الأنعام.
٣ـ الآية ٤٤، من السورة ٣٩: الزمر.
٤ـ الآية ٢٥٥، من السورة ٢: البقرة.
٥ـ الآية ٣، من السورة ١٠: يونس.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ.[١]

وقوله : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.[٢]

وقوله : لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا.[٣]

وقوله : يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا.[٤]

وقوله : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ.[٥]

وقوله : وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ.[٦]

ومن الواضح أنّ بعض هذه الآيات تعدّ الشفاعة مختصّة بالله المتعال ، كالآيات الثلاث الأُولى المذكورة من سور السجدة والأنعام والزمر ؛ أمّا بعضها الآخر فذو دلالة على أنّ بإمكان الآخرين أن يشفعوا بدورهم بإذن الله ورضاه .

وعلى كلّ تقدير ، فهذه الآيات تقرّ الشفاعة دون أيّ شكّ أو تردّد ، كلّ ما في الأمر أنّ بعضها تنسب الشفاعة إلى الله بالأصالة ، دون مشاركة غيره فيها ، وأنّ بعضها الآخر تنسب الشفاعة إلى الله تعالى مع نسبتها إلى

١ـ الآيات ٢٦ إلى ٢٨ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ٨٦ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

٣ـ الآية ٨٧ ، من السورة ١٩ : مريم .

٤ـ الآيتان ١٠٩ و ١١٠ ، من السورة ٢٠ : طه .

٥ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٦ـ الآية ٢٦ ، من السورة ٥٣ : النجم .

غيره بإذنه ورضاه .

وقد علمنا سابقاً بأن هناك آيات تنفي الشفاعة عموماً ، بَيدَ أنّه ليس ثمّة تعارض بين ذلك النفي العامّ للشفاعة وبين هذه الآيات الواردة في الشفاعة ، لأنّ هذه النسبة على وجه العموم والخصوص ؛ ومن الجليّ أنّ الخاصّ مقدّم باستمرار وبما أنّ عمومات العامّ تُخصَّص من خلال الدليل الخاصّ ، فالأدلّة التي تثبت الشفاعة في موارد خاصّة تفسّر ـ في حقيقة الأمر ـ الأدلّة العامّة ، وهذا شبيه بعمومات نفي النصر في قوله تعالى : **وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** التي تُخَصَّص بآية : **يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ** ، حيث إنّ هذا الاستثناء المتّصل هو قرينة لتخصيص التعميم في نفي النصر ، وهو في حكم الاستثناء المنفصل لها .

وينبغي أن نرى الآن ، هل النسبة بين هاتين الطائفتين من الآيات التي تثبت الشفاعة هي نسبة العموم والخصوص حيث ينبغي ـ وفقاً للقواعد الأُصوليّة ـ أن نخصّص عمومات نفي الشفاعة عن غير الله تعالى بالآيات الواردة في إثبات الشفاعة للمأذونين من قبل الله عزّ وجلّ ، لأصحاب العهد ، ولمن ارتضاهم سبحانه ؟ أو أنّ الأمر ليس كذلك ، وأن ليس ثمّة تعارض بين هاتين الطائفتين أساساً ، ولو على نحو العموم والخصوص .

عدم تنافي انحصار الشفاعة بالله مع شفاعة الأطهار

ولبيان هذا الأمر نقول : إنّ هذه الآيات ـ كما في كثير من الآيات القرآنيّة ـ تنسب صفة معيّنة أو فعلاً معيّناً إلى الله تعالى وحده ، وتنسب ـ في الوقت نفسه ـ تلك الصفة أو ذلك الفعل إلى غير الله ؛ كما في الآيات التي تتحدّث عن علم الغيب ، حيث تنفي الغيب تارةً عن غير الله تعالى ،

وتعدّه تارة أُخرى مختصّاً بذاته القدسيّة ومنحصراً به عزّ وجلّ ؛ ثمّ تعتبره مختصّاً بالله وتنسبه ـ كذلك ـ إلى غيره بإذنه ورضاه ؛ كما في الآية ٦٥ ، من السورة ٢٧ : النمل : **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ**.

وكما في الآية ٥٩ ، من السورة ٦ : الأنعام : **وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**.

والآية ٢٧ ، من السورة ٧٢ : الجنّ : **عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**.

حيث تصرّح الآية الأخيرة بأنّ الله تعالى يُطلع على غيبه رسله الذين ارتضاهم . ومن الواضح انتفاء التعارض بين هذه الآيات ، لأنّ ما يعلمه الله سبحانه من علم الغيب ، فقد علم به **أَوّلاً وَبِالذَّاتِ وَبِالأَصَالَةِ** ، وما يُطلع عليه غيره إنّما يكون **ثَانِيَاً وَبِالعَرَضِ وَبِالمَجَازِ** .

فلن يكون علم الغيب ـ إذاً ـ قد تجاوز ذات الله القدسيّة إلى غيره ، إذ ليس من غيريّة في مَن يمتلكون علم الغيب ، لأنّ وجودهم يمثّل اندكاكاً في الله تعالى ، ولأنّ علم غيب الله هو الذي تجلّى فيهم .

وليس بهكذا انتقال لعلم الغيب الخاصّ الذاتيّ من تنافٍ أبداً مع أمر حيازة الصالحين والأطهار والرسل المرضيّين لعلم الغيب . فعلى الرغم من ملاحظة حصول شيء من علم الغيب عند الأنبياء والأئمّة وأولياء الله تعالى ، إلّا أنّ علم الغيب يبقى منحصراً بذات الله القدسيّة .

فعلى هذا ، حين يمنّ الله تعالى بشيء من علمه على **مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ، فإنّ أمر : **لَا يَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ إِلَّا هُوَ** ، يبقى ثابتاً وراسخاً في محلّه ، فافهم وتأمّل ، لأنّ إدراك هذه الحقيقة هو عين التوحيد .

وقد جاء على غرار هذه الآيات في **التوفّي والخَلْق والرزق والتأثير**

والحُكم وكثير من الموضوعات الأُخرى ، وقد أُشيع في الأُسلوب القرآنيّ نفي أيّ كمال عن غير الله تعالى ، ثم إثباته للّه تعالى بالأصالة ، ولغيره بإذنه ومشيئته .

وقد بحثنا بحول الله وقوّته في هذا الموضوع بالقدر الكافي ، في المجلس السادس من الجزء الأوّل ، من سلسلة «معرفة المعاد» ، وأوضحنا أنّ جميع الموجودات لا تمتلك كمالاً على نحو الاستقلال ، وأنّ الكمالات المختلفة هي من فيض الله سبحانه وتعالى ، لذا فالكمال الذي يمتلكه أيّ موجود في عالم المُلك والملكوت ، إنّما هو كمال للّه أوّلاً وبالذات ومختصّ به سبحانه ، وهو ـ ثانياً وبالعرض ـ كمال مُعطىً لذلك الموجود بتمليك من الله وبإذنه ومشيئته . ولا يسلب أبداً هذا العنوان العرضيّ المجازيّ ـ أي امتلاك الموجودات لهذه الكمالات ـ الاختصاص عن الذات القدسيّة للّه جلّ وعزّ لذلك الكمال على نحوٍ ذاتيّ وأصليّ وحقيقيّ .

وهذا المعنى مشهود في كلّ مواضع القرآن الكريم . وحقّاً ، إنّه من معجزات المعارف التوحيديّة في هذا الكتاب الإلهيّ .

وحاصل القول : أن ليس بإمكان أيّ نوع من العطاء في عالم الربوبيّة أن يخرج القدرة والأمر من يد الله تعالى ، أو يستدعي افتقاره ونقصه ؛ كما ليس من منعٍ يجبره على حفظ شيء ما ويبطل سلطانه .

ويُعلمُ ممّا قلنا أنّ الآيات التي تنفي الشفاعة فيما إذا كان الأمر يتعلّق بيوم البعث «القيامة» ، فهي إنّما تنفيها عن غير الله على نحو الاستقلال ؛ أمّا الآيات التي تثبت الشفاعة ، فهي إنّما تثبتها للّه تعالى على نحو الأصالة والاستقلال ، وتثبتها لغير الله بتمليكه وإذنه . فالشفاعة ـ إذاً ـ ثابتة يوم القيامة بإذن الله ، والحمد للّه .

ثبوت الشفاعة يوم القيامة في روايات العامّة

كان كلّ ما ذكرناه حول إثبات الشفاعة في القرآن الكريم ، أمّا في الروايات الواردة ، فالشيعة والعامّة متّفقون على هذا المطلب ، وقد دوّنوا في كتبهم الروايات الواردة في هذا الخصوص .

أمّا عند العامّة ، فقد استغرقت روايات الشفاعة جميع كتبهم المعتبرة كالصحاح الستّة : «صحيح البخاريّ» ، «صحيح مسلم» ، «صحيح الترمذيّ» ، «سنن النسائيّ» ، «سنن أبي داود» ، «سنن ابن ماجة» ؛كما وردت في كتبهم الثلاثة الأُخرى المشهورة ، وهي «مسند أحمد» ، «موطّأ مالك» ، «سنن الدارميّ» ، وأوردها مفسّروهم في كتب التفسير ، ونقلها الحاكم في كتابه «المستدرك» والطبرانيّ في «المعجم الكبير» ، والسيوطيّ في «الجامع الصغير» . وننقل ـ على سبيل المثال ـ عدّة نماذج منها :

روى السيوطيّ عن رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال :

شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي.[1]

وقال : **شَفَاعَتِي لِأُمَّتِي مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ بَيْتِي.**[2]

وقال : **شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ حَقٌّ ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا.**[3]

١ـ «الجامع الصغير» حرف الشين ، نقلاً عن أحمد بن حنبل ، وعن أبي داود ، وعن النسائيّ ، وعن ابن حبان ، وعن الحاكم في «المستدرك» ، جميعاً عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ؛ وعن «المعجم الكبير» للطبرانيّ عن ابن عبّاس ؛ وعن الخطيب في «تاريخ بغداد» عن ابن عمر ، وعن كعب بن عجرة .

٢ـ «الجامع الصغير» حرف الشين ، عن الخطيب في تاريخه ، عن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام .

٣ـ «الجامع الصغير» حرف الشين ، في الصحيح عن ابن منيع ، عن زيد بن أرقم ، ⇦

وروى أحمد بن حنبل عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : **شَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً**.[١]

وأورد أيضاً : **إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُشَفَّعَ يَوْمَ القِيَامَةِ**.[٢]

وأورد أيضاً في تفسير الآية الشريفة : «**عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**» ، **قَالَ : الشَّفَاعَةُ**.[٣] **المَقَامُ المَحْمُودُ : الشَّفَاعَةُ**.[٤]

وأورد أيضاً : **وَأُرِيدُ ... أَنْ أُوَخِّرَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**.[٥] **وَإِنِّي أَخَّرْتُ عَطِيَّتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي**.[٦]

وروى مسلم والدارميّ : **أَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ فِي ٱلْجَنَّةِ**.[٧]

وأورد مسلم : **أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ**.[٨]

وروى ابن ماجة : **يَشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ : الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ العُلَمَاءُ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ**.[٩]

⇦ وعمّا يزيد على عشرة نفر من الصحابة .

١ـ «مسند أحمد» ج ٢ ، ص ٣٠٧ و٥١٨ .

٢ـ «مسند أحمد» ج ٥ ، ص ٣٤٧ .

٣ـ «مسند أحمد» ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

٤ـ «مسند أحمد» ج ٢ ، ص ٤٧٨ .

٥ـ «مسند أحمد» ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

٦ـ «مسند أحمد» ج ٣ ، ص ٢٠ ، وجاءت هذه الرواية في روايات الشيعة بلفظ ادّخَرْتُ ، وهي أفضل بلحاظ المعنى ، ولعلّها وردت كذلك في روايات العامّة ، ثمّ صُحّفت من قبل الناسخ أو الراوي فحُذفت الدال .

٧ـ «سنن الدارميّ» المقدمة الثامنة ؛ و«صحيح مسلم» كتاب الإيمان ، ح ٣٣٢ .

٨ـ «سنن الدارميّ» المقدّمة الثامنة ؛ و«صحيح مسلم» كتاب الايمان ، ح ٣٣٠ .

٩ـ «سنن ابن ماجة» كتاب الزهد ، ص ٣٧ . وروى الصدوق هذه الرواية في «الخصال» عن طريق الخاصّة ، عن أبيه ، عن الحميريّ ، عن هارون ، عن ابن صدقة ، عن جعفر بن ⇦

ورووا كثيراً من الروايات جاء فيها خطاب الله لنبيّه : **وَقُلْ تُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهُ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.**[1]

وروى أحمد بن حنبل عن أبي برزة ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : **إنَّ مِنْ أُمَّتِي لَمَنْ يَشْفَعُ لِأَكْثَرَ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ.**[2]

وروى الحاكم في «المستدرك» بإسناده المتّصل عن أبي هريرة وعن حذيفة بن اليمان (قالا) : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

يجمع الله الناس ، فيقوم المؤمنون حين تُزلف الجنّة فيأتون آدم عليه الصلاة والسلام فيقولون : يا أبانا ! استفتح لنا الجنّة . فيقول : وهل أخرجَتْكُم من الجنّة إلّا خطيئة أبيكم آدم ؟ لستُ بصاحب ذلك . اعمدوا إلى إبراهيم خليل الله .

فيأتون إبراهيم ، فيقول إبراهيم : لستُ بصاحب ذاك . إنّما كنتُ خليلاً من وراء وراء . اعمدوا إلى النبيّ موسى الذي كلّمه الله تكليماً .

فيأتون موسى فيقول : لستُ بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى كلمة الله وروحه عيسى . فيقول عيسى : لستُ بصاحب ذاك .

فيأتون محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم فيؤذَن له ، ويرسل معه الأمانة والرحم ، فيقفان بالصراط يمينه وشماله ، فيمرّ أوّلكم كمرّ البرق .

⇐ محمّد ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليهم السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم («الخصال» باب الثلاثة ، ج ١ ، ص ٧٥).

١ـ «صحيح البخاريّ» كتاب التوحيد ، باب ١٩ و٢٤ و٣٦ ؛ وكتاب الرقاق باب ٥١ ؛ وكتاب الأنبياء ، باب ٣ ؛ و«صحيح مسلم» كتاب الإيمان ، ح ٣٢٢ و٣٢٧ ؛ و«صحيح الترمذيّ» كتاب صفة القيامة ؛ وابن ماجة في كتاب الزهد ؛ والدارميّ في المقدّمة الثامنة ، وأحمد بن حنبل ، ج ١ ، ص ٥.

٢ـ «مسند أحمد» ج ٤ ، ص ٢١٢.

قلتُ : بأبي وأُمّي ، أيّ شيءٍ مرّ البرق ؟

قال : ألم ترَ إلى البرق كيف يمرّ ثمّ يرجع في طرفة عين ؟ ثمّ كمرّ الريح ، ومرّ الطير ، وشدّ الرحال ، تجري بهم أعمالهم ، **وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ ؛ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ.**[1]

روايات الشفاعة عن طريق الشيعة

أمّا الروايات الواردة عن طريق الشيعة ، فقد وردت في الكتب المعتبرة وجاوزت حدّ الاستفاضة ، وبلغت مرحلة التواتر المعنويّ . ويمكن القول إنّ مسألة الشفاعة تمثّل أمراً إجماعيّاً متّفقاً عليه .

قال الشيخ الطبرسيّ : إنّ الأُمّة أجمعت على أنّ للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم شفاعة مقبولة وإن اختلفوا في كيفيّتها ، فعندنا هي مختصّة بدفع المضارّ وإسقاط العقاب عن مستحقّيه من مذنبي المؤمنين . وقالت المعتزلة : هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين .

وهي ثابتة عندنا للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ولأصحابه المنتجبين وللأئمّة من أهل بيته الطاهرين ولصالحي المؤمنين ، وينجّي الله تعالى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين . ويؤيّده الخبر الذي تلقّته الأُمّة بالقبول وهو قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **إدَّخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي.**

وما جاء في روايات أصحابنا رضي الله عنهم مرفوعاً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أنّه قال : **إنِّي أُشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأُشَفَّعُ ، وَيَشْفَعُ عَلِيٌّ فَيُشَفَّعُ ؛ وَيَشْفَعُ أَهْلُ بَيْتِي فَيُشَفَّعُونَ ، وَإنَّ أَدْنَى المُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً**

---

١ ـ «مستدرك الحاكم» ج ٤ ، ص ٥٨٨ و ٥٨٩.

لَيُشَفَّعُ فِي أَرْبَعِينَ مِنْ إخْوَانِهِ كُلٌّ قَدِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ.[١]

روى الصدوق بسنده المتّصل عن أنس بن مالك قال: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا، وَقَدْ سَأَلَ سُؤْلاً، وقَدْ أَخبَأْتُ دَعْوَتِي وَشَفَاعَتِي لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ.**[٢]

وروى الصدوق عن القطّان، عن السكّريّ، عن الجوهريّ، عن محمّد بن عمّار، عن أبيه، قال: **قَالَ الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ السَّلَامُ: مَن أَنْكَرَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ فَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا: المِعْرَاجَ وَالمَسَاءَلَةَ فِي القَبْرِ وَالشَّفَاعَةَ.**[٣]

وروى الشيخ الطوسيّ في خبر أبي ذرّ وسلمان، قالا: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إنَّ اللَهَ أَعْطَانِي مَسَأَلَةً، فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي لِشَفَاعَةِ المُؤْمِنِينَ مِن أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ فَفَعَلَ ذَلِكَ** - إلى آخر الحديث.[٤]

وروى الصدوق أيضاً بسنده المتّصل عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي: جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّ لِيَ المَغْنَمُ، وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ.**[٥]

وروى أحمد بن محمّد البرقيّ عن أبيه، عن حمزة بن عبد الله، عن ابن عميرة، عن أبي حمزة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: **إنَّ**

١- «مجمع البيان» ج ١، ص ١٠٣ و١٠٤، طبعة صيدا.

٢- «الخصال» ص ٢٩، الطبعة الحروفيّة.

٣- «أمالي الصدوق» ص ١٧٧، الطبعة الحجريّة.

٤- «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٣٧، نقلاً عن «الأمالي» الشيخ الطوسيّ، ص ٣٦، الطبعة الحجريّة.

٥- «الخصال» ص ٢٩٢، الطبعة الحروفيّة.

لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَةٌ.[١]

وروى عن أبيه، عن فضالة، عن الحسين بن عثمان، عن أبي حمزة أنّه قال: **لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَةٌ فِي أُمَّتِهِ؛ وَلَنَا شَفَاعَةٌ فِي شِيعَتِنَا؛ وَلِشِيعَتِنَا شَفَاعَةٌ فِي أَهْلِ بَيْتِهِمْ.**[٢]

وروى عن عمر بن عبد العزيز، عن المفضّل أو غيره، عن الصادق عليه السلام في تفسير الآيتين الكريمتين: «**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**» **قَالَ: الشَّافِعُونَ الأَئِمَّةُ، وَالصَّدِيقُ مِنَ المُؤْمِنِينَ.**[٣]

كما روى عن أبيه، عن القاسم بن محمّد، عن عليّ بن أبي حمزة، قال: **قَالَ رَجُلٌ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيهِ السَّلَامُ: إنَّ لَنَا جَاراً مِنَ الخَوَارِجِ يَقُولُ: إنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ هَمُّهُ نَفْسُهُ فَكَيْفَ يَشْفَعُ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَلَيهِ السَّلَامُ: مَا أَحَدٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ.**[٤]

وروى الشيخ الطوسيّ بإسناده المتّصل عن محمّد بن عبد الرحمن، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَا تَسْتَخِفُّوا بِشِيعَةِ عَلِيٍّ، فَإنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَشْفَعُ لِعَدَدِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ.[٥]

وما أعجب شفاعة الأئمّة المعصومين في الدنيا، ناهيك عن شفاعتهم في الآخرة! وما أكثر المعضلات والمحن التي تيسّرت بشفاعتهم! ونذكر في هذا المجال قصّتين في شفاعة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وأثر التوسّل بقبره الشريف، ليتّضح من خلالهما شفاعة أُولئك الكرام في

---

١ إلى ٣ـ «محاسن البرقيّ» ج ١، ص ١٨٤.

٤ و٥ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٦، الطبعة الحروفيّة.

الآخرة .

والقصّة الأُولى تتعلّق بهذا الحقير ، وقد حصلت في شهر رمضان المبارك لسنة ألف وثلاثمائة وستّ وسبعين هجريّة ، عندماكنت مقيماً في مدينة النجف الأشرف . فسافرت ذات يوم برفقة العائلة إلى كربلاء المقدّسة لزيارة أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، واستأجرنا غرفة فأقمنا بها فترة من الزمن ونحن ننعم ببركات سيّد الشهداء عليه السلام . وكان الجوّ حارّاً آنذاك ، وكنتُ قد اعتدتُ في ذلك الشهر المبارك على السهر لقصر لياليه ،كان نومي يستمرّ من الصبح إلى ما قبل الظهر بساعتين ، ثمّ أنهض للوضوء استعداداً للذهاب إلى الحرم الحسينيّ فأمكث فيه إلى الظهر ، فأصلّي صلاة الظهر في الحضرة المباركة ، ثمّ أعود إلى المنزل .

وكان لي صديق عربيّ من أهالي الكاظميّة يدعى الحاجّ عبد الزهراء الگرعاويّ ، وهو رجل متديّن ذو ضمير وقّاد . وكان يتشرّف بين الحين والآخر بزيارة كربلاء ، وخاصّة في ليالي الجمعة ، وكان حريصاً على العودة إلى الكاظميّة في نفس الليلة ، لئلا يُجبر على الإفطار في اليوم التالي ؛ وقد تُوفّي قبل سنة تقريباً ، رحمة الله عليه .

واستيقظت ذات يوم كعادتي ، فتوضّأت وعزمت الذهاب إلى الحضرة المباركة ، فلحظتُ في نفسي تثاقلاً ، وأحسست بانقباض شديد يعتريني . وبالكاد وصلت الصحن المطهّر وقد شعرت بضعف رغبتي للزيارة ، وتواصلت تلك الحالة بي إلى قريب الظهر . وفجأة ، فإذا بنشاط وسرور لا يمكن وصفهما يغتبطاني ، فنهضتُ للزيارة برغبة كبيرة ، انهمكتُ ـ كالسابق ـ بالزيارة والصلاة والتوسّل .

وجاء في تلك الليلة المرحوم الحاجّ عبد الزهراء من الكاظميّة إلى كربلاء للتشرّف بالزيارة ؛ فقال لي : أيّها السيّد محمّد الحسين ! بأيّ حالٍ

كنت هذا اليوم ؟ لقد كنتُ جالساً في غرفتي في بغداد قرب الظهر ، فشاهدتك بحالة صعبة ، وأنت تعاني من انقباض شديد ، فركبتُ سيّارتي على الفور وذهبت إلى الكاظمين فشفّعت الإمام موسى بن جعفر عند الله تعالى لرفع الحالة التي انتابتك ، فشفع الإمام لك وتحسّنت حالك .

والقصّة الثانية عن المرحوم آية الحقّ واليقين آية الله العظمى السيّد جمال الدين الكلبايكانيّ تغمّده الله برحمته ، وكان رجلاً نزيهاً زكيّاً ومن مراجع النجف الأشرف الأجلّاء ، وكان له ـ في الوقت نفسه ـ روابط معنويّة وباطنيّة تشدّه بالحقّ المتعال . وكان مراقباً برسوخ وثبات ، ويمكن تسميته بجمال السالكين إلى الله تعالى . وكانت أعماله أسوةً في الصبر والتحمّل والإيثار والزهد والمراقبة وسعة النفس والعلم المكين .

وسيماؤه مجسّدة حقّاً ، بحيث تراه مثالاً جليّاً لسيماء العلماء الصادقين ومشائخ الطائفة الحقّة للمذهب الجعفريّ ، وهو في السير والسلوك آية ومرآة تعكس سير الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وسلوكهم ، وكان يذكّر بالله تعالى وبعالم الآخرة .

ولا يزال جيران ذلك المرحوم في محلّة «الحويش» في النجف الأشرف يقصّون الحكايات عن عينيه الغارقتين في الدموع ، وعن آهاته الحرّى الليليّة ، إلى أن ارتحل في التاسع عشر من شهر محرّم لسنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين ودُفن في مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف ، حيث ينقضي على رحيله إلى يومنا هذا ـ في سنة ألف وثلاثمائة وتسع وتسعين ـ اثنتان وعشرون سنة ، رحمة الله عليه رحمة واسعة .

ينبغي أن يقال في حقّ مثل هؤلاء الرجال المتألّهين الصادقين : **عَاشَ سَعِيداً وَمَاتَ سَعِيداً** ، لأنّ أوّل خطواته في مسيرته قد تمثّلت في تمنّي الحركة إلى الله تعالى ، ورفع الحجب الظلمانيّة والنورانيّة ، ونيل لقاء

الله من جميع الجهات وإدراك مقام الفناء واندكاك الإنّيّة في الذات القدسيّة للحقّ سبحانه وتعالى .

ولم يكن دعاء **اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، وَالإنَابَةِ إلَى دَارِ الخُلُودِ ، وَالاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ** [1] وِرْدَ لسانه فقط ، بل كان ـ كذلك ـ حال نفسه وشهود قلبه المتوهّج وضميره المستنير .

وكانت «الصحيفة السجّاديّة» أمامه باستمرار تعلو كتب مطالعته ؛ وكان يلتذّ أيّما التذاذ بالمناجاة الخمسة عشر للإمام السجّاد عليه السلام ، ولكثرة قراءته لها فقد حفظها عن ظهر قلب ، وخاصّة المناجاة الثامنة «مناجاة المريدين» التي شغف بها .

وكان يطالع باستمرار في غرفة الاستقبال المتواضعة (البرّانيّ) الواقعة في الطابق العلويّ ، على الرغم من صعوبة ذلك عليه ، خاصّة في صيف النجف اللاهب . هذا وقد أحاطت به المحن والشدائد من كلّ جهة ، فابتلي في أواخر عمره بضعف القلب ومرض (البروستات) ، فاضطرّ لإجراء عمليّة جراحيّة للبروستات ألزمته الفراش ، وكان إدراره يُجمع عبر أُنبوب في كيس تحت سريره . وقد تراكمت عليه الديون ، سواءً تلك التي اقترضها لتمشية أُموره المعيشيّة أم ما كان يستقرضه للطلبة ، وقد اضطرّ إلى رهن بيته بأربعمائة دينار عراقيّ لتغطية نفقات عمليّة جراحيّة لأحد أقاربه ، وفوق ذلك كلّه فقد كان يواجه مشكلات داخليّة في البيت قد أرهقته .

وكنت أزوره مرّة أو مرّتين كلّ أسبوع ، ولي معه بعض المحاورات والمحادثات وجئته ذات يوم فشاهدته راقداً على ظهره في سريره ، وقد ناهز التسعين من عمره ، وهو يقرأ في صحيفته (السجّاديّة) الصغيرة ،

---

١ ـ من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام التي كان يكرّرها في سجوده .

يذرف الدموع سخاناً ، وهو منغمر في عالمٍ لا يوصف من السرور والبهجة والنشاط واللذّة ، كأنّه ـ لشدّة أُنسه بالله تعالى ـ لا يكاد يتّسع له جلده ويريد الطيران .

سلّمتُ عليه ؛ فقال : اجلس ! إنّ لك ـ يا فلان ـ علماً بحالي (وأشار إلى جميع محنه ، من المرض ، والعمليّة الجراحيّة ، والوحدة ، واضطراب وضع البيت الداخليّ وحرارة الجوّ ، والديون الثقيلة ، ومسألة رهن البيت ، وغير ذلك) .

فقلتُ : نعم !

فتبسّم بسمة دافئة ، والتفتَ إليّ بوجهه قائلاً : أنا سعيد ، سعيد . إنّ من ليس له عرفان ، فلا دنيا له ولا آخرة !

أجل ، فقد نَقل لي ذات يوم أنّه أحسّ بحالة عجيبة انتابته في مرحلة من مراحل السلوك بحيث صار يرى نفسه مفيضاً للعلم والقدرة والرزق والحياة على جميع الموجودات ، ويرى أنّ كلّ موجود من الموجودات يستعين به ، ويرى أنّه هو المعطي والمفيض لفيض الوجود على الماهيّات الإمكانيّة والقوالب الوجوديّة .

قال : كانت حالي كذلك ؛ على أنّي كنتُ أعلم ـ إجمالاً ـ أنّها حالة غير صحيحة وغير صادقة ، لأنّ الله جلّ وعلا مبدأ جميع الخيرات ، وهو سبحانه مفيض الرحمة والوجود على جميع ما سواه . واستمرّت بي تلك الحالة عدّة أيّام ، وكلّما تشرّفت بالزيارة عند الضريح المطهّر لأمير المؤمنين عليه السلام ألوذ في باطني سائلاً الفَرَج ، إلّا أنّ ذلك لم يُجْدِ نفعاً . ثمّ عزمت السفر إلى الكاظميّة لأتوسّل بالإمام الكاظم عليه السلام ليكون شفيعي عند الله المتعال ليخلّصني من هذه الشدّة .

كان الجوّ بارداً حين تحرّكت من مدينة النجف الأشرف قاصداً

المرقد المطهّر للإمام الموسى بن جعفر عليه السلام ؛ وما أن وصلت الكاظميّة ، ذهبت مباشرة إلى الضريح المطهّر ؛ وكانوا آنذاك قد رفعوا السجاجيد المفروشة من أمام الضريح ، فوضعت رأسي على أحجار الرخام المقابلة للضريح وأجهشت بالبكاء حتّى جرت دموعي بغزارة على أحجار الرخام .

ولم يزل رأسي على الأرض بعدُ ، فإذا بالإمامُ يشفع لي ، فانقلبت وفهمتُ مَن أنا ؟ وأيّ شيء أنا ؟ وأدركت أنّي أقلّ وأتفه من ذرّة واحدة ، ولا أملك من القدرة بمقدار قطعة قشّ صغيرة واحدة ، وأنّ هذه الأُمور لله وحده دون سواه ، وأنّه سبحانه تعالى هو المفيض على الإطلاق ، وهو الحيّ والمحيي ، والعالِم ومفيض العلم ، والقادر وواهب القدرة ، والرازق ومعطي الرزق . وأدركتُ أن نفسي ليست أكثر من نافذة وآية لظهور ذلك النور المطلق ؛ ثمّ نهضتُ فأدّيت الزيارة والصلاة وعُدت إلى النجف الأشرف .

ومرّت عَلَيّ عدّة أيّام كنتُ أرى فيها أنّ الله تعالى هو المفيض والحيّ والقادر في جميع العوالم ، إلى أن تشرّفت مرةً بزيارة المرقد المطهّر لأمير المؤمنين عليه السلام ، فاعترتني حالة لا توصف وأنا وسط الزقاق عند عودتي إلى البيت قد ألجأتني إلى أن أسند رأسي إلى الحائط ما يقارب عشر دقائق دون أن أمتلك قدرة على الحركة . وهي ممّا مَنّ به أمير المؤمنين عليه السلام عَلَيّ ، وكانت أكثر دقّة وأسمى من الحالة التي اكتنفتني عند ضريح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، إذ كانت تلك مقدّمة لحصول هذه الحالة .

هذه شواهد حيّة عن شفاعة أُولئك الأئمّة الأجلاء ، وما ينبغي لنا هو الاستمساك وعدم الكفّ عن الطلب ؛ كما ينبغي ـ كما فعل المرحوم السيّد جمال ـ أن يطأطئ المرء رأسه على أعتابهم في ذلّة ومسكنة ، لتمتد يد من

الغيب فتفعل فعلها .

جز تو ره قبله نخواهيم ساخت گر ننوازی تو كه خواهد نواخت؟

يار شو ای مونس غمخوارگان چاره كن ای چارهٔ بیچارگان

در گذر از جرم كه خواهنده‌ايم چارهٔ ما كن كه پناهنده‌ايم

چارهٔ ما ساز كه بی‌ياوريم گر تو برانی به كه رو آوريم[1]

لَنْ أَبْرَحَ البَابَ حَتَّى تُصْلِحُوا عِوَجِي
وَتَقْبَلُونِي عَلَى عَيْبِي وَنُقْصَانِي

فَإِنْ رَضِيتُمْ فَيَا عِزِّي وَيَا شَرَفِي
وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَمَنْ أَرْجُو لِغُفْرَانِي

أی درِ تو مقصد ومقصود ما وی رخ تو شاهد ومشهود ما

نقد غمت مايهٔ هر شادئی بندگيت به ز هر آزادئی

كوی تو بزم دل شيدای ماست مسكن ما منزل ما جای ماست

عشق تو مكنون ضمير من است خاک سرای تو سريرِ من است[2]

١ـ يقول : «لن نتّخذ من قِبلةٍ إلّا دربك ؛ وإن لم تَرْعَنا ، فمن عساه يرعانا ؟
فأعنّا يا مؤنس المغمومين ، وفرّج عنّا يا مفرّجاً عن المساكين .
واعفُ عن جُرمنا ، فقد سألناك ، ونَجِّنا فقد لُذنا بحماك .
فرّج عنّا ، فليس لنا ـ سواك ـ مِن معين ؛ ولو طردتّنا فإلى مَن نقصد ؟» .

٢ـ استشهد المرحوم المحدّث القمّيّ بهذه الأبيات الشعريّة العربيّة والفارسيّة في كتابه «نفثة المصدور» ص ١٧ و١٨ ، الطبعة الحجريّة ، ضمن أحوال أصحاب سيّد الشهداء عليه السلام .
يقول : «يا من بابُك مقصدنا وبُغيتنا ، وطلعتُك شاهدنا ومشهودنا .
غمّك الحاضر نبع كلّ سرور وجذل ، وأسرك ورقّك خير من كلّ انعتاق .
دربُك محفل قلبنا الولهان ، ومسكننا ومنزلنا ومأوانا .
إنّ حبّك مكنون ضميري ، وتراب فِنائك مهدي وسريري» .

ای غمت از شادی أحباب به دردِ تو از داروی اصحاب به

کوه غمت سینهٔ سینای من روشنی دیدهٔ بینای من [1]

١ـ يقول : «يا من غمك أفضل من جذل الأحباب ، وألمُك أفضل من ترياق الأصحاب .

جبل غمّك صدري الفسيح كسيناء ، ونور إبصار عيني وناظري» .

المجلس الحادي والستون

شفعاء يوم القيامة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.[1]

نريد أن نعرف في هذا البحث مَن هم الشفعاء ، ونحاول أن نتعرّف إجمالاً على الأُمور التي توجب الشفاعة للإنسان في الدنيا والآخرة .

وكما علمنا سابقاً فالشفاعة على نوعين : تكوينيّة وتشريعيّة ؛ ونقسّم الآن الشفاعة التشريعيّة إلى قسمين ، أوّلهما : الشفاعة التشريعيّة الحاصلة للإنسان في الحياة الدنيا . وثانيهما : الشفاعة التشريعيّة الحاصلة في الحياة الآخرة . فصار علينا ـ تبعاً لذلك ـ أن نتحدّث عن مواضيع ثلاثة :

الأوّل : في الشفاعة التكوينيّة .

الثاني : في الشفاعة التشريعيّة الحاصلة في الدنيا .

والثالث : في الشفاعة التشريعيّة الحاصلة في عالم الآخرة .

أمّا الشفاعة التكوينيّة فهي الوسائط بيننا وبين الله تعالى ،كما أنّها

١ـ الآية ٨٦، من السورة ٤٣: الزخرف.

وسائط بين الله سبحانه وبين جميع الموجودات والمخلوقات ، وهي الأسباب الواقعة في طريق إيجاد الموجودات ومنح الوجود للماهيّات الإمكانيّة والقوالب الخارجيّة . وهي ـ عموماً ـ كلّ ما يتوسّط في انتشار نور توحيد الله المتعال في عوالم الإمكان . ونكتفي بهذا القدر ، نظراً لعدم تعلّق الحديث بمباحث المعاد ، ونُحيل القرّاء الكرام إلى «تفسير الميزان» ج ١ ، ص ٧٧ إلى ٨٢ الذي يتحدّث عن استناد العلل المادّيّة إلى الله تعالى ؛ وإلى ج ٢ ، ص ١٨٠ إلى ١٩٣ الذي يتحدّث عن تأثير بعض الأعمال على الأُمور الخارجيّة ، وعن الارتباط بين الأعمال وبين الوقائع الخارجيّة ؛ وإلى ج ٢٠ ، ص ٢٨٣ إلى ٢٨٥ الذي يتحدّث عن وساطة الملائكة في تدبير الأُمور الخارجيّة .كما نُحيلهم إلى الرسالة الخطّيّة الشريفة النفيسة لصاحب التفسير المذكور ؛ سماحة أُستاذنا الكريم آية الله العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه العالي [1] الموسومة بـ «رسالة الوسائط الموجودة بين الله سبحانه وبين النشأة الطبيعيّة» .[2]

الشفاعة التشريعيّة الحاصلة في الدنيا

ندخل الآن في بحث القسم الأوّل من الشفاعة التشريعيّة ، وهي الشفاعة المتحقّقة في الحياة الدنيا . بصورة عامّة ،كلّ ما يستوجب الغفران

١ـ الكتاب مؤلّف زمن حياة العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه ، وقد حافظنا على تعبير المؤلّف . (م)

٢ـ ضُمّت هذه الرسالة إلى ستّ رسائل أُخرى تتحدّث عن ذات الله وأسمائه وأفعاله ، وعن الإنسان قبل الدنيا ، وفي الدنيا ، وبعد الدنيا ؛ وجُمعت في مجموعة واحدة عُرفت باسم «الرسائل السبع التوحيديّة» للعلّامة الطباطبائيّ .

ولم تُطبع هذه الرسائل حتّى الآن ، إلّا أنّني استنسختها على النسخة الخطّيّة للعلّامة خلال انشغالي بتحصيل العلوم الدينيّة في بلدة قم الطيّبة .

للإنسان في الدنيا ويستلزم قربه من الحقّ تعالى ، هو شفيع يتوسّط بين العبد وبين الحقّ ، ويوجب غفران الذنوب والسيّئات . ومن جملة تلك الأُمور : التوبة ، التي دعتنا إليها الكثير من الآيات القرآنيّة الكريمة :

قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ.[1]

ومن بين أنواع التوبة : التوبة من الشرك ، فمن صار موحّداً ـ إذاً ـ غُفر له ذنبه في الإشراك ، وكان نفس توحيده توبةً له .

ولا تعني الآية المباركة : **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**[2] أنّه لا تُقبل توبة المشرك منه مهما كانت ، وأنّ الله لن يغفر للمشرك شركه ، بل تعني أن المشرك المصرّ على شركه حتّى يموت ، سوف لن ينال المغفرة .

فالتوحيد إذاً من شفعاء الإنسان ، لأنّه يوجب غفران شركه .

ومن بينها : الإيمان ، الذي يوجب غفران ذنب الكفر : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.**[3]

ومن جملتها : العمل الصالح ، الذي يستوجب غفران السيّئات والأعمال الطالحة : **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.**[4]

١ـ الآيتان ٥٣ و٥٤، من السورة ٣٩: الزمر.
٢ـ صدر الآية ٤٨، والآية ١١٦، من السورة ٤: النساء.
٣ـ الآية ٢٨، من السورة ٥٧: الحديد.
٤ـ الآية ٩، من السورة ٥: المائدة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ.[١]

لأنّ الإتيان بالأعمال الصالحة قربةً إلى الله تعالى يمثّل وسيلة للغفران ، وشفيعاً لمحو الذنوب .

ومن بين الشفعاء : القرآن الكريم ، فمن عمل به أعانه وشفع له في التقرّب إلى الله تعالى ، وقاده إلى الخيرات ، ووضعه في الصراط المستقيم ضمن قافلة الباحثين عن الله سبحانه ، وأنجاه من الظلمات .

قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ.[٢]

ومن بين الشفعاء : كلّ ما يرتبط بالعمل الصالح ، كالأمكنة المقدّسة والأيّام المباركة ، وقبور الأئمّة والأنبياء والأولياء والعلماء ، والمساجد ، التي يمثّل كلّ منها وما شابهها شفيعاً للإنسان .

ومن الشفعاء : الأنبياء والمرسلون ، الذين يستغفرون لأُممهم فيغفر الله لهم ويتجاوز عن ذنوبهم :

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا.[٣]

ومنهم : ملائكة السماوات والأرض ، التي تستغفر للمؤمنين :

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ

١ـ الآية ٣٥، من السورة ٥: المائدة.

٢ـ الآيتان ١٥ و١٦، من السورة ٥: المائدة.

٣ـ الآية ٦٤، من السورة ٤: النساء.

لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ.[١]

تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ.[٢]

ومنهم : المؤمنون الذين يستغفرون لأنفسهم ولإخوانهم في الإيمان ، فيؤدّي ذلك إلى غفران تلك الذنوب . فقد شفعوا في حقيقة الأمر ، وقد ذكر الله تعالى كلامهم في القرآن الكريم :

وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَـٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ.[٣]

الشفاعة التشريعيّة يوم القيامة

ومن جملة طائفة الشفعاء : شفعاء يوم القيامة . وعلينا أن نعلم ـ إجمالاً ـ ما الذي يميّزهم يوم القيامة عن غيرهم ؟ وأن نعرف الخصائص والسمات التي ترشّحهم للشفاعة يوم القيامة ، ثمّ نتحدّث عن كلّ طائفة من طوائف الشفعاء على حدة .

جاء في القرآن الكريم : مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.[٤]

وجاء أيضاً : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ.[٥]

وهي آيات تفيد بأن الشفاعة في يوم القيامة تستلزم إذن الله ورضاه

١ـ الآية ٧، من السورة ٤٠: المؤمن.
٢ـ الآية ٥، من السورة ٤٢: الشورى.
٣ـ الآية ٢٨٦، من السورة ٢: البقرة.
٤ـ الآية ٢٥٥، من السورة ٢: البقرة.
٥ـ الآية ٢٣، من السورة ٣٤: سبأ.

الحتميّ ، وأنّها لا تتحقّق دون إذنه عزّ وجلّ . فقد جُعلت الشفاعة ـ من خلال الحصر بين النفي والإثبات بجملتين استثنائيّتين ـ مختصّةً بمن أُذن لهم من قِبل الله تعالى .

وينبغي أن نرى الآن ما المقصود من الإذن ؟ ومن أيّة طائفة هم المأذونون ؟

لقد جاء : **يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا**.[1]

وكما هو معلوم في هذه الآية أنّ القول المرضيّ هو القول المقبول الذي أذن به الله تعالى ؛ وكما هو معلوم أنّ رضا الله سبحانه بقول العبد ، إنّما هو إذنه تعالى ؛ أي أنّ الله قد ارتضى قول العبد الذي يمثّل ـ في الحقيقة ـ شفاعة العبد .

وحين نقارن هذه الآية مع آية : **يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**.[2]

فسندرك أنّ القول المرضيّ هو القول الصائب ، وهو القول الذي يرتضيه الحقّ جلّ وعزّ . فعلى الشفعاء ـ إذاً ـ أن يكون كلامهم صائباً ومرضيّاً للّه تعالى .

وقد قلنا في فصل الشهادة على الأعمال ، إنّ هذا القول الصائب يعود إلى أنّ أعمال العاملين تنتهي إلى شخص الشاهد وتلحق به . أي أنّ الشاهد يصبح واسطة للفيض ورابطاً بين الحقّ والشخص المشهود له والمشهود عليه من خلال حضوره وتوسّطه في إفاضة الفيوضات الإلهيّة .

١ـ الآية ١٠٩ ، من السورة ٢٠ : طه .

٢ـ الآية ٣٩ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

وتنتج هذه الحقيقة من تمكين الحقّ سبحانه وتعالى لشخص الشاهد في الشهادة على الأعمال ، بحيث يجعله عالماً بحقائق تلك الأعمال وحاضراً في تلك الوقائع ، إذ يقول :

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .[1]

وعليه ، فالآية تبيّن أنّ مقام الشفاعة يستلزم مقام شهادة الشهداء ، ممّا يؤدّي إلى حصر الشفاعة في مَن يمتلك العلم ويشهد بالحقّ .

ولمّا علمنا من الآية السابقة أنّ الشفاعة تتعلّق بمن يمتلك الإذن والقول المرضيّ ، فالشفعاء ذوو القول المرضيّ إذاً ، هم الشهداء الذين يشهدون بالحقّ عن سابق علم واطّلاع .

وقد ذكر تعالى قيدينِ لامتلاك الشافع مقام الشفاعة ، هما : العلم والشهادة بالحقّ لا بالباطل .كما أنّ المراد بالشهادة ـ من جهة أُخرى ـ هو الشهادة في مرحلتي التحمّل والأداء ، فلما ينبغي للشهداء من تحمّل تلك الشهادة ، فلابدّ أن يكون لهم حضور وجدانيّ وشهوديّ في الواقعة التي يشهدون بصددها . فالشفعاء (وهم الشهداء) هم الذين يمتلكون سيطرة على الأعمال ، واطّلاعاً على مكنون وحقائق تلك الأعمال ، وعلى سرائر العاملين .

ولنرى الآن أيّة طائفة تلك التي تكون ذات القول المرضيّ والحاضرة في الأعمال ؟

إنّ أفراد هذه الطائفة هم أصحاب القول المرضيّ عند الله تعالى ؛ ولمّا كان الرضا لا يتعلّق بشيء إلّا إذا كان ذلك الشيء كاملاً ، فالقول

١ـ الآية ٨٦، من السورة ٤٣: الزخرف .

المرضيّ عند الله تعالى إذاً هو القول الكامل ، وقول الصواب .

ولمّا علمنا ـ من جهة أُخرى ـ أنّ القول هو من آثار الذات ، ولن يكون فعل الذات كاملاً إلّا باكتساب تلك الذات الكمال ، وطي جميع مراحلها الكماليّة ـ باعتبار أنّ كمال الفعل منبعث من كمال مبدأ ذلك الفعل وذاته ـ فإنّا نستنتج أنّ ذوي القول المرضيّ عند الله هم أصحاب الذوات المرضيّة من قِبل الله تعالى . فيكون المرضيّ في الفعل هو المرضيّ في الذات ، ويكون المأذونون من قبل الله في الشفاعة الذين يرتضي الله قولهم ، هم أصحاب الإحاطة العلميّة بالموجودات ، وهم المرضيّون والمطهّرون بلحاظ الذات والحقيقة .

وبالتأكيد ، فإنّ عكس هذه المسألة ليس صادقاً ، إذ من الممكن أن يمتلك امرؤ ذاتاً مرضيّة ، إلّا أنّ فعله وأثره غير مرضيّينِ بسبب بعض الحجب والموانع الطارئة التي لوّثت الفعل .

حقيقة مقام الشفيع هي الفناء في الله تعالى

وحصيلة ما تقدّم هي أنّ الشفعاء في يوم القيامة هم الذين يرتضي الله تعالى ذواتهم وأقوالهم ، وأنّ كمالهم وكمال أقوالهم يشهدان على الأعمال ؛ ذلك الكمال الذي لا تشوبه شائبة من نقص أو خطأ ، وتلك الأقوال الصائبة المرضيّة .

وبعبارة أُخرى ، أنّ علم الشفعاء هو علم الله تعالى ، وهو علم لا تشوبه شبهات الأوهام ، ولا يعتريه خطأ الخيالات والأفكار النفسيّة ، بل هو علم طاهر ومنزّه من جميع الجهات .

ولكون هكذا علم خالص منزّه وعارٍ من صدأ الأفكار النفسانيّة ، فهو من مختصّات الحقّ تبارك وتعالى ، ولكونه تعالى يفيض من هذا العلم

حسب ما يشاء ، فما العلوم إذاً إلّا رشحاً من علم الله تعالى ، أمّا حقيقة العلم فمختصّة به عزّ وجلّ ، وليس لموجود غيره حظّاً من العلم ذاتيّاً :
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ.[1]

فيكون أولئكم الشفعاء قد فنوا في الذات الأحديّة وانعدموا فيها مع علمهم ، فتجلّى فيهم علم الله الذي لا يعتريه الخطأ .

أجل ، إنّ الأنبياء والسابقين من المرضيّين عند الله عزّ وجلّ والمقرّبين إلى ساحة الحقّ تعالى ينفون عن أنفسهم أيّ نوع من العلم ، وعندما يخاطبون ربّهم فإنّهم يقولون : لا علمَ لنا .

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ.[2]

ولابدّ لنا من معرفة علّة نفي الرسل عن أنفسهم العلم بمختلف وجوهه ، وإن كان ضئيلاً ، مع كونهم من حملة العلوم في الدنيا التي تفوق علوم سائر الناس أصالة وصدقاً وكمّيّة .

كانوا يفعلون ذلك ، لأنّهم قد بلغوا مقاماً ودرجةً صاروا معهما يرون الله سبحانه مصدراً لجميع العلوم ، وقد أُزيح حجاب كثرات العالم عن بصائرهم ، فوصلوا إلى مقام التوحيد والمعرفة ، فصار من الخطأ عندهم أن ينسبوا إلى أنفسهم تلك العلوم ، لأنّ العلم مختصّ بذات الحقّ ، وليس عندهم أكثر من تجلّي العلم فيهم .

ولقد استقام أُولئكم على طهارتهم الذاتيّة الأصيلة ، ووفوا بعهدهم وميثاقهم مع ربّهم عزّ وجلّ ، فأضحى علمهم علم الله تعالى على ضوء وعده

١ـ الآية ٢٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٠٩ ، من السورة ٥ : المائدة .

سبحانه . ولقد سار الأنبياء والمقرّبون على جادّة الطهارة والعبوديّة الخالصة ، ولم يتخطّوا تلك العبوديّة قيد شعرة ؛ وكان علم الخالق الذي أشرق عليهم كالأمانة التي استؤمنوا عليها من عند ربّهم ، ليعيدوها في خاتمة المطاف كاملةً مختومة إلى صاحبها . لذا ، فلا تراهم ينسبون ما هو إلى ربّهم إلى أنفسهم أبداً .

وعليه ، فمقام الشفاعة المستلزم للشهادة وصدق القول والعلم والشهود والوجدان ، إنّما يقوم على أساس ذلك الميعاد والميثاق : **لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا.**[1]

ونلحظ ـ بناءً على هذا الأساس المتين ـ أُولئك الأنبياء الذين يسألهم ربّهم عمّا أجابت به أُممهم ، وهم يعدّون تلك الإجابة من الغيب ، ثمّ ينفون علم الغيب عن أنفسهم ويعتبرونه مختصّاً بالله وحده .

وهذا هو العلم الفنائيّ الذي تطرّقنا إليه في بحث الشهادة ، وهو من العلوم الخارجة عن دائرة علومنا ومستوى أفكارنا وأحاسيسنا .

ومن خلال تفسير آية : **وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ، يتّضح أنّه ينبغي لهذه الشفاعة أن تعدّ قائمة على أساس الشهادة ، كما أنّ الشهادة القائمة على أساس الشهود والحضور الحقّ والعلم بالمغيّبات لن تتحقّق بدون الفناء في الله سبحانه .

كما يتّضح ـ على نفس الأساس ـ أنّ الشفاعة هي نحوٌ من التصرّف في الأعمال ، وتبديل السيّئات إلى حسنات ، أو محو للسيّئات أو تكفيرها وغفرانها ، أي سترها وتغطيتها . ولهذه الجهة فقد نسبها الله تعالى إلى نفسه في قوله :

١ـ الآية ٨٧، من السورة ١٩: مريم.

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ.[١]

ويدعم هذا المطلب كلامنا الذي ذكرناه في مقام الشفيع ومنزلته ، القائل بأنّ الشفاعة لا تتحقّق بدون الفناء في الله عزّ وجلّ . ويتّضح هذا الأمر أيضاً من قوله تعالى :

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ.[٢]

لأنّ عبارة : **فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ** بمعنى كشف الفزع والصعق الذي يسبب فقدان الإنسان لوعيه،وانغماره في حالٍ من الذهول . وحين ترتفع هذه الحالة ويعود إلى الإنسان وعيه وإدراكه ـ أي في الوهلة الأُولى بعد الفناء والغيبوبة عن عالم الكثرات والنفس ـ فسيقولون : إنّ الله قد قال الحقّ . فالشفاعة ـ إذاً ـ تحصل بعد مقام الفناء .

وبمقارنة آية : **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**[٣] مع الآية السابقة : **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ** ،[٤] فإنّنا نلحظ اتّحاد سياق الآيتين ، وأنّ الآية الأُولى تضمّ عبارة : **مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ** بدلاً من عبارة : **مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ** . ولمّا كان تحقّق الشفاعة ـ لغير الله ـ لا يحصل إلّا بعد إذن الله تعالى ورضاه ، فيستفاد من ذلك أنّ فعل الشافع في شفاعته سيكون ـ بعد إذن الله تعالى ـ هو فعل الله عزّ وجلّ ، لحصول الشخص الشفيع من

١ـ الآية ٤ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٢ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٣ـ الآية ٣ ، من السورة ١٠ : يونس .

٤ـ الآية ٤ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

خلال هذا الإذن على مقام الفناء المحض ، فيكون إذن الله ممثّلاً لارتقاء درجة الإنسان إلى مقام المعرفة والتوحيد المستلزم للفناء .

ومن هنا ، فليس من شفيع إلّا الله ؛ وحين يكون هناك مَن يشفع بإذنه تعالى ، فشفاعته ستكون عين شفاعة الله دون أن يكون في البين غيريّة وثنائيّة ليتحقّق من خلالها معنى الغير .

وهناك آية مباركة في سورة البقرة أكثر صراحة من الآية السابقة ، وهي : **مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** .

أي لمّا كان الله هو العالم بما كان وما يكون ، فالشفيع يحصل بدوره ـ بواسطة الإذن ـ على نظير هذا العلم ، فيتحمّل الشهادة على هذا الأساس ، ثمّ يقوم بأداء تلك الشهادة ، لأنّه سيكون فانياً آنذاك ، وعلم الشخص الفاني هو علم الله تعالى ، والإذن هو مقام الفناء نفسه . ولو لم يكن الأمر كذلك لانتفى الارتباط بين عبارة : **مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ** . وعبارة : **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ، مع أنّ العبارات الواردة في آية الكرسي ـ المعدودة من عجائب آيات القرآن في التوحيد والمعارف الإلهيّة الحقّة ـ مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً يجعلها تعطي بمجموعها معنىً واحداً يمثّل حقيقة التوحيد .

إضافة إلى علمنا بأنّ الإذن هو الارتضاء ؛ وبأنّ الارتضاء الإلهيّ لا يتعلّق بأمرٍ غير كامل . لذا ، فالشيء المشوب بشوائب البينونة والاثنينيّة ، والذي لم يتخلّ بعد عن صبغة الغيريّة ولم يتّسم بختم العبوديّة ، فإنّه لن يكون مورد رضا الله سبحانه .

حقيقة مقام رسول الله في الشفاعة

بكلّ تأكيد أنّ مقام رسول الله محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله

في الفناء في الله والبقاء بالحقّ سبحانه وتعالى هو مقام رفيع شامخ ذو سعة وعموميّة يجعل جميع الأنبياء والمرسلين يلوذون به ويحتاجون شفاعته. وليس هذا المقام درجة اعتباريّة، بل هو واقع ووجود موهوب ومكتسب منّ الله تعالى به على نبيّه، وهو ما يمثّل رحمة الحقّ الواسعة والنَّفَس الرحمانيّ والحجاب الأقرب الذي هو المحمود المطلق.

ويمكن استفادة هذه الحقيقة من آيات القرآن الكريم، إذ جاء فيها:

يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ.[1]

وهذه الرحمة المستثناة هي الإذن المستثنى في الآيات الأُخرى، فيتبيّن أنّ ما ندعوه بالشفاعة قائم بالرحمة، وأنّ الرحمة هي حقيقة الإذن، وأنّها هي التي توجب الشفاعة.

ويمكن إدراك هذا المعنى بصورة مجملة من الآية: **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ... ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ.**[2] لأنّ تلك الرحمة الخاصّة بالمتّقين ذات ميزة خاصّة، وربّما كانت تلك الميزة هي الفناء.

ومن جهة أُخرى فقد جاء: **وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ.**[3]

فهذه الآية تتضمّن كلاماً مطلقاً يفيد بأن رسول الله صلّى الله عليه وآله يمتلك من قِبل الحقّ مقاماً أعلى وأسمى من الشفاعة، وهو مقام الإذن المطلق الذي تليه الشفاعة وتحصل بسببه.

ومن هنا، فالنبيّ هو **شَفِيعُ الشُّفَعَاءِ**، كما أنّه ـ كما سبق أن ذكرنا في

١ـ الآيتان ٤١ و٤٢، من السورة ٤٤: الدخان.
٢ـ الآيتان ١٥٦ و١٥٧، من السورة ٧: الأعراف.
٣ـ الآية ١٠٧، من السورة ٢١: الأنبياء.

بحث الشهادة ـ أيضاً شَهِيدُ الشُّهَدَاءِ.

ولابدّ من معرفة أنّ مفاد آية : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ، التي تفيد كون خاتم النبيّين أفضل وأشرف من جميع المخلوقات ، مُغاير لمفاد الآية الواردة في سورة الجاثية : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ.[1]

لأنّ ظاهر الآية الأخيرة يفيد بأنّ الله تعالى قد أعطاهم الآيات الباهرة والبراهين الواضحة ،كالكتاب والحكم والنبوّة ، ففضّلهم بها ، والأمر كذلك بكلّ تأكيد .

أمّا التفضيل في مقام القرب إلى الله تعالى ، والتفضيل في درجة التقوى والمنزلة الإلهيّة ، فلا يمكن استفادته من هذه الآية .

والدليل على ذلك هو أنّ الله قد عذّبهم بأنواع العذاب الدنيويّ ، وصبّ عليهم ألوان سخطه ونقمته ، وأنزل عليهم الرجز من السماء .

كما أنّ من الجليّ ـ مضافاً إلى ما تقدّم ـ أنّ تفضيل أُمّة أو جماعة على العالمين هو غير تفضيل فردٍ واحد على العالمين ، خاصّة وأنّ ذلك التفضيل وتلك المزيّة والتفوّق عبارة عن الرحمة الإلهيّة الخاصّة التامّة التي هي بين الحقّ جلّ وعزّ وبين الموجودات .

ويمكن أن يقال للرحمة الخاصّة التامّة بين الله والموجودات بأنّها شيء ،كما يمكن القول أيضاً بأنّها لا شيء . فهي شيء بلحاظ كونها رحمة مطلقة للحقّ وظهوراً أقرب وتجلٍّ أعظم ، وهي لا شيء لأنّها ليست كالموجودات ، فلا يصحّ تسميتها شيئاً كالموجودات . وهي مرآة وآية وتجلٍّ ، وهي المعنى الحرفيّ والفناء الكلّيّ والاندكاك في السعة .

١ـ الآية ١٦ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

لقد خلق الله تبارك وتعالى بنفسه وبذاته القدسيّة كلّ شيء في هذا العالم ، وأوجد بذاته مبدأ ومعاد وتدبير أُمور كلّ شيء ، وقد دبرّ جميع هذه الأُمور برحمته . ورسول الله صلّى الله عليه وآله هو رحمة الله تعالى . فمن هنا ، صرنا نقول بأنّه هو التجلّي الأعظم والحجاب الأقرب ، وبأنّه هو الأفضل في النتيجة .

شفاعة رسول الله من المقام المحمود

وقد نزلت في هذا الشأن الآية الشريفة من سورة الإسراء : **وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦنَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**.[1]

وبسبب مجيء لفظ «مَقَاماً» في هذه الآية بصيغة المفعول ؛ ولعدم تعلّق لفظ «بَعَث» بمفعولينِ ، فينبغي القول إنّ لفظ «بَعَث» يتضمّن معنى الإقامة (من باب التضمين والإشراب) ، فيكون المعنى : **عَسَى رَبُّكَ أَنْ يُقِيمَكَ مَبْعُوثًا مَقَامًا مَحْمُودًا**.

وقد أنعم الله بهذا الإعطاء للمقام المحمود بصورة مطلقة دون قيد أو شرط ؛ أي أنّ الله سبحانه قد أعطاك مقاماً محموداً بكلّ حامد ؛ ومحموداً لكلّ نحوٍ من أنحاء الحمد ، مآل كلّ حمد من أيّ حامد ولأيّ محمود هو إليك ، وما ذلك المقام المحمود إلّا أنت .

ويتضمّن هذا المقام تمام الجمال والكمال ؛ وبما أنّ الحمد المطلق والمحموديّة المطلقة يقتضيان هذا المقام ، فكلّ جمال وكلّ كمال إنّما سيرشح من ذلك المقام الراسخ وينبع منه .

وقد جاء في القرآن الكريم : **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**،[2] حيث إنّ

١ـ الآية ٧٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء.

٢ـ الآية ٢ ، من السورة ١ : الحمد.

حمد كلّ حامد يعود للّه تعالى . فيكون المقام المحمود هو المقام الذي يمثّل الواسطة **بَيْنَ اللَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مَقَامِ الحَمْدِ** . وعلى هذا فالحمد ـ شأنه في ذلك شأن الرحمة ـ هو شيء كما أنّه لا شيء . فهو شيء بلحاظ كونه حمد مطلق وظهور أقرب ، وهو لا شيء لأنّه غير الأشياء الخارجيّة ومقام الاثنينيّة ، ولأنّه المعنى الحرفيّ والاندكاكيّ والفناء الكلّيّ ، وهو ما يُعبّر عنه بـ **مَقَامِ الوَلَايَةِ الكُبْرَى**. كما تبيّن هذه الحقيقة الآية المباركة في سورة الضحى بكلّ صراحة ووضوح : **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**.[1]

بما أنّ هذا الكلام مطلق أيضاً ، وأنّ العطاء المطلق للحقّ سبحانه وتعالى هو نفس الرحمة المطلقة ، فيمكن أن يكون مفاد الفناء الكلّيّ في ذات الحضرة الأحديّة جلّ شأنه هو نفس مفاد الآيتين القريبتي الذكر ، أي آية : **وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَـٰلَمِينَ** ، وآية : **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**.

ومضافاً إلى مفاد هاتين الآيتين ، فالآية تمتلك جهة خاصّة أيضاً تتمثّل في معنى الرضا ، وهو الارتضاء المطلق من جميع الجهات .

وفي الآية نكتة أُخرى ، وهي أنّه لم يقل : **حَتَّى تَرْضَى**، لأنّ عطاء الله لرسوله (أي هذا العطاء الخاصّ) ليس عطاءً تدريجيّاً يستمرّ بتعاقب الأعمال والكثرات والجزئيّات ، ويتوالى بتواتر الأمثال والأشباه والنظائر ، بل هو عطاء دفعيّ ، لذا فقد عبّر عنه بقوله : **فَتَرْضَىٰ**.

وفي المقام نكات دقيقة ومسائل عرفانيّة عميقة ولطيفة تتجلّى لسالكي طريق الحقّ ، وللباحثين عن الصراط المستقيم على أمل رحمة الله تعالى .

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٩٣ : الضحى .

ويُستنتج من خلاصة ما ذكر أنّ مقام **الشَّفَاعَة الكُبْرَى** مختصّ **بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبدِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ** ، مضافاً إلى **مَقَام الإذْنِ المُطْلَقِ فِي الشَّفَاعَةِ** ، الذي هو أدق وأسمى من نفس الشفاعة . **صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ.**

وبعد اتّضاح هذا البحث القرآنيّ الدقيق ، وبيان الآيات المباركة لاختصاص الشفاعة الكلّيّة المطلقة الإلهيّة بالنبيّ الكريم ، فقد حان الوقت الآن لإلقاء نظرة على الأحاديث والروايات الواردة في هذا المجال ، التي جاوزت حدّ الاستفاضة ، فنورد منها بعض الأمثلة والشواهد .

قال عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره في ذيل الآية الشريفة **وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** :

لا يشفع أحد من أنبياء الله ورسله يوم القيامة حتّى يأذن الله له ، إلّا رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فإنّ الله قد أذن له في الشفاعة من قبل يوم القيامة ، والشفاعة له وللأئمّة من ولده ، ثمّ بعد ذلك للأنبياء عليهم السلام .

قال : حدّثني أبي ، عن ابن أبي عمير ، عن معاوية بن عمّار ، عن أبي العبّاس المكبّر ، قال : دخل مولى لامرأة عليّ بن الحسين عليه السلام على أبي جعفر (الباقر) عليه السلام ، يقال له أبو أيمن ، فقال : يا أبا جعفر ! يغرّون الناس ويقولون : **شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ ، شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ.**

فغضب أبو جعفر عليه السلام حتّى تربّد وجهه ، ثمّ قال : **وَيْحَكَ يَا أَبَا أَيْمَنَ ! أَغَرَّكَ أَنْ عَفَّ بَطْنُكَ وَفَرْجُكَ ؟! أَمَا لَوْ رَأَيْتَ أَفْزَاعَ القِيَامَةِ لَقَدِ احتَجْتَ إلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ !**

وَيْلَكَ فَهَلْ يَشْفَعُ إلَّا لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ؟

ثمّ قال : **مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ.**

ثمّ قال أبو جعفر : **إنَّ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الشَّفَاعَةَ فِي أُمَّتِهِ ؛ وَلَنَا شَفَاعَةٌ فِي شِيعَتِنَا ؛ وَلِشِيعَتِنَا شَفَاعَةٌ فِي أَهَالِيهِمْ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَإنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ لَشَفَاعَةٌ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ ، فَإنَّ المُؤمِنَ لَيَشْفَعُ حَتَّى لِخَادِمِهِ ؛ يَقُولُ : يَا رَبِّ ! حَقُّ خِدْمَتِي ، كَانَ يَقِينِي الحَرَّ وَالبَرْدَ.**[1]

وروى البرقيّ في «المحاسن» عن ابن أبي عمير صدر هذه الرواية إلى قوله : **وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ.**[2]

رواية في عرصات القيامة وشفاعة رسول الله

وروى العيّاشيّ في تفسيره في ذيل آية : **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُوداً** ، عن خيثمة الجعفيّ ، قال : كنت عند جعفر بن محمّد عليه السلام أنا ومفضّل بن عمر ليلاً ليس عنده أحد غيرنا ، فقال له مفضّل الجعفيّ : جُعلت فداك ؛ حدّثنا حديثاً نُسَرُّ به . قال : نعم ! إذا كان يوم القيامة **حَشَرَ اللهُ الخَلاَئِقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً.**[3]

قال : فقلت : جُعلت فداك ؛ ما الغُرْل ؟ قال : كما خُلقوا أوّل مرّة ؛ فيقفون حتّى يلجمهم العَرَق . فيقولون : ليت الله يحكم بيننا ولو إلى النار ـ يرون أنّ في النار راحة فيما هم فيه ـ ثمّ يأتون آدم فيقولون : أنت أبونا وأنت نبيّ ، فاسأل ربّك يحكم بيننا ولو إلى النار . فيقول آدم : لستُ بصاحبكم ، خلقني ربّي بيده وحملني على عرشه وأسجدَ لي ملائكته ، ثمّ أمرني فعصيتُه ، ولكنّي أدلّكم على ابني الصدّيق الذي مكث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم ، كلّما كذّبوا اشتدّ تصديقه «نوح» .

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥٣٩.

٢ـ «محاسن البرقيّ» ج ١، ص ١٨٣.

٣ـ الغُرْل : جمع الأغرل وهو الأقلف غير المختون.

قال : فيأتون نوحاً فيقولون : سَل ربّك يحكم بيننا ولو إلى النار !

قال : فيقول : لستُ بصاحبكم . إنّي قلت : **إِنَّ آبْنِي مِن أَهْلِي** ، ولكنّي أدلّكم على من اتّخذه الله خليلاً في دار الدنيا ، ائتوا إبراهيم !

قال : فيأتون إبراهيم فيقول : لست بصاحبكم . إنّي قلت : **إِنِّي سَقِيمٌ** ، ولكنّي أدلّكم على مَن كلّم الله تكليماً : «موسى» . قال : فيأتون موسى فيقولون له ، فيقول : لست بصاحبكم ، إنّي قتلتُ نَفْساً ، ولكنّي أدلّكم على من كان يخلق بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله : «عيسى» . فيأتونه فيقول : لست بصاحبكم ، ولكنيّ أدلّكم على من بشّرتكم به في دار الدنيا : «أحمد» .

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام :

مَا مِنْ نَبِيٍّ وُلِدَ مِن آدَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَّا وَهُمْ تَحْتَ لِوَاءِ مُحَمَّدٍ .

قال : فيأتونه . ثمّ قال : فيقولون : يا محمّد ! سَل ربّك يحكم بيننا ولو إلى النار . قال : فيقول : نعم ؛ أنا صاحبكم . فيأتي **دَارَ الرَّحْمَنِ** وهي عدن ، وإنّ بابها سعته بُعد ما بين المشرق والمغرب ، فيحرّك حلقة من الحلق ، فيقال : مَن هذا ؟ ـ وهو أعلم به ـ فيقول : أنا محمّد ؛ فيقال : افتحوا له . قال : فيُفتح لي . قال : فإذا نظرتُ إلى ربّي مجدّته تمجيداً لم يمجّده أحد كان قبلي ولا يمجّده أحد كان بعدي ، ثمّ أخرّ ساجداً ، فيقول :

يَا مُحَمَّدُ ! ارْفَعْ رَأْسَكَ ! وَقُلْ يُسْمَعْ قَوْلُكَ ! وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ! وَسَلْ تُعْطَ .

قال : فإذا رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى ربّي مجّدتُه تمجيداً أفضل من الأوّل ، ثمّ أخرّ ساجداً فيقول : ارفع رأسك وقُل يُسمعْ قولك واشفعْ تُشفّع وسَلْ تُعطَ . فإذا رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى ربّي مجّدته تمجيداً أفضل من

الأوّل والثاني ، ثمّ أخرّ ساجداً فيقول : ارفعْ رأسك وقُل يُسمع قولك واشفعْ تُشفّع وسَلْ تُعطَ . فإذا رفعت رأسي أقول : ربّ احكم بين عـبادك ولو إلى النار ! فيقول : نعم يا محمّد .

قال : ثمّ يؤتى بناقة من ياقوت أحمر وزمامها زبرجد أخـضر حـتّى أركبها ، ثمّ آتي **المَقَام المَحْمُود** حتّى أقضي عليه وهو تلّ من مسك أذفر بحيال العرش ، ثمّ يُدعى **إبراهيم** فيُحمل على مثلها فيجيء حتّى يقف عـن يمين رسول الله صلّى الله عليه وآله .

ثمّ رفع رسول الله صلّى الله عليه وآله يده فـضربَ بـها عـلى كـتف **عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ** ، ثمّ قال : ثمّ تؤتى ـ والله ـ بمثلها فتُحمل عـليها ، ثـمّ تجيء حتّى تقف بيني وبين أبيك إبراهيم . ثمّ يخرج مناد من عند الرحمن فيقول : **يَا مَعْشَرَ الخَلَائِقِ !** أليس العدل من ربّكم أن يولّي كلّ قوم ما كانوا يتولّون في دار الدنيا ؟ فيقولون : بلى ، وأيّ شيء عدل غيره ؟ قال : فيقوم الشيطان الذي أضلّ فرقةً من الناس حتّى زعموا أنّ عيسى هو الله وابن الله فيتبعونه إلى النار ؛ ويقوم الشيطان الذي أضلّ فرقةً من الناس حتّى زعـموا أنّ عُزيراً ابن الله حتّى يتبعونه إلى النار ؛ ويـقوم كـلّ شيطان أضـلّ فـرقةً فيتبعونه إلى النار ، حتّى تبقى هذه الأُمّـة ، ثـمّ يـخرج مـنادٍ مـن عـند الله فيقول : **يَا مَعْشَر الخَلَائِق !** أليس العدل من ربّكم أن يولّي كلّ فـريق مـن كانوا يتولّون في دار الدنيا ؟ فيقولون : بلى .

فيقوم شيطان فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ثمّ يقوم شيطان فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ثمّ يقوم شيطان ثالث فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ثمّ يقوم **معاوية** فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ويقوم **عليّ** فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ثمّ **يـزيد بـن مـعاوية** فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ويـقوم **الحسـن** فـيتبعه مَـن كـان يـتولّاه ، ويـقوم **الحسين** فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ثمّ يقوم **مروان بن الحكـم وعـبد المـلك**

فيتبعهما من كان يتولّاهما ، ثمّ يقوم **عليّ بن الحسين** فيتبعه مَن كان يتولّاه ، ثمّ يقوم **الوليد بن عبد الملك** ويقوم **محمّد بن عليّ** فيتبعهما مَن كان يتولّاهم ، ثمّ أقوم أنا فيتبعني من كان يتولّاني ، وكأنيّ بكما (أي خيثمة الجعفيّ ومفضّل بن عمر الجُعفيّ) معي ، ثمّ يؤتى بنا فنجلس على عرش ربّنا ويؤتى بالكتب فنرجع فنشهد على عدوّنا ونشفع لمن كان من شيعتنا مرهقاً .

قال : قلت : جُعلت فداك ؛ فما المرهق ؟ قال : المذنب ؛ فأمّا الذين اتّقوا من شيعتنا فقد نجّاهم الله بمفازتهم لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون . قال : ثمّ جاءته جارية له فقالت : إنّ فلاناً القرشيّ بالباب ، فقال ائذنوا له ، ثمّ قال لنا : اسكتوا .[1]

وروى عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره في ذيل الآية الشريفة السابقة ، عن أبيه ، عن الحسن بن محبوب ، عن ذرعة بن سماعة ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قال : سألتُه عن شفاعة النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم القيامة ، فقال :

يُلْجِمُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ العَرَقُ فَيَقُولُونَ: انْطَلِقُوا بِنَا إلَى آدَمَ لِيَشْفَعَ لَنَا عِنْدَ رَبِّهِ، فَيَنْطَلِقُونَ إلَى آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ ! فَيَقُولُ: إنَّ لِي ذَنْباً وَخَطِيئَةً، فَعَلَيْكُمْ بِنُوحٍ ؛ فَيَأْتُونَ نُوحاً فَيَرُدُّهُمْ إلَى الَّذِي يَلِيهِ، وَيَرُدُّهُمْ كُلُّ نَبِيٍّ إلَى مَن يَلِيهِ حَتَّى يَنْتَهُوا إلَى عِيسَى، فَيَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَهِ ! فَيَعْرِضُونَ أنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ، فَيَقُولُ: انْطَلِقُوا ! فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ إلَى بَابِ الجَنَّةِ وَيَسْتَقْبِلُ بَابَ الرَّحْمَنِ وَيَخِرُّ سَاجِداً فَيَمْكُثُ

١ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢، ص ٣١٠ إلى ٣١٤؛ وفي نسخة «البحار» ج ٨، ص ٤٧: فيجلس على العرش ربُّنا .

مَا شَاءَ اللَّهُ. فَيَقُولُ اللَّهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ! وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ! وَسَلْ تُعْطَ ذَلِكَ! وَهُوَ قَوْلُهُ: «عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا».[1]

وقد نوّهنا سابقاً بكثرة الروايات الواردة عن الشيعة والعامّة في تفسير آية : **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** . وقد أوردنا في المجلس الستّين من هذه الدورة رواية عن «المستدرك» للحاكم عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان تقارب في مضمونها رواية ذرعة بن سماعة .

وقد روى عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره حديثاً آخر أعقب هذا الحديث ، وذلك عن أبيه ، عن محمّد بن أبي عمير ، عن معاوية بن هشام ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : **لَوْ قُمْتُ المَقَامَ المَحْمُودَ لَشَفَعْتُ فِي أَبِي وَأُمِّي وَعَمِّي وَأَخٍ كَانَ لِي فِي الجَاهِلِيَّةِ.**[2]

وروى العيّاشيّ في تفسيره ، عن محمّد بن حكيم ، عن الإمام الصادق عليه السلام رواية تماثلها في المضمون .[3]

وروى عن صفوان ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : **إنِّي أَسْتَوْهِبُ مِنْ رَبِّي أَرْبَعَةً: آمِنَةَ بِنْتَ وَهَبٍ؛ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ وَأَبَا طَالِبٍ؛ وَرَجُلاً جَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أُخُوَّةٌ، وَطَلَبَ إلَيَّ أَنْ أَطْلُبَ إلَى رَبِّي أَنْ يَهَبَهُ لِي.**[4]

١ـ «تفسير القمّيّ» الطبعة الحجريّة ، ص ٣٨٧؛ وفي الطبعة الحروفيّة ج ٢ ، ص ٢٥ ، طبعة النجف .

٢ـ «تفسير القمّيّ» ص ٣٨٧، الطبعة الحجريّة ؛ وج ٢ ، ص ٢٥ في الطبعة الحروفيّة ، النجف .

٣ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٣١٣.

٤ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٣١٤.

وروى العيّاشيّ في تفسيره روايتين تماثلان الرواية التي نقلناها عن خيثَمة في إحالة الأنبياء بعضهم على بعض ، وصولاً إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ أولاهما عن عَيْص بن القاسم ، عن الصادق عليه السلام ،[1] والثانية عن سماعة بن مهران ، عن الصادق عليه السلام .[2]

وأورد البحرانيّ في «تفسير البرهان» جميع هذه الروايات التي نقلناها عن «تفسير العيّاشيّ» .[3]

ويروي فرات بن إبراهيم في تفسيره عن محمّد بن القاسم بن عبيد معنعناً عن بشر بن شريح البصريّ ، قال :

قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : أَيَّةُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَهِ أَرْجَى ؟

قَالَ : مَا يَقُولُ فِيهَا قَوْمُكَ ؟

قَالَ : قُلْتُ : يَقُولُونَ : «يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَهِ» .

قَالَ : لَكِنَّا ـ أَهْلَ البَيْتِ ـ لَا نَقُولُ ذَلِكَ !

قَالَ : قُلْتُ : فَأَيُّ شَيءٍ تَقُولُونَ فِيهَا ؟

قَالَ : نَقُولُ : «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ» : الشَّفَاعَةُ ؛ وَاللَهِ الشَّفَاعَةُ ؛ وَاللَهِ الشَّفَاعَةُ .[4]

وقد وردت روايات كثيرة في مقامات ودرجات رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله،وشفاعته وتوسّل جميع الأنبياء به واحتياجهم له،من

١ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٣١٣.

٢ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٣١٥.

٣ـ «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ٤٣٩ و ٤٤٠ ؛ الطبعة الحروفيّة.

٤ـ «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٥٧ ، الطبعة الحروفيّة .

ضمنهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، سواء في الدنيا أم في الآخرة .

ويستفاد من الآيات والروايات أنّ للنبيّ درجة في القرب تجعل جميع الخلائق ـ حتّى الأنبياء والأولياء ـ يفتقرون إليه ليأخذ بأيديهم في السير والسلوك إلى الله ، وفي رفع موانع الطريق وعقباته ومشكلاته ، وفي الشفاعة الدنيويّة والأُخرويّة ، والتكوينيّة والتشريعيّة .

وكان الأنبياء أُولو العزم الذين بُعث كلّ منهم بكتاب وشريعة ، يتوسّلون بالنبيّ ويُقسمون على الله به ، ويتشفّعون به وبأهل بيته من أجل أن يُنزل الله ـ ببركتهم ـ رحمته على أُولئك الأنبياء .

إنجيل برنابا واحتياج جميع الأنبياء إلى شفاعة رسول الله

يُعدّ إنجيل برنابا أكثر الأناجيل إتقاناً ،[1] وقد وردت البشارة في عدّة

١ـ اكتُشف إنجيل برنابا في سنة ١٧٠٩ ميلاديّة من قبل أحد مستشاري الملك «بروس» واسمه «كريمر» ، وكان يقيم في «امستردام» . وأصل هذه النسخة المكتشفة مكتوب باللغة الإيطاليّة والخطّ الإيطاليّ ، وهي نسخة قديمة جدّاً.

وقد عُثر على نسخة أُخرى مستنسخة من النسخة اليونانيّة الأُولى ، وكانت مكتوبة باللغة الإسبانيّة ، وهي نسخة قديمة بدورها.

وقد تُرجمت النسخة الإيطاليّة إلى الإنجليزيّة ، وسمّي هذا الإنجيل بالإنجليزيّة :

الإنجيل الصادق لعيسى المدعو بالمسيح = True Gospel of Jesus Called Christ

وقد قام الدكتور خليل سعادة بترجمته إلى العربيّة في ١٥ مارس سنة ١٩٠٨ ميلاديّة ، ثمّ ترجمه المرحوم سردار حيدر قلي الكابليّ من الإنجليزيّة إلى الفارسيّة في شهر ربيع الأوّل لسنة ١٣٤١ هجريّة ، وطُبع في مطبعة سعادت في مدينة كرمانشاه سنة ١٣١١ هـ. ش الموافق لسنة ١٣٥٠ هـ.ق .

وعلى أيّة حال ، فهذا الإنجيل ـ نظراً لموافقته الآيات القرآنيّة في بشارة النبيّ عيسى بقدوم النبيّ محمّد ، ولكونه من أفضل الأناجيل ـ قد أثار بظهوره ضجّة كبيرة في أُوروبّا ⇐

مواضع من هذا الإنجيل بقدوم محمّد رسول الله ونبوّته ، كما ورد في موضعينِ من هذا الإنجيل ـ مضافاً إلى ما سبق ـ التصريح بمقام شفاعة النبيّ في يوم الجزاء ، واحتياج جميع الأنبياء والخلائق إلى إعانته وشفاعته ورحمته .

الموضع الأوّل : في الفصل الرابع والخمسين ـ ب ـ ، أي في سورة القيامة ، حيث يورد بعض المطالب ، حتّى يصل إلى الآية السابعة ، فيقول :

[٧ ـ ثم يُحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم .

٨ ـ فيقبّلون يد رسول الله واضعين أنفسهم في كنف حمايته .

٩ ـ ثمّ يُحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون : **اذْكُرْنَا يَا مُحَمَّد**.

١٠ ـ فتتحرّك الرحمة في رسول الله لصراخهم .

١١ ـ وينظر فيما يجب فعله خائفاً لأجل خلاصهم .

١٢ ـ ثمّ يُحيي اللهُ بعد ذلك كلّ مخلوق فتعود إلى وجودها الأوّل .

١٣ ـ وسيكون لكلّ منها قوّة النطق علاوة .

١٤ ـ ثمّ يُحيي الله بعد ذلك المنبوذين كلّهم ، الذين عند قيامتهم يخاف سائر خلق الله بسبب قُبح منظرهم .

١٥ ـ ويصرخون : «أيّها الربّ إلهنا ! لا تدعنا من رحمتك» .

١٦ ـ وبعد هذا يقيم الله الشيطان الذي سيصير كلّ مخلوق عند النظر إليه كميّت خوفاً من منظره المريع .

⇐ وفي الكنائس الإنجليزيّة . ولمّا كان تصديقه يساوق تصديق كون رسول الله خاتماً للرسل ، فقد امتنعت تلك الكنائس عن الاعتراف به ، ولم يعدّوه إنجيلاً رسميّاً .

١٧ ـ ثمّ قال يَشُــوع : «أرجـو اللـه أن لا أرى هـذه الهـولة فـي ذلك اليوم» .

١٨ ـ إنّ رسول الله وحده لا يتهيّب هذه المناظر ، لأنّه لا يـخاف إلّا الله وحده .

وبعد عدّة آيات ، يقول فـي الفـصل الخـامس والخـمسين «د» وهـو سورة القيامة :

١ ـ ويذهب **رسول الله** ليجمع كلّ الأنبياء الذين يكلّمهم راغباً إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين .

٢ ـ فيعتذر كلّ أحد خوفاً .

٣ ـ ولعمر الله إنّي أنا أيـضاً لا أذهب إلى هـناك ، لأنّـي أعـرف مـا أعرف .

٤ ـ وعندما يرى الله ذلك يذكّر رسوله كيف أنّـه خـلق كـلّ الأشـياء محبّة له .

٥ ـ فيذهب خـوفه ويـتقدّم إلى العـرش بـمحبّة واحـترام والمـلائكة ترنّم : «تبارك اسمك القدّوس يا الله إلهنا» .

٧ ـ ومتى صار على مقربة من العرش يفتح الله لرسوله كخليلٍ لخليله بعد طول الأمد على اللقاء .

٨ ـ ويبدأ رسـول اللـه بـالكلام أوّلاً فـيقول : «إنّـي أعـبدك وأحـبّك يا إلهيّ» .

٩ ـ وأشكرك من كلّ قلبي ونفسي .

١٠ ـ لأنّك أردتَ فخلقتني لأكون عبدك .

١١ ـ وخلقتَ كلّ شيء حبّاً فيّ ، لأحبّك لأجل كلّ شيء وفي كلّ شيء وفوق كلّ شيء .

١٢ ـ فليحمدك كلّ خلائقك يا إلهي .

١٣ ـ حينئذٍ تقول كلّ مخلوقات الله : «نشكرك يا ربّ وتبارك اسمك القدّوس» .

١٤ ـ الحقّ أقول لكم إنّ الشياطين والمنبوذين مع الشيطان يبكون حينئذٍ ، حتّى أنّه ليجري من الماء من عين الواحد منهم أكثر ممّا في الأُردن .

١٥ ـ ومع هذا فلا يرون الله .

١٦ ـ ويكلّم الله رسوله قائلاً : «مرحباً بك يا عبدي الأمين

١٧ ـ فاطلبْ ما تريد تَنَلْ كلّ شيء» .

١٨ ـ فيجيب رسول الله : «يا ربّ ! أذكرُ أنّك لمّا خلقتني قلتَ إنّك أردتَ أن تخلق العالم والجنّة والملائكة والناس حبّاً فيّ ليمجّدوك بي أنا عبدك .

١٩ ـ لذلك أضرع إليك أيّها الربّ الإله الرحيم العادل أن تذكر وعدك لعبدك» .

٢٠ ـ فيجيب الله كخليل يمازح خليله ويقول : «أعندك شهود على هذا يا خليلي محمّد؟» .

٢١ ـ فيقول باحترام : «نعم يا ربّ» .

٢٢ ـ فيقول الله : «اذهب وادعهم يا جبريل» .

٢٣ ـ فيأتي جبزيل إلى رسول الله ويقول : «مَن هم شهودك أيّها السيّد؟» .

٢٤ ـ فيجيب رسول الله : «هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود ويسوع ابن مريم» .

٢٥ ـ فينصرف الملاك وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون

إلى هناك خائفين .

٢٦ ـ فمتى حضروا يقول لهم الله : «أتذكرون ما أثبته رسولي؟» .

٢٧ ـ فيجيبون : «أيّ شيء يا ربّ ؟» .

٢٨ ـ فيقول الله : «إنّي خلقتُ كلّ شيء حبّاً فيه ليحمدني كلّ الخلائق به» .

٢٩ ـ فيجيب كلّ منهم : «عندنا ثلاثة شهود أفضل منّا يا ربّ» .

٣٠ ـ فيجيب الله : «ومن هم هؤلاء الشهود الثلاثة؟» .

٣١ ـ فيقول موسى : «الأوّل الكتاب الذي أعطيتنيه» .

٣٢ ـ ويقول الذي يكلّمكم : «يا ربّ ! إنّ العالم كلّه أغراه الشيطان فقال إنّي كنت ابنك وشريكك» .

٣٣ ـ ولكنّ الكتاب الذي أعطيتنيه قال حقّاً إنّي أنا عبدك .

٣٤ ـ ويعترف ذلك الكتاب بما أثبته رسولك .

٣٥ ـ فيتكلّم حينئذٍ رسول الله ويقول : «هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتنيه يا ربّ» .

٣٦ ـ فعندما يقول رسول الله هذا ، يتكلّم الله قائلاً : «إنّ ما فعلتُ الآن إنّما فعلتُه ليعلم كلّ أحد مبلغ حبّي لك » .

٣٧ ـ وبعد أن يتكلّم هكذا يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كلّ مختاري الله .

٣٨ ـ لذلك يسجد كلّ مخلوق للّه قائلاً : «لك وحدك اللهم المجد والإكرام ، لأنّك وهبتنا لرسولك» .

الثاني : في الفصل السادس والثلاثين بعد المائة ، حيث يذكر عدّة آيات إلى أن يصل إلى الآية الثامنة :

٨ ـ «بيد أنّ ما لا مشاحة فيه أنّ الأطهار وأنبياء الله إنّما يذهبون إلى

هناك ليشاهدوا ، لا ليكابدوا عقاباً.

٩ ـ أمّا الأبرار ، فإنّهم لا يكابدون إلّا الخوف.

١٠ ـ وماذا أقول ؟ أفيدكم أنّه حتّى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله .

١١ ـ فترتعد ثمّة الجحيم لحضوره.

١٢ ـ وبما أنّه ذو جسد بشريّ يُرفع العقاب عن كلّ ذي جسد بشريّ من المقضي عليهم بالعقاب ، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدّة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم .

١٣ ـ ولكنّه لايُقيم هناك إلّا طرفة عين.

١٤ ـ وإنّما يفعل الله هذا ليعرف كلّ مخلوق أنّه نال نفعاً من رسول الله.

١٥ ـ ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتّقد قائلاً بعضهم لبعض : «اهربوا اهربوا ، فإنّ عدوّنا محمّداً قد أتى» .

١٦ ـ فمتى سمع الشيطان ذلك يصفع وجهه بكلتا كفّيه ويقول صارخاً : «ذلك بالرغم عنّي لاشرف مني وهذا إنّما فعل ظلماً» .

١٧ ـ أمّا ما يختصّ بالمؤمنين الذين كان لهم اثنان وسبعون درجة مع أصحاب الدرجتينِ الأُخريينِ الذين كان لهم إيمان بدون أعمال صالحة إذ كان الفريق الأوّل حزيناً على الأعمال الصالحة والآخر مسروراً بالشرّ ، فسيمكثون جميعاً في الجحيم سبعين ألف سنة .

١٨ ـ وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون : «يا محمّد ! أين وعدك لنا ؟ إنّ من كان على دينك لايمكث في الجحيم إلى الأبد» .

١٩ ـ فيعود حينئذٍ ملاك الله إلى الجنّة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقصّ عليه ما سمع .

٢٠ ـ فحينئذٍ يكلّم الرسولُ الله قائلاً : «ربّي وإلهي اذكرْ وعدك لي أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد» .

٢١ ـ فيجيب الله : «اطلبْ ما تريد يا خليلي لأنّي أهبك كلّ ما تطلب !»

الفصل السابع والثلاثون بعد المائة :

١ ـ فحينئذٍ يقول رسول الله : «يا ربّ ! يوجد من المؤمنين في الجحيم من لبث سبعين ألف سنة .

٢ ـ أين رحمتك يا ربّ ؟

٣ ـ إنّي أضرع إليك يا ربّ أن تعتقهم من هذه العقوبات بالمرّة» .

٤ ـ فيأمر الله حينئذٍ الملائكة الأربعة المقرّبين للّه أن يذهبوا إلى الجحيم ويُخرجوا كلّ من على دين رسوله ويقودوه إلى الجنّة .

٥ ـ وهو ما سيفعلونه .

٦ ـ ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أنّ كلّ من آمن به يذهب إلى الجنّة بعد العقوبة التي تكلّمت عنها حتّى ولو لم يعمل عملاً صالحاً ، لأنّه مات على دينه.][1]

أجلْ ، فقد كانت مطالب إنجيل برنابا حول شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله مفصّلة ومؤيّدة في مضمونها للآية القرآنيّة الكريمة

---

١ ـ «إنجيل برنابا» ترجمة الدكتور خليل سعادة ، ص ٨٦ إلى ٩٠؛ وص ٢١١ إلى ٢١٣.

وقد نقل المؤلّف قدّس سرّه في كتاب «معاد شناسى» (= معرفة المعاد) من النسخة الفارسيّة لإنجيل برنابا ترجمة حيدر قلي خان الكابليّ ، ص ٢٤٣ إلى ٢٤٥.(م)

وللروايات الواردة عن طريق أهل البيت والعامّة . لذا ، فقد نقلنا مطالب الإنجيل بكاملها على الرغم من تفصيلها ، من أجل أن تصبح درجات رسول الله ومقاماته عند الله المتعال مشهودةً جليّة ، وليتبيّن بوضوح أمر افتقار جميع الأنبياء إليه **وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ**.

أجل ، فحين يكون رسول الله واسطةً في خلق عالم التكوين وسبباً في نشوء المُلك والملكوت ، فما العجب في أن ينال مقام الشفاعة في عالم الشرع والشريعة ، وأن يكون علّة ارتقاء مقام الأبرار ودرجاتهم ، وباعثاً على شمول الأشرار والتعساء بالغفران والعفو .

وقد وردت عن طريق الشيعة روايات متضافرة في أنّ الوجود المقدّس لرسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام والصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء سلام الله عليها في عالم المعنى والنفس المجرّدة ، هو بنفسه الحجاب الأقرب للّه جلّ شأنه ، وواسطة في إفاضة الرحمة على عالم الوجود . وقد ذكرنا بعض تلك الروايات في أجزاء «معرفة الإمام» من سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميّة .كما أوردنا هنا ـ للمناسبة ـ بعض الروايات الواردة عن طريق العامّة .

وقد استشهد العلّامة الشيخ عبد الحسين الأمينيّ في كتابه «الغدير» بالقصيدة الغديريّة للقاضي نظام الدين [1] التي مطلعها :

١ـ نظام الدين محمّد بن قاضي القضاة إسحاق بن المظهر الأصبهانيّ المتوفّى سنة ٦٧٨ هـ، أحد أعيان أُدباء الطائفة وأوحدها.في الفنون والفضائل. قاضي القضاة في الأقطار العراقيّة. له مخالطة مع الخواجة شمس الدين محمّد الجوينيّ الملقّب بصاحب الديوان المتوفّى سنة ٦٨٣. وله شعر يمدح به سلطان المحقّقين الخواجة نصير الدين الطوسيّ المتوفّى سنة ٦٧٢. وردت ترجمته في «مجالس المؤمنين» ص ٢٢٦؛ وفي «تاريخ آداب اللغة العربيّة» لجرجي زيدان، ج ٣، ص ١٣. («الغدير» ج ٥، ص ٤٣٥ و٤٣٦).

لِـلَّـهِ دَرُّكُـمُ يَـا آلَ يَـاسِـيـنَـا يَا أَنْجُمَ الحَقِّ أَعْـلَامَ الهُدَى فِينَا
لَا يَقْبَـلُ الـلَّـهُ إِلَّا فِـي مَحَبَّتِكُـمْ أَعْمَـالَ عَبْدٍ وَلَا يَرْضَـى لَهُ دِينَا
أَرْجُو النَّجَاةَ بِكُمْ يَوْمَ المَعَادِ وَإِن جَنَتْ يَدَايَ مِنَ الذَّنْبِ الأَفَانِينَا

حتّى يصل إلى قوله :

لِأَجْلِ جَدِّكُمُ الأَفْلَاكُ قَدْ خُلِقَتْ لَوْلَاهُ مَا اقْتَضَتِ الأَقْـدَارُ تَكْوِينَا

والقصيدة من اثنتين وأربعين بيتاً ، وقد أوردها القاضي نور الله في «مجالس المؤمنين» ص ٢٢٦ :

ويقول المرحوم الأمينيّ في شرح البيت الأخير الذي ذكرناه : «أشار إلى ما أخرجه الحاكم وصحّحه في «المستدرك» ج ٢ ، ص ٦١٥ ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال :

أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا عِيسَى ! آمِنْ بِمُحَمَّدٍ وَأْمُرْ مَن أَدْرَكَهُ مِنْ أُمَّتِكَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، فَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُ آدَمَ ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَلَقَدْ خَلَقْتُ العَرْشَ عَلَى المَاءِ فَاضْطَرَبَ فَكَتَبْتُ عَلَيْهِ : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» فَسَكَنَ .

وذكره السبكيّ في «شفاء السقام» ص ١٢١ ، وأقرّ صحّته . وكذلك الزرقانيّ في «شرح المواهب» ج ١ ، ص ٤٤ ، قال : أخرجه أبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيّين» وصحّحه الحاكم وأقرّه السبكيّ والبلقينيّ في فتاواه .

وأخرج الحاكم بعده حديثاً وصحّحه ، وفيه نحو دلالة على ما نرتئيه ، ولفظه :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخَطِيئَةَ قَالَ : يَا رَبِّ ! أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَّا غَفَرْتَ لِي . فَقَالَ اللَّهُ : يَا آدَمُ ! وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّداً وَلَمْ أَخْلُقْهُ ؟! قَالَ : يَا رَبِّ ! لِأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ العَرْشِ مَكْتُوباً : «لَا إِلَهَ إِلَّا

اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيْكَ.

فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ. ادْعُنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ!

وأخرجه البيهقيّ في «دلائل النبوّة» وهو الكتاب الذي قال فيه الذهبيّ: عليك به فكلّه هدى ونور؛ والطبرانيّ في «المعجم الصغير»؛ وأقرّ صحّته السبكيّ في «شفاء السقام» ص ١٢٠؛ والسمهوديّ في «وفاء الوفاء» ص ٤١٩؛ والقسطلانيّ في «المواهب اللدنيّة»؛ والزرقانيّ في شرحه، ج ١، ص ٤٤؛ والعزّاميّ في «فرقان القرآن» ص ١١٧.

كتبنا هذا المختصر لإيقاف القارئ على بطلان ما لابن تيميّة ومَن غزل غزله أمثال «القصيميّ» من جلبةٍ ولغطٍ حتّى يكون على بصيرةٍ من فضل النبيّ الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم.[1]

ونجد من المناسب أن نورد في هذا المجال عدّة أبيات من قصيدة البُردة[2] من إنشاء البوصيريّ، ومطلعها:

١ـ «الغدير» ج ٥، ص ٤٣٤ و٤٣٥.

٢ـ القصيدة مشهورة بالبردة، وقائلها محمّد بن سعيد المصريّ البوصيريّ. قال في سبب إنشائها:

كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، منها ما كان اقترحه عَلَيَّ الصاحب زيد الدين يعقوب بن الزبير، ثمّ اتّفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكّرت في عمل قصيدتي هذه البردة، فعملتها واستشفعت به إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكرّرت إنشادها، وبكيت، ودعوت، وتوسّلت ونمت، فرأيت النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، فمسح على وجعي بيده المباركة وألقى عَلَيَّ بُرداً، فانتبهت ووجدت فيَّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمت بذلك أحد، فلقيني بعض الفقراء؛ فقال لي: أُريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلّى الله عليه [وآله] ⇦

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

لتستمدّ الأرواحُ القوّة بذكر رسول الله :

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْنِ
وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ
أَبَرَّ فِي قَوْلٍ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمِ

هُوَ الحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ
لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ

⇐ وسلّم.

فقلت : أيّها ؟

فقال : التي أنشأتها في مرضك . وذَكَرَ أوّلها ؛ وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، فرأيت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يتمايل ، وأعجبته ، وألقى على مَن أنشدها بُردة .

فأعطيته إيّاها . وذكر الفقير ذلك . وشاع المنام إلى أن اتّصل بالصاحب بهاء الدين بن حنّا ، فبعث إليّ وأخذها ، وحلف أن لا يسمعها إلّا قائماً حافياً مكشوف الرأس ، وكان يحبّ سماعها هو وأهل بيته .

ثمّ إنّه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقيّ الموقع رمد أشرف منه على العمى ، فرأى في المنام قائلاً يقول له : اذهب إلى الصاحب وخذ البردة واجعلها على عينيك فتعافى بإذن الله عزّ وجلّ .

فأتى إلى الصاحب وذكر منامه ؛ فقال [الصاحب]: ما أعرف عندي من أثر النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم بردة . ثمّ فكّر ساعة وقال : لعلّ المراد قصيدة البردة التي للبوصيريّ ؛ يا ياقوت ! افتح الصندوق الذي فيه الآثار وأخرج القصيدة التي للبوصيريّ وأْتِ بها . فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه ، فعوفي . ومن ثمّ سمّيت البردة والله أعلم . («فوات الوفيّات» لمحمّد بن شاكر الدمشقيّ ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، طبعة مصر ، سنة ١٣٩٩ ق).

دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ
مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ
فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ
وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ
غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ جَدِّهِمُ
مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ
فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ
ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ
فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ
دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمُ
وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْتَكِمِ
فَانْسِبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ
وَانْسِبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ
حَدٌّ فَيُعْرِبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ
لَو نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَماً
أَحْيَى اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ
لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَى العُقُولُ بِهِ
حِرْصاً عَلَيْنَا وَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

أَعْمَى الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى
فِي القُرْبِ وَالبُعْدِ مِنْهُمْ غَيْرُ مُنْفَخِم
كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ
صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ
وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ
قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلُّوا عَنْهُ بِالحُلُمِ
فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ
وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ
وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلُ الكِرَامُ بِهَا
فَإِنَّهَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ
فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا
يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

المجلس الثاني والستون

أصناف الشفعاء في يوم القيامة



بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ.[1]

حان الوقت لنشرع ـ بحول الله وقوّته ـ في البحث في أصناف الشفعاء .

شفاعة النبيّ والأئمّة وفاطمة الزهراء سلام الله عليهم

من جملة الشفعاء يوم القيامة : النبيّ الأكرم والخمسة الطيّبة والأئمّة بالحقّ والصدّيقة الكبرى سلام الله عليهم أجمعين .

وقد جاء في الآيات القرآنيّة :

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (ذَكَراً كعيسى ، أو إناثاً كالملائكة) سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ

١ـ الآية ٢٣، من السورة ٣٤: سبأ.

خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ.[1]

لقد قالت النصارى بأنّ عيسى هو ابن الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقال مشركو الجاهليّة : الملائكة بنات الله . فجاءت الآية في إطلاقها لتعدّ صنفَي الأنبياء والملائكة عباداً لله مكرمين وقد أُعطوا ـ إجمالاً ـ مقام الشفاعة .

كما أنّ الآية : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ،[2] دالّة على شفاعة الأنبياء والأئمّة والمعصومين والملائكة ؛ ولهاتين الآيتين عموميّة في الدلالة ، وتشملان الملائكة والأنبياء والصدّيقين على نحو العموم .

الروايات الواردة في شفاعة الأئمّة والزهراء عليهم السلام

روى الصدوق في «الأمالي» عن محمّد بن إبراهيم بن إسحاق ، عن أحمد بن إسحاق ، عن أبي قلابة عبد الملك بن محمّد ، عن غانم بن الحسن السعديّ ، عن مسلم بن خالد بن مكّي ، عن الإمام جعفر بن محمّد ، عن أبيه عليهما السلام ، عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :

قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ لِرَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَتَاهُ ! أَيْنَ أَلْقَاكَ يَوْمَ المَوْقِفِ الأَعْظَمِ وَيَوْمَ الأَهْوَالِ وَيَوْمَ الفَزَعِ ؟!

قَالَ : يَا فَاطِمَةُ عِنْدَ بَابِ الجَنَّةِ وَمَعِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَأَنَا الشَّفِيعُ لِأُمَّتِي إلَى رَبِّي.

قَالَت : يَا أَبَتَاهُ ! فَإن لَمْ أَلْقَكَ هُنَاكَ ؟

١ـ الآيات ٢٦ إلى ٢٨ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ٨٦ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

قَالَ : الْقِينِي عَلَى الصِّرَاطِ وَأَنَا قَائِمٌ أَقُولُ: رَبِّ ! سَلِّمْ أُمَّتِي !
قَالَتْ : فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ هُنَاكَ ؟
قَالَ : الْقِينِي وَأَنَا عِنْدَ المِيزَانِ، أَقُولُ: رَبِّي سَلِّمْ أُمَّتِي.
قَالَتْ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ هُنَاكَ ؟
قَالَ: الْقِينِي عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ أَمْنَعُ شَرَرَهَا وَلَهَبَهَا عَنْ أُمَّتِي!
فَاسْتَبْشَرَتْ فَاطِمَةُ بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا وَعَلَى أَبِيهَا وَبَعْلِهَا وَبَنِيهَا.[1]

كما روى في «الأمالي» عن أحمد بن زياد بن جعفر الهمدانيّ ، عن عليّ بن إبراهيم ، عن جعفر بن سلمة الأهوازيّ ، عن إبراهيم بن محمّد الثقفيّ ، عن إبراهيم بن موسى ابن أُخت الواقديّ ، عن أبي قتادة الحرّانيّ ، عن عبد الرحمن بن علاء الحضرميّ ، عن سعيد بن المسيّب ، عن ابن عبّاس ، قال :

إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ جَالِساً ذَاتَ يَوْمٍ وَعِنْدَهُ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَأَكْرَمُ النَّاسِ عَلَيَّ، فَأَحْبِبْ مَنْ أَحَبَّهُمْ وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُمْ وَوَالِ مَنْ وَالاهُمْ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُمْ، وَأَعِنْ مَنْ أَعَانَهُمْ وَاجْعَلْهُمْ مُطَهَّرِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ، مَعْصُومِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَأَيِّدْهُمْ بِرُوحِ القُدُسِ مِنْكَ.

ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَا عَلِيُّ ! أَنْتَ إِمَامُ أُمَّتِي وَخَلِيفَتِي عَلَيْهَا بَعْدِي، وَأَنْتَ قَائِدُ المُؤْمِنِينَ إِلَى الجَنَّةِ. وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ابْنَتِي فَاطِمَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى نَجِيبٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ،

١ـ «الأمالي» للصدوق ، المجلس ٤٦ ، ص ١٦٦ ، الطبعة الحجريّة .

وَعَنْ يَسَارِهَا سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ، تَقُودُ مُؤْمِنَاتِ أُمَّتِي إلَى الجَنَّةِ. فَأَيَّمَا امْرَأَةٍ صَلَّتْ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، وَصَامَتْ شَهْرَ رَمَضَانَ وحَجَّتْ بَيْتَ اللهِ الحَرَامَ، وَزَكَّتْ مَالَهَا. وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، وَوَالَتْ عَلِيّاً بَعْدِي، دَخَلَتِ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ ابْنَتِي فَاطِمَةَ، وَإنَّهَا لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ.

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَهِيَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا؟! فَقَالَ: ذَاكَ لِمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ. فَأَمَّا ابْنَتِي فَاطِمَةُ فَهِيَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَإنَّهَا لَتَقُومُ فِي مِحْرَابِهَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، وَيُنَادُونَهَا بِمَا نَادَتْ بِهِ المَلَائِكَةُ مَرْيَمَ؛ فَيَقُولُونَ: يَا فَاطِمَةُ! إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إلَى عَلِيٍّ عَلَيهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ! إنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي! وَهِيَ نُورُ عَيْنِي وَثَمَرَةُ فُؤَادِي، يَسُوؤُنِي مَا سَاءَهَا، وَيَسُرُّنِي مَا سَرَّهَا، وَإنَّهَا أَوَّلُ مَنْ يَلْحَقُنِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَأَحْسِنْ إلَيْهَا بَعْدِي، وَأَمَّا الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ فَهُمَا ابْنَايَ وَرَيْحَانَتَايَ، وَهُمَا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَكْرُمَا عَلَيْكَ كَسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ.

ثُمَّ رَفَعَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: اللَهُمَّ إنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي مُحِبٌّ لِمَنْ أَحَبَّهُمْ وَمُبْغِضٌ لِمَنْ أَبْغَضَهُمْ وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ وَعَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمْ وَوَلِيٌّ لِمَنْ وَالَاهُمْ.[1]

توسّل الأنبياء بالخمسة الطيّبة

وقد وردت أخبار جمّة في أنّ الأنبياء مطلقاً والأصفياء منهم مثل آدم أبي البشر وداود وشعيب وأيّوب ولوط وإدريس، والأنبياء ذوي العزم

١ـ «الأمالي» للصدوق، الطبعة الحجريّة: المجلس الثالث والسبعون، ص ٢٩١ و٢٩٢؛ والطبعة الحروفيّة: ص ٣٩٣ و٣٩٤.

كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى كانوا يتوسّلون بخاتم النبيّين **محمّد بن عبد الله** وبأمير المؤمنين عليّ وبفاطمة وبالحسن والحسين ، ويستعينون بتلك الأرواح المنيرة في حلّ ما يعترضهم من مشكلات ، وفي نيل الغفران وارتقاء الدرجات .

وبالتأكيد فذلك نابع من علوّ مقام الخمسة الأطهار ونورانيّتهم المعنويّة والملكوتيّة ، بحيث وجد الأنبياء أنفسهم مجبرين على الاستمساك بهذه الآيات الإلهيّة في التجائهم وتضرّعهم إلى ساحة الحضرة الأحديّة . وإلّا فمقام الخمسة الطيّبة ليس مقاماً اعتباريّاً وأمراً تشريفيّاً ، إذ ليس لهذا النوع من الأمور الاعتباريّة سبيلاً إلى الحقائق .

ولقد جعلت تلك الأصالة والواقعيّة ، وتلك الطهارة المطلقة للذوات الخمس الطيّبة جميع السابقين واللاحقين خاضعين أمامها ، وألجأتهم ـ للوصول إلى أعتاب قُرب الباري تعالى شأنه العزيز ـ إلى عبور الحجاب الأقرب والتجلّي الأعظم ، واضطرتهم إلى الاستعانة بهذه المرايا المضيئة للوصول إلى ظهور النور الأحديّ في مرايا قلوبهم .

وببركة شفاعة الخمسة الطيّبة جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرسى سفينة نوح على **الجودي** بسلام ، وقَلَب العصا في يد موسى ثعباناً مبيناً ، ثمّ أعادها إلى حالتها الأُولى ، وكان طلوع أنوارهم هو الذي فتح باب التوحيد في وجه موسى من خلال نداء : «أنا الله» ،وجذبه إلى وادي المعرفة . وهو الذي أنجاه ـ والأسباط معه ـ من شرّ فرعون والأقباط ؛ وهو الذي شقّ الماءالعُباب أمامهم طريقاً يَبَساً ، وأغرق فرعون وجنوده .

ولقدكان نور الخسمة الطيّبة هو الذي منّ بالآيات والبيّنات على عيسى ابن مريم ، فصار يُحيي الموتى ويشفي الأعمى والأبرص . وبصورة عامّة فإنّ جميع الحالات المعنويّة في الخلوات الروحانيّة لجميع الأنبياء

والأولياء، إنّما كان تحقّقها من خلال شفاعتهم ووساطتهم.

وبلحاظ البرهان الفلسفيّ، فمن المحال أن يتمكّن أحد من اجتياز مسافة على هيئة طفرة، ومن المحال تحقّق عبور مراحل النفس وصولاً إلى طلوع نور التوحيد في السفر المعنويّ والملكوتيّ لسالكي طريق الحقيقة دون الاستعانة بهذه الآيات الإلهيّة، هذا مع علمنا وتسليمنا من أنّهم هم الحجاب الأقرب والاسم الأعظم والآية الكبرى ومقام الجمع وبين البين.

ولقد وردت روايات كثيرة في هذا الشأن وبمضامين مختلفة، كما وردت بيانات كثيرة على لسان الأنبياء خطاباً لأُممهم. وقد أوردنا في المجلس السابق شرحاً لكلام المسيح عيسى ابن مريم عن إنجيل برنابا في عظمة رسول الله وشفاعته. ونورد الآن شرحاً لدعاء النبيّ نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام وتوسّله بنورانيّة الخمسة الطيّبة استناداً إلى أخبار المكتشفات والأسناد التأريخيّة الحيّة، نقلاً عن مجلّة «مكتب اسلام» (= المدرسة الإسلاميّة). ونورد ـ رعاية للأمانة العلميّة في النقل ـ نصّ المطالب المدرجة في عدد المجلّة دونما زيادة أو نقصان،[1] من أجل توضيح المطلب لأصحاب النظر:

سند حيّ وتأريخيّ على حقّانيّة الدين الإسلاميّ ومذهب التشيّع تقرير شيّق لبعثة الآثار الروسيّة عن سفينة النبيّ نوح

نشرت مجلّة (اتفاد نيزوب) الرسميّة الشهريّة الواسعة الانتشار في الاتّحاد السوفياتيّ تقريراً يُعدّ عجيباً عند أهل التأريخ القديم والآثار،

١ـ المجلة باللغة الفارسيّة، وما نورده هو ترجمة لما نُشِرَ فيها. (م)

ودليلاً قويّاً عند المتديّنين على عظمة قرآننا وعقائدنا الدينيّة . وقد تُرجمت تلك المقالة بالتعاقب من قِبَل العديد من الكتّاب الإنجليز ، المصريّين و الباكستانيّين ... فنقلوا تلك المقالة من اللغة الروسيّة إلى الإنجليزيّة والعربيّة والأُوردو ، ونشروها في المجلّات والصحف المحلّيّة في بلدانهم .

ونورد خلاصة المقالة مع بيان أهمّيّتها العلميّة والدينيّة ، ونقدّمها إلى القرّاء الكرام .

كتبتْ المجلّة المذكورة في عددها الصادر في تشرين الثاني لسنة ١٩٥٣ ، تقول :

«كان خبراء الآثار الروس مشغولين بأعمار الحفريّات والتنقيب في المنقطة المعروفة بـ «وادي قاف» [1] حين واجهوا في أعماق الأرض عدّة لوحات خشبيّة سميكة متآكلة ، اتّضح فيما بعد أنّها كانت قطعاً من سفينة نوح قد دُفنت في أعماق الأرض قبل خمسة آلاف سنة تقريباً إثر التغييرات الأرضيّة والبحريّة . وقد لفتت هذه الألواح انظار باحثي الآثار

١ـ وفقاً لتصريح القرآن ، فإنّ سفينة نوح قد رست بعد الطوفان على جبل الجودي . ووفقاً لادّعاء صاحب «مراصد الاطّلاع» و«منجد العلوم» ، فإنّ هذا الجبل يقع على بعد أربعين كيلومتراً إلى الشمال الشرقيّ من جزيرة ابن عمر (وهي مدينة صغيرة في سوريا تشرف على نهر دجلة ، بُنيت سنة ٩٦١ على يد حسن بن عمر بن الخطّاب الثعلبيّ) .

وتبعاً لما نُقل من قبل البعض (ومن بينهم مؤلّف تفسير «الميزان») فإنّ سفينة نوح قد رست على جبل أرارات ، من جبال أرمينية ، ويقع بين إيران وتركستان الروسيّة الواقعة في ديار بكر من نواحي الموصل وهي نظرات تنسجم بأجمعها مع وادي قاف في موسكو ، وهو محلّ اكتشاف الألواح الخشبيّة . ومع أنّ هذه المنطقة تبعد عن تلك ، فبالإمكان أن تكون الألواح الخشبيّة قد انتقلت إلى ذلك الموضع إثر أمواج البحر والتغيّرات الحاصلة طوال عدّة آلاف من السنين ، واستقرّت في الخاتمة في أعماق الأرض .

القديمة ، ودفعتهم إلى مواصلة أعمال البحث والتنقيب طوال سنتين إضافيّتين ، حتّى عثروا في نهاية الأمر ، وفي نفس المنطقة ، على قطعة خشبيّة أُخرى تمثّل لوحة على الهيئة الموجودة في الصفحة اللاحقة ، وقد نُقش عليها عدّة سطور قديمة من أقدم الخطوط غير المعروفة .

بَيدَ أنّ ما يثير العجب ، هو أنّ هذا اللوح الخشبيّ قد بقي سالماً دونما تآكل ودون أن يتحجّر ، وهو الآن موجود في متحف موسكو معروض للسوّاح والمتفرّجين الذين يفدون من داخل البلاد وخارجها .

وقد شكّلت الإدارة العامّة للآثار القديمة في الاتّحاد السوفياتيّ إثر هذا الاكتشاف لجنة سباعيّة تضمّ أمهر خبراء الآثار واللغات والخطوط الروس والصينيين للتحقيق في هذا النموذج وقراءة تلك النقوش . وهم السادة :

١ ـ البروفيسور سولي نوف ، أُستاذ اللغات القديمة والأثريّة في كلّيّة موسكو .

٢ ـ إيفاهان خينو ، عالم وأُستاذ اللغات في كلّيّة لولوهان الصينيّة .

٣ ـ ميشانن لوفارنك ، المدير العامّ للآثار القديمة في الاتّحاد السوفياتيّ .

٤ ـ تانمول كورف ، أُستاذ اللغات في كلّيّة كيفزو .

٥ ـ البروفيسور دي راكن ، أُستاذ اللغات القديمة في أكاديميّة لينين للعلوم .

٦ ـ م . أحمد كولا ، مدير التحقيقات والاكتشافات العامّة في الاتّحاد السوفياتيّ .

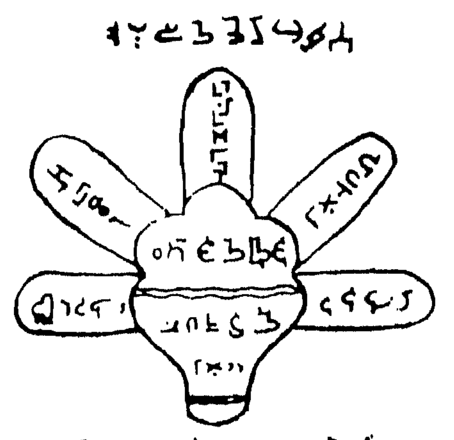
٧ ـ الميجر كولتوف ، رئيس كلّيّة ستالين .

وقد أعدّت هذه اللجنة بعد ثمانية أشهر من التحقيق والمطالعة

ومقارنة حروف اللوح المذكور مع نماذج من سائر الخطوط والكلمات القديمة ، تقريراً بالإجماع وقدّمته إلى دائرة الآثار القديمة في الاتّحاد السوفياتيّ ، جاء فيه :

١ ـ أنّ هذا اللوح المخطوط الخشبيّ هو من نفس جنس اللوحات الخشبيّة التي عُثر عليها في أعمال التنقيب السابقة ؛ وهي بأجمعها متعلّقة بسفينة نوح ؛ منتهى الأمر أنّ اللوح المذكور لم يتآكل كباقي الألواح ، وبقي سالماً ، الأمر الذي يجعل قراءة الخطوط المنقوشة عليه أمراً ممكناً .

٢ ـ تنتمي حروف وكلمات العبارات المنقوشة إلى اللغة السامانيّة أو الساميّة التي تعدّ أُمّ اللغات ، وتُنسب إلى سام بن نوح .



٣ـ أنّ معنى هذه الحروف والكلمات كما يلي :

يا إلهي ! ويا ناصري !

أعنيّ برحمتك وكرمك !

ولأجل هذه النفوس المقدّسة :

محمّد

إيليا (عليّ)

شَبَر (حَسَن)

شُبَيْر (حُسَيْن)

فاطمة

الأجلّاء الكرام بأجمعهم

العالم قائم ببركتهم .

أَعِنّي إكراماً لأسمائهم !

فأنتَ وحدك القادر على هدايتي إلى السبيل المستقيم .

ثمّ قام العالم الإنجليزيّ ن . ف . ماكس ، أُستاذ اللغات القديمة في جامعة مانجستر بنقل الترجمة الروسيّة لهذه الكلمات إلى اللغة الإنجليزيّة ، فنُشرت بنصّها في المجلّات والجرائد التالية :

١ ـ مجلّة «ويكلي ميبرر» الأُسبوعيّة في لندن ، العدد ٢٨ ،كانون الأوّل ١٩٥٣م .

٢ ـ مجلّة «اشتار» الإنجليزيّة في لندن ، عدد كانون الثاني ١٩٥٤م .

٣ ـ مجلة «سن لايت» في مانجستر ، عدد كانون الثاني ١٩٥٤ م .

٤ ـ جريدة «ويكلي ميبرر» العدد الأوّل ، شباط ١٩٥٤م .

٥ ـ جريدة «الهدى» القاهريّة ، مصر ، العدد ٣٠ ، مارس ١٩٥٣م .

ثمّ قام العالم والمحدّث الباكستانيّ الجليل الحكيم السيّد محمود

الجيلانيّ ـ وكان يشغل سابقاً مدير جريدة «أهل الحديث» الباكستانيّة ، وكان من أهل العامّة ، ثمّ انتمى بعد التحقيق إلى المذهب الشيعيّ ـ بترجمة ذلك التقرير إلى لغة الأوردو في كتاب باسم «إيليا مركز نجات أديان عالم» [١] (=إيليا (عليّ) مركز نجاة أديان العالم) . ثمّ نُقلت المقالة من لغة الأُوردو إلى العربيّة ونُشرت في مجلّة «بذرة النجف» في عددي شوّال وذي القعدة لسنة ١٣٨٥ ، السنة الأُولى ، ص ٧٨ إلى ٨١ ، تحت عنوان : «الأسماء المباركة التي توسّل بها النبيّ نوح» .

ويلزم هنا أن نلفت أنظار القرّاء الكرام إلى عدّة نكات موجزة ، ليزداد اعتقادهم بالقيمة العلميّة والتأريخيّة لهذا الاكتشاف الأثريّ :

١ ـ أنّ اكتشاف هذه القطع الخشبيّة واللوح يشكّل إحدى دلائل الأصالة والواقعيّة في قصص القرآن الكريم والأحاديث الدينيّة التي تحدّثت بالتفصيل عن قصّة سفينة نوح وماجرى لها ، الأمر الذي ذكره المؤرّخون المسلمون وغير المسلمين .

٢ ـ أن عقائد الشيعة في أهل البيت لا تنبع من الأهواء الشخصيّة لقادة الشيعة ومؤلّفيهم ، بل هي مبتنية على سلسلة حقائق علميّة ووقائع تأريخيّة لذا وجد الشيعة أنفسهم ـ معها ـ مجبرين على التسليم في التمسّك بتلك المعتقدات ، فاختاروا ـ في النتيجة ـ اتّباع أهل البيت .

ومن البديهي أنّ استعانة النبيّ نوح بأهل بيت الرسالة ، وكتابته أسماءهم على السفينة أمر قد حصل قبل عدّة آلاف من السنين قبل نزول القرآن وظهور الإسلام ، وقبل انقسام المسلمين إلى الفرق المختلفة

---

١ ـ طُبع كتاب «إيليا ...» في ٤٥ صفحة ، بعنوان المنشور رقم ٤٢ ، دار المعارف الإسلاميّة في باكستان ، سنة ١٣٨١ هـ (التعليقة) .

المتضادّة من شيعة وسنّة ، ولا يمكن تفسيره إلّا بكونه إشارة غيبيّة وإلهاماً من المبدأ الأعلى .

صحيح أنّ النبيّ نوح قد خطّ على اللوح الأسماء المقدّسة : محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، عليّ عليه السلام ، حسن عليه السلام ، حسين عليه السلام ، وفاطمة عليها السلام بعنوان دعاء ، واستجلاباً للبركة ، لكنْ ممّا يثير العجب هو هذا التنبّؤ من العصور الزمنيّة الغابرة المتمادية في القدم بشأن ظهور أهل بيت الوحي والرسالة الذين ظهروا فعلاً على مسرح الوجود بعد حدود خمسة آلاف سنة بعد الطوفان .[1]

ومن الأُمور الشيّقة أنّ العثور على مثل هذا الأثر التأريخيّ القديم قد حصل في بلد لا دينيّ ، وعلى يد أفراد غير مسلمين ، وفي محيطٍ قد تنكّر منذ نصف قرن للدين والاعتقاد بالمبدأ والمعاد والوحي والرسالة ، ونظر إلى العالم وحوادثه بمنظار مادّيّ محدود .

ولا يخفى أنّ ما حصل لهذا اللوح المحفوظ بلحاظ الأهمّيّة التي يحظى بها من قبل علماء الآثار المعاصرين ،كذلك يحظى بأهمّيّة دينيّة وعقائديّة لدى المسلمين عموماً ، والشيعة خصوصاً .

تنبيه : المطالب الواردة في هذه المقالة مترجمة ومقتبسة عن مجلّة «بذرة النجف» وكتاب «قبس من القرآن» لعبد اللطيف الخطيب البغداديّ المطبوع سنة ١٣٨٩ هـ في النجف ـ انتهى ما نقلناه من مجلّة «مكتب اسلام» العدد ١٤٢ .[2]

١ـ وهذه الفاصلة الزمنيّة محسوبة من زمن العثور على السفينة .

٢ـ مجلّة «درسهائى از مكتب اسلام» (= دروس من المدرسة الإسلاميّة) السنة الثانية عشر ، العدد العاشر ، التسلسل ١٤٢ ، رمضان ١٣٩١ هـ . ق . ⇦

شفاعة فاطمة الزهراء يوم القيامة

يروي فرات بن إبراهيم في تفسيره عن سهل بن أحمد الدينوريّ ، معنعناً عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام قال : قال جابر لأبي جعفر عليه السلام : جُعلت فداك يابن رسول الله ، حدّثني بحديث في فضل جدّتك فاطمة عليها السلام ، إذا أنا حدّثتُ به الشيعة فرحوا بذلك .

قال أبو جعفر : حدّثني أبي ، عن جدّي ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إذا كان يوم القيامة نُصِبَ للأنبياء والرسل منابر من نور ، فيكون منبري أعلى منابرهم يوم القيامة ، ثمّ يقول الله : **يَا مُحَمَّدُ ! اخْطُبْ**. فأخطب بخطبة لم يسمع أحد من الأنبياء والرسل بمثلها ؛ ثمّ يُنصَب للأوصياء منابر من نور وينصب لوصيي **عليّ بن أبي طالب** في أوساطهم منبر من نور ، فيكون منبره أعلى منابرهم . ثمّ يقول الله : يا عليّ ! اخطبْ ، فيخطب بخطبة لم يسمع أحد من الأوصياء بمثلها . ثمّ يُنصَب لأولاد الأنبياء والمرسلين منابر من نور ، فيكون لابنيَّ وسبطيَّ وريحانتيَّ أيّام حياتي منبر من نور ، ثمّ يقال لهما : اخطبا ، فيخطبان بخطبتين لم يسمع أحد من أولاد الأنبياء والمرسلين بمثلهما .

ثُمَّ يُنَادِي المُنَادِي ، وَهُوَ جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيْنَ فَاطِمَةُ بِنْتُ

⇦ وقد طبع مسجد الشفاء في طهران ما ورد في العدد المذكور في كرّاسة مستقلّة ووزّعها على عموم الإخوة بمناسبة عيد الفطر لسنة ١٣٩١ هـ. وكان الحقير قد سمع بالمطالب التي نشرتها مجلّة «مكتب اسلام» قبل أن تنشرها المجلّة بعدّة سنوات ، فقد نقل لي أحد الفضلاء الهنود ـ وكان من أصدقائي في النجف الأشرف ـ أنّ تلك المطالب قد نُشرت في الهند والباكستان. ونظراً لعدم توفّر تلك الوثائق لديّ ، فقد اكتفيتُ بالنقل من مجلّة «مكتب اسلام».

مُحَمَّدٍ ؟ أَيْنَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدْ ؟ أَيْنَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ؟ أَيْنَ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ ؟ أَيْنَ أُمُّ كُلْثُومَ أُمُّ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ؟ فيقمن ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : يا أهل الجمع لمن الكرم اليوم ؟ فيقول **مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ وفَاطِمَةُ: لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ**. فيقول الله جلّ جلاله : يا أهل الجمع ! إنّي قد جعلتُ الكرم لمحمّد وعليّ والحسن والحسين وفاطمة . يا أهل الجمع طأطؤوا الرؤوس وغضّوا الأبصار فإنّ هذه فاطمة تسير إلى الجنّة . فيأتيها جبرئيل بناقة من نوق الجنّة مدبّجة الجنبين ، خطامها من اللؤلؤ المحقّق المرطّب ، عليها رحل من المرجان ، فتُناخ بين يديها فتركبها ، فيبعث إليها مائة ألف ملك فيصيروا عن يمينها ، ويبعث إليها مائة ألف ملك يحملونها على أجنحتهم حتّى يصيّروها عند باب الجنّة ، فإذا صارت عند باب الجنّة تلتفت ؛ فيقول الله :

يا بنت حبيبي ! ما التفاتك وقد أمرتُ بك إلى جنّتي ؟ فتقول : يا ربّ ! أحببتُ أن يُعرف قدري في مثل هذا اليوم .

فيقول الله : يا بنت حبيبي ! ارجعي فانظري مَن كان في قلبه حبّ لك أو لأحد من ذرّيّتك خُذي بيده فأدخليه الجنّة .

قال أبو جعفر : واللهِ يا جابر ، إنّها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبّيها كما يلتقط الطير الحبّ الجيّد من الحبّ الرديء ، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنّة ، يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا . فإذا التفتوا يقول الله :

يا أحبّائي ! ما التفاتكم وقد شفعت فيكم فاطمة بنت حبيبي ؟ فيقولون : يا ربّ ! أحببنا أن يُعرف قدرنا في مثل هذا اليوم . فيقول الله : يا أحبّائي ! ارجعوا وانظروا مَن أحبّكم لحبّ فاطمة ، انظروا من أطعمكم لحبّ فاطمة ، انظروا من كساكم لحبّ فاطمة ، انظروا من سقاكم شربة في حبّ فاطمة ، انظروا من ردّ عنكم غيبة في حبّ فاطمة ، خذوا بيده وأدخلوه

الجنّة .

قال أبو جعفر : والله لا يبقى في الناس إلّا شاكّ أوكافر أو منافق ، فإذا صاروا بين الطبقات ، نادوا كما قال الله : **فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**،[1] فيقولون : **فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**.[2]

قال أبو جعفر : هيهات هيهات ! منعوا ما طلبوا (**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ**).[3]

وروى الصدوق في «علل الشرائع» عن ابن المتوكّل ، عن سعد ، عن ابن عيسى ، عن ابن سنان ، عن ابن مُسْكان ، عن محمّد بن مسلم الثقفيّ قال : سمعتُ أبا جعفر (الباقر) عليه السلام يقول : لفاطمة عليها السلام وَقفة على باب جهنّم ، فإذا كان يوم القيامة كُتب بين عيني كلّ رجل مؤمن أو كافر ، فيؤمَر بمحبٍّ قد كثرت ذنوبه إلى النار ، فتقرأ فاطمة بين عينيه محبّاً ، فتقول : **إلَهي وَسَيِّدي ! سَمَّيْتَنِي فَاطِمَةَ وَفَطَمْتَ بِي مَنْ تَوَلَّانِي وَتَوَلَّى ذُرِّيَّتِي مِنَ النَّارِ ! وَوَعْدُكَ الحَقُّ وَأَنْتَ لَا تُخلِفُ المِيعَادَ.**

فَيَقُولُ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ : صَدَقْتِ يَا فَاطِمَةُ إنِّي سَمَّيْتُكِ فَاطِمَةَ[4] **وَفَطَمْتُ بِكِ مَن أَحَبَّكِ وَتَوَلَّاكِ وَأَحَبَّ ذُرِّيَّتِكِ وَتَوَلَّاهُمْ مِنَ النَّارِ ؛**

١ـ الآيتان ١٠٠ و١٠١ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٢ـ الآية ١٠٢ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٣ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٦ : الأنعام . وجاء ذلك في «تفسير فرات بن إبراهيم» ص ١١٣ إلى ١١٥ ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٥١ و٥٢ .

٤ـ جاء في الرواية أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : إنّما سمّيت ابنتي فاطمة ، لأنّ الله عزّ وجلّ فطمها وفطم مَن أحبّها من النار . أو : لأنّها فُطمت هي وشيعتها من النار . أو : فَطَمت شيعتها من النار . «بحار الأنوار» ج ٤٣ ، ص ١٠ إلى ١٩ ، ب ٢ ، الطبعة الحروفيّة ؛ «علل الشرايع» ص ١٧٨ و١٧٩ ، ب ١٤٢ .

وَوَعْدِي الحَقُّ وَأَنَا لَا أُخْلِفُ المِيعَادَ . وإنّما أمرتُ بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأُشفّعك ، وليتبيّن لملائكتي وأنبيائيّ ورسلي وأهل الموقف موقفك منّي ومكانتك عندي ، فمن قرأتِ بين عينيه مؤمناً فخُذي بيده وأدخليه الجنّة .[١]

شفاعة الأئمّة المعصومين عليهم السلام يوم القيامة

في «دعوات الراونديّ» عن سماعة بن مهران ، قال :

قَالَ أَبُو الحَسَنِ عَلَيهِ السَّلَامُ : إذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ إلَى اللَهِ فَقُلْ : اللَهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ ، فَإنَّ لَهُمَا عِنْدَكَ شَأْناً مِنَ الشَّأْنِ ، وَقَدْراً مِنَ القَدْرِ ، فَبِحَقِّ ذَلِكَ الشَّأْنِ وَذَلِكَ القَدْرِ أَنْ تُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَفْعَلَ بِي كَذَا وَكَذَا .

فَإنَّهُ إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مُؤْمِنٌ مُمْتَحَنٌ إلَّا وَهُوَ يَحْتَاجُ إلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ .[٢]

وروى أحمد بن محمّد البرقيّ في «المحاسن» عن أبيه ، عن سعدان ابن مسلم ، عن معاوية بن وهب ، قال :

سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَهِ (الصَّادِق) عَلَيهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : «لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا» ، قَالَ : نَحْنُ ـ وَاللَهِ ـ المَأْذُونُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَالقَائِلُونَ صَوَاباً .

قُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ، وَمَا تَقُولُونَ إذَا تَكَلَّمْتُمْ ؟

قَالَ : نُمَجِّدُ رَبَّنَا ، وَنُصَلِّي عَلَى نَبِيِّنَا ، وَنَشْفَعُ لِشِيعَتِنَا ، فَلَا يَرُدُّنَا رَبُّنَا .[٣]

١ـ «علل الشرايع» ب ١٤٢ ، ص ١٧٩ ، طبعة النجف .

٢ـ «بحار الأنوار» الطبعة الحروفية ، ج ٨ ، ص ٥٩ ، عن دعوات الراونديّ .

٣ـ «المحاسن» للبرقيّ ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

وقد نقل مؤلّف «كنز جامع الفوائد» هذه الرواية بإسناده عن سعدان، كما روى نظيرها في المضمون عن الإمام الكاظم عليه السلام.[1]

وروى البرقيّ في «المحاسن» بنفس السند السابق، قال:

قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَهِ عَلَيهِ السَّلَامُ: قَوْلُهُ: «مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». (أي مَن هُم ؟).

قَالَ: نَحْنُ أُولَئِكَ الشَّافِعُونَ.[2]

وأورد العيّاشيّ هذه الرواية في تفسيره عن معاوية بن عمّار.[3]

وفي «مناقب ابن شهرآشوب» عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آية:

«وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ»؛[4] قَالَ وَلَايَةُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ.

وَيُقَالُ: «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ» قَالَ: شَفَاعَةُ النَّبِيِّ.

«وَٱلَّذِى جَاءَ بِٱلصِّدْقِ»:[5] شَفَاعَةُ عَلِيٍّ عَلَيهِ السَّلَامُ؛ «أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ»:[6] شَفَاعَةُ الأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.[7]

كما ورد في «المناقب» عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم [قال]:

١ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤١.

٢ـ «المحاسن» للبرقيّ، ج ١، ص ١٨٣.

٣ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ١، ص ١٣٦.

٤ـ مقطع من الآية ٢، من السورة ١٠: يونس.

٥ـ صدر الآية ٣٣، من السورة ٣٩: الزمر.

٦ـ مقطع من الآية ١٩، من السورة ٥٧: الحديد.

٧ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤٣؛ و«المناقب» ج ١، ص ٣٥٢، باب أنّه الساقي والشفيع، الطبعة الحجريّة.

إنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأُشَفَّعُ ؛ وَيَشْفَعُ عَلِيٌّ فَيُشَفَّعُ ؛ وَيَشْفَعُ أَهْلُ بَيْتِي فَيُشَفَّعُونَ.[1]

وقد نقش الصاحب بن عباد على خاتمه :

شَفِيعُ إسْمَاعِيلَ فِي الآخِرَةِ مُحَمَّدٌ وَالعِتْرَةُ الطَّاهِرَةُ[2]

ومن الأشعار الواردة في خطاب أهل البيت والثناء عليهم :

أَعْطَاكُمُ اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِهِ أَحَداً حَتَّى دُعِيتُمْ لِعِظْمِ الفَضْلِ أَرْبَابَا
أَشْبَاحُكُمْ كُنَّ فِي بَدْوِ الظِّلَالِ لَهُ دُونَ البَرِيَّةِ خُدَّاماً وَحُجَّابَا
وَأَنْتُمُ الكَلِمَاتُ اللاَّي لَقَّنَهَا جِبْرِيلُ آدَمَ عِنْدَ الذَّنْبِ إذْ تَابَا
وَأَنْتُمْ قِبْلَةُ الدِّينِ الَّتِي جُعِلَتْ لِلقَاصِدِينَ إلَى الرَّحْمَنِ مِحْرَابَا[3]

شفاعة الملائكة يوم القيامة

ومن جملة الشفعاء يوم القيامة : الملائكة ؛ قال تعالى :

وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ.[4]

وقال تعالى : يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا.[5]

وتدلّ هاتان الآيتان على شفاعة الملائكة والآية الثانية أعمّ دلالة من الملائكة والأنبياء والأولياء ، شأنها في ذلك شأن الآيتين اللتين أوردناهما

---

١ و٢ـ «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٣٥٢ ، الطبعة الحجريّة .

٣ـ «المناقب» ج ١ ، ص ٣٥٤ ، الطبعة الحجريّة .

٤ـ الآية ٢٦ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٥ـ الآيتان ١٠٩ و١١٠ ، من السورة ٢٠ : طه .

سابقاً للدلالة على شفاعة الأنبياء والأئمّة ، حيث كانت دلالتهما أعمّ من شفاعة الأنبياء والأئمّة والملائكة ؛ وهما :

١ ـ **وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ.**

٢ ـ **وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.**

وعليه ، فجميع هذه الآيات ، سواءً ما ورد منها على نحو الخصوص أم العموم تدلّ على شفاعة الملائكة أيضاً .

شفاعة الشهداء يوم القيامة

ومن جملة الشفعاء : الشهداء الذين يشهدون على الأعمال ، والذين كان لهم وقوف واطّلاع وهيمنة على أعمال الإنسان ، سواءً في مرحلة تحمّل الشهادة أم في مرحلة أدائها .

والشهادة هنا ليست بمعنى الاستشهاد في ساحة القتال . إذ أوردنا تفصيلاً في بحث الشهادة على الأعمال أنّه وفقاً لآية :

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.[1]

فمن يشهد بالحقّ ، ويمتلك علماً واطّلاعاً ملكوتياً على بواطن الأعمال ، سيكون يوم القيامة في طائفة الشفعاء .

وتبعاً للنفي والإثبات في عبارة : **إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ** ، فينبغي للشفعاء أن يكونوا من الشهداء . وكلّ ما هنالك أنّ بإمكان كلّ امرئ أن يشهد بقدر

---

١ ـ الآية ٨٦ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

سعة اطّلاعه الملكوتيّ على بواطن الأعمال ،كما بإمكانه أن يشفع لمن اطّلع على بواطن أعمالهم وحقائقها .

شفاعة المؤمنين يوم القيامة

ويُستنتج من هذا المطلب أنّ المؤمنين هم من الشفعاء ، لأنّ الله تعالى قد أخبر عن لحوقهم بالشهداء في يوم القيامة :

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .[1]

كما تُستنتج شفاعة المؤمنين من الآيات التالية أيضاً :

وَمَا أَضَلَّنَآ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .[2]

وهذا الكلام للضالّين أصحاب النار ، وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم ، حيث إنّهم سيدركون في ذلك الموقف هذا المعنى المتمثّل في وجود صديق حميم يمكنه إسداء النفع للبعض ، لأنّه يقول : **فَمَا لَنَا**. أي أنّه يدلّ ضمنيّاً على أنّ للآخرين أصدقاء .كما أنّ ذلك النفع وتلك الشفاعة موجودة للآخرين وغير موجودة بالنسبة لنا . فالشفاعة من قبل المؤمنين ـ إذاً ـ موجودة ، وينبغي أن تكون تلك الشفاعة للمؤمنين أيضاً .

روى الكلينيّ في «الكافي» بإسناده المتّصل عن عبد الحميد الوابشيّ ، عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام ، قال : قلتُ له : إنّ لنا جاراً ينتهك المحارم كلّها ، حتّى أنّه ليترك الصلاة فضلاً عن غيرها .

فقال : سبحان الله ، وأعظم ذلك . ألا أخبركم بمن هو شرٌّ منه ؟

١ـ الآية ١٩ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٢ـ الآيات ٩٩ إلى ١٠٢ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

قلتُ : بلى .

قال : الناصبُ لنا شرٌّ منه . أَمَا إنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يُذْكَرُ عِنْدَهُ أَهْلُ البَيْتِ فَيَرِقُّ لِذِكْرِنَا ، إلَّا مَسَحَتِ المَلَائِكَةُ ظَهْرَهُ وَغُفِرَ لَهُ ذُنُوبُهُ كُلُّهَا ، إلَّا أَنْ يَجِيءَ بِذَنْبٍ يُخْرِجُهُ مِنَ الإيمَانِ . وَإنَّ الشَّفَاعَةَ لَمَقْبُولَةٌ وَمَا تُقْبَلُ فِي نَاصِبٍ . وَإنَّ المُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ لِجَارِهِ وَمَا لَهُ حَسَنَةٌ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ! جَارِي كَانَ يَكُفُّ عَنِي الأَذَى ، فَيُشَفَّعُ فِيهِ . فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا رَبُّكَ وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ كَافَى عَنْكَ ؛ فَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ وَمَا لَهُ مِنْ حَسَنَةٍ ؛ وَإنَّ أَدْنَى المُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً لَيَشْفَعُ لِثَلَاثِينَ إنْسَاناً ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ : «فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» .[1]

وروى الصدوق في «الخصال» عن أبيه ، عن الحِميريّ ، عن هارون ، عن مسعدة بن صدقة ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إلَى اللَهِ عَزَّ وَجلَّ فَيُشَفَّعُونَ : الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ العُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ .[2]

كما روى في «الخصال» في حديث الأربعمائة عن أمير المؤمنين عليه السلام قَالَ : لَا تَعْنُونَا فِي الطَّلَبِ وَالشَّفَاعَةِ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا قَدَّمْتُمْ ؛ [وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ] : لَنَا شَفَاعَةٌ وَلِأَهْلِ مَوَدَّتِنَا شَفَاعَةٌ .[3]

وروى في «علل الشرايع» بسنده المتّصل عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

١ـ «روضة الكافي» ص ١٠١ .

٢ـ «الخصال» باب الثلاثة ، ص ١٥٦ ، طبعة حيدري .

٣ـ «الخصال» ص ٦١٤ و ٦٢٤ .

وَاللهِ شِيعَتُنَا مِنْ نُورِ اللهِ خُلِقُوا، وَإلَيْهِ يَعُودُونَ؛ وَاللهِ إنَّكُمْ لَمُلْحَقُونَ بِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإنَّا لَنَشْفَعُ فَنُشَفَّعُ! وَوَاللهِ إنَّكُمْ لَتَشْفَعُونَ فَتُشَفَّعُونَ! وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ إلَّا وَسَتُرْفَعُ لَهُ نَارٌ عَنْ شِمَالِهِ وَجَنَّةٌ عَنْ يَمِينِهِ، فَيُدْخِلُ أحِبَّاءَهُ الجَنَّةَ وَأعْدَاءَهُ النَّارَ.[1]

وروى المرحوم الصدوق في «ثواب الأعمال» عن أبيه، عن سعد، عن ابن عيسى، عن محمّد بن خالد، عن النضر، عن يحيى الحلبيّ، عن أبي المغرا، عن أبي بصير، عن عليّ الصائغ، قَالَ: قَالَ أبُو عَبْدِاللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ المُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ لِحَمِيمِهِ إلَّا أنْ يَكُونَ نَاصِباً؛ وَلَوْ أنَّ نَاصِباً شَفَعَ لَهُ كُلُّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ وَمَلَكٍ مُقَرَّبٍ مَا شُفِّعُوا.[2]

وروى البرقيّ في «المحاسن» عن ابن محبوب، عن أبان، عن أسد ابن إسماعيل، عن جابر بن يزيد قال:

قَالَ أبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا جَابِرُ! لَا تَسْتَعِنْ بِعَدُوِّنَا فِي حَاجَةٍ! وَلَا تَسْتَعْطِهِ! وَلَا تَسْألْهُ شَرْبَةَ مَاءٍ! إنَّهُ لَيَمُرُّ بِهِ المُؤْمِنُ فِي النَّارِ فَيَقُولُ: يَا مُؤْمِنُ ألَسْتُ فَعَلْتُ بِكَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَسْتَحْيِي مِنْهُ فَيَسْتَنْقِذُهُ مِنَ النَّارِ؛ فَإنَّمَا سُمِّيَ المُؤْمِنُ مُؤْمِناً لِأنَّهُ يُؤْمِنُ عَلَى اللهِ فَيُؤْمِنُ أمَانَهُ.[3]

وروى الصدوق في «علل الشرايع» عن أبيه، عن أحمد بن إدريس،

١ـ «علل الشرايع» ص ٩٤، باب العلّة التي من أجلها يغتمّ الإنسان ويحزن من غير سبب، ويفرح ويسرّ من غير سبب.

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤١؛ و«ثواب الأعمال وعقاب الأعمال» ص ٢٠٣، طبعة مصطفوي.

٣ـ «بحار الأنوار» في طبعة الكمبانيّ: ج ٣، ص ٣٠١، وفي الطبعة الحروفيّة: ج ٨، ص ٤٢: أمّا في «المحاسن» المطبوع: ج ١، ص ١٨٥، فقد ورد بلفظ «ولا تستطعمه» بدلاً من «ولا تستعطه».

عن حنان قال :

سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيهِ السَّلَامُ يَقُولُ: لَا تَسْأَلُوهُمْ فَتُكَلِّفُونَا قَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.[١]

وروى أيضاً بنفس السند ، قال :

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيهِ السَّلَامُ: لَا تَسْأَلُوهُمُ الحَوَائِجَ فَتَكُونُوا لَهُمُ الوَسِيلَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ.[٢]

وروى في كتاب «التمحيص» عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام ، قَالَ:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا تَسْتَخِفُّوا بِفُقَرَاءِ شِيعَةِ عَلِيٍّ وَعِتْرَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَشْفَعُ لِمِثْلِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ.[٣]

وروى الصدوق في كتاب «صفات الشيعة» عن عمّار الساباطيّ ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام **قَالَ: لِكُلِّ مُؤْمِنٍ خَمْسُ سَاعَاتٍ يَوْمَ القِيَامَةِ يَشْفَعُ فِيهَا.**[٤]

قال المرحوم الصدوق في «الاعتقادات» :

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ؛ وَالشَّفَاعَةُ لِلأَنْبِيَاءِ وَالأَوْصِيَاءِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمَلَائِكَةِ؛ وَفِي المُؤْمِنِينَ مَنْ يَشْفَعُ مِثْلَ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ؛ وَأَقَلُّ المُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً مَنْ يَشْفَعُ لِثَلَاثِينَ إِنْسَاناً. وَالشَّفَاعَةُ لَا تَكُونُ لِأَهْلِ الشَّكِّ وَالشِّرْكِ، وَلَا لِأَهْلِ الكُفْرِ وَالجُحُودِ، بَلْ يَكُونُ لِلمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ.[٥]

---

١ و٢ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٥، الطبعة الحروفيّة.

٣ و٤ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٩، الطبعة الحروفيّة.

٥ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٨، عن عقائد الصدوق ص ٨٥. وقد ورد في بعض ⇐

وأورد ابن شهرآشوب في «المناقب» عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا.[1]

قَالَ: ذَاكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيٌّ؛ يَقُومُ عَلَى كُوم قَدْ عَلَا عَلَى الخَلَائِقِ فَيَشْفَعُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا عَلِيُّ اشْفَعْ؛ فَيَشْفَعُ الرَّجُلُ فِي القَبِيلَةِ؛ وَيَشْفَعُ الرَّجُلُ لِأَهْلِ البَيْتِ؛ وَيَشْفَعُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ؛ فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ.[2]

وقال الشيخ الطبرسيّ في ذيل الآية «فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ»:[3]

وَعَنِ الحَسَنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْ رَبِّ! عَبْدُكَ فُلَانٌ سَقَانِي شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَشَفِّعْنِي فِيهِ! فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ! فَيَذْهَبُ فَيَتَجَسَّسُ فِي النَّارِ حَتَّى يُخْرِجَهُ مِنْهَا.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ سَيُدْخِلُ اللهُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُضَرَ.[4]

وقال الشيخ المفيد في «الاختصاص»:

رُوِيَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَا مِن أَهْلِ بَيْتٍ يَدْخُلُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَى الجَنَّةِ إِلَّا دَخَلُوا أَجْمَعِينَ الجَنَّةَ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَشْفَعُ فِيهِمْ فَيُشَفَّعُ، حَتَّى يَبْقَى الخَادِمُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! خُوَيْدِمَتِي قَدْ كَانَتْ تَقِينِي الحَرَّ وَالقَرَّ، فَيُشَفَّعُ

⇦ نسخ العقائد بلفظ «للمذنبين من أهل التوحيد» بدلاً من «للمؤمنين من أهل التوحيد».

١ـ الآية ٢٨، من السورة ٤٥: الجاثية.

٢ـ «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١، ص ٣٥٢، الطبعة الحجريّة.

٣ـ الآية ٤٨، من السورة ٧٤: المدّثّر.

٤ـ «مجمع البيان» ج ٥، ص ٣٩٢، طبعة صيدا.

فِيهَا.[1]

وروى العيّاشيّ في تفسيره قريباً من هذا المضمون بسنده عن أبان ابن تغلب، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام.[2]

شفاعة القرآن والرحم والأمانة يوم القيامة

عدّت بعض الروايات **القرآن والأمانة والرَّحِم** من الشفعاء في يوم القيامة. وقد روى الديلميّ في «الفردوس» عن أبي هريرة، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

الشُّفَعَاءُ خَمْسَةٌ: القُرآنُ وَالرَّحِمُ وَالأَمَانَةُ وَنَبِيُّكُمْ وَأَهْلُ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ.[3]

وقد تحدّثنا بالتفصيل عن شفاعة النبيّ وأهل بيته، وينبغي أن نرى الآن كيف أنّ الأُمور الثلاثة الأُخرى هي من زمرة الشفعاء.

أمّا في **القرآن**، فقد ورد:

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ.[4]

فيتّضح أنّ القرآن هو كتاب الرحمة، ومن يكون مع القرآن ويعمل به، فسيحظى برحمة الله تعالى.

ومن جهة أُخرى فقد جاء: **يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ**،[5] ويتبيّن منه أنّ من تصيبه رحمة الله،

١ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٦، عن «الاختصاص».

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٦١، عن «تفسير العيّاشيّ».

٣ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤٣، عن «تفسير العيّاشيّ».

٤ـ الآية ٨٩، من السورة ١٦: النحل.

٥ـ الآيتان ٤١ و٤٢، من السورة ٤٤: الدخان.

فسينال الشفاعة .

ومن ضمّ الآية الأُولى إلى الثانية يتبيّن أنّ القرآن يجسّد الرحمة وأنّه هو الشافع والمعين يوم القيامة للعاملين به .

وقد بحثنا بما يكفي خلال بحث الشهادة على الأعمال (في المجلس التاسع والأربعين ، الجزء السابع) في أمر شهادة القرآن ، وأوردنا رواية عن «الكافي» بسنده عن سعد الخفّاف ، عن الإمام الباقر عليه السلام تتضمّن مطالب صريحة وشيّقة بشأن شهادة القرآن وشفاعته ، ومن جملتها قوله :

ثُمَّ يَشْفَعُ فَيُشَفَّعُ ، وَيَسْأَلُ فَيُعْطَى ؛ وهي رواية حافلة بالمعاني التي يفيد كلّ منها مطالب أُخرى جديدة .

وما أفدنا به في بحث المعاد ، هو أنّ تلك الطائفة من المعاني المشتركة لفظيّاً مع المعاني الموجودة في الأفراد الأحياء ، كالأمر والنهي والنفع والشفاعة والشهادة وغيرها ، تتمثّل في عالم البرزخ في صور مثاليّة متناسبة معها ، كما تتجسّد في عالم الحشر والقيامة في حقائقها .

أمّا في شأن شفاعة **الأمانة** ، فقد جاء في القرآن الكريم :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.[١]

وكما هو ملاحظ من هذه الآيات ، فإنّ الهدف من عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، وقبول حملها من قبل الإنسان في نهاية المطاف ، هو تعذيب المنافقين والمشركين وقبول توبة المؤمنين . ومن

١ـ الآيتان ٧٢ و٧٣ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

الواضح أنّ توبة الله هي الشفاعة نفسها .

ومن هنا فإنّ «الأمانة» هي شفيع الإنسان . ومن الواضح أنّ المراد بالأمانة هنا هو الولاية التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وأشفقن منها ، حيث أُريد من الأمانة : الأمانة الخاصّة .

أمّا عن شفاعة **الرحم** في يوم القيامة ، فقد ورد في القرآن الكريم :

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ * إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ.[1]

وهي آيات تتحدّث عمّن يُعطَون كتابهم بشمالهم ، كناية عن جانب الشقاء ، حيث يتطرّق من خلال عدّة آيات إلى ذكر أحوالهم وتأسّفهم على ما فرط منهم . ثمّ يصل إلى هذه الآيات التي تخاطب ملائكة العذاب .

والحَميم عبارة عن الرَّحِم القريب ، كالأب والأُمّ والأخ وأمثالهم . ومن هنا يُفهم من هذه الآية أن ليس من حميم ولا رَحم قريب لغير المؤمن والمتعدّي على الحقوق ، ولا من معين يشفع له في فكّ أغلاله وسلاسله ؛ ولو كان مؤمناً وغير معتد ، لأغاثه الحميم وشفع له بكلّ تأكيد .

من جملة الشفعاء : الأعمال الصالحة

ومن جملة الشفعاء : العمل الصالح الذي يعين الفرد بذاته ويوجب غفران خطاياه وذنوبه :

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.[2]

١ـ الآيات ٣٠ إلى ٣٥، من السورة ٦٩: الحاقّة.

٢ـ الآية ٧٠، من السورة ٢٥: الفرقان.

ومن الواضح أنّ الشفاعة هي تبديل السيّئة حسنةً . وقد أوردنا في هذا البحث أنّ حقيقة الشفاعة تتمثّل في تبديل السيّئة حسنة بواسطة القُرب بين الشافع والمشفوع له . والرواية السابقة عن سعد الخفّاف في شفاعة القرآن تعطي معنى عامّاً في شفاعة الأعمال الحسنة الصالحة .

ونلحظ في هذا المجال في الأخبار والآثار قصصاً عجيبة في غفران الذنوب بواسطة عمل حسن ،كالرحمة بالأتباع والمرؤوسين ، والعفو عن المذنبين ، والعطف على الأيتام وذوي القلوب المنكسرة والمرضى ، وإطعام الجياع ، وسقي العطشى وغير ذلك ؛ أي تلك الأعمال التي يقوم بها المرء دون انتظار لجزاء أو أجر ، بل يقوم بها ممحّضةً خالصة للّه تعالى ، سواء كانت إحياءً لنفس أم دفعاً لظلم وحيف .

وهذه الأعمال النابعة عن صفاء الباطن ، والمستورة التي لا يطّلع عليها أحد ، والتي تقع في موضعها المناسب ، هي بمثابة الصاعقة التي تُحرق بيدر الذنوب ، وكالنور الإلهيّ الذي يخترق الحجب النفسانيّة في سرعة وتأثير ونفع لا حدّ لتصوّرها ، وخاصةً لسالكي طريق الله تعالى ، إذ كثيراً ما يحصل للمحجوبين الذين قضوا مدّة طويلة في الهجران ، أن ينالوا مقامات ودرجات من خلال نهوض في جوّ الشتاء القارس لتقديم قدح من الماء للأُمّ ، ومن خلال تمريضها عند المرض والابتلاء ، ومن خلال تحمّل أذاها وكلامها القارص .

وقد ورد في كتب الأخلاق مطالب ناجعة لرفع الانقباض ولحصول الانفتاح المعنويّ لدى السالك ، تتلخّص في عيادة المرضى ، وبخاصّةٍ الفقراء منهم والمنكسرة قلوبهم .

وأنشد الشيخ سعدي الشيرازيّ في هذا الشأن :

یکـی در بیابان سگـی تشنه یـافت
بـرون از رمـق در حـیاتش نـیافت
کُـلَه دَلْـو کـرد آن پسندیده کیش
چو حبل اندر آن بست دستار خویش
به خـدمت مـیان بست وبـازو گشـاد
سگِ نـــاتوان را دمـــی آب داد
خـــبر داد پـــیغمبر از حـال مَـرد
کــه داور گــناهان ازو عـفو کـرد
تو بـا خـلق نـیکی کـن ای نـیکبخت
که فـردا نگـیرد خـدا بـر تـو سـخت
چـو تـمکین وجـاهَت بـود بـر دوام
مکـن زور بـر ضـعف درویش عـام
نـصیحت شـنو مـردم دور بـین
نـپاشند در هـیچ دل تـخم کـین[1]

١ـ «كلّيّات سعدى» ص ٧٩، طبعة فروغى، «بوستان».

يقول: «صادف أحد الأشخاص كلباً في الصحراء قد أودى به العطش فلم يُبقِ له رمقاً.

فخلع ذلك الرجل ذو السيرة الحسنة قبّعته واتّخذ منها دلواً، ثمّ انتزع منديله فاتّخذه حبلاً ربط به الدلو.

ثمّ شمّر عن أكمامه وحسر عن ذراعيه، فنزع من البئر شيئاً من الماء سقى به الكلب العاجز.

فأخبر النبيّ عن حال ذلك الرجل، بأنّ الله قد قضى بغفران ذنوبه.

فأحْسِنْ إلى الخلق يا سعيد الحظّ، كي لا يشدّد الله في حسابك غداً.

ومادامت لك الوجاهة والهيمنة، فلا تظلمن درويشاً من العوام لضعفه وبؤسه.

وأصحاب النظر البعيد يستمعون إلى النصح، ولا يبذرون في أيّ قلب بذور ⇦

أمّا في بيان أنّ صَدَقَة السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وفي بيان صلة الرحم وآثارها ، سواء في ذلك الآثار الوضعيّة أم التشريعيّة ، فهناك مطالب تثير العجب ، بَيدَ أنّ تفصيلها يخرج بنا عن دائرة البحث .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

⇐ الضغينة».

ويُعدّ الشيخ مصلح الدين سعديّ الشيرازيّ من الأُدباء والشعراء النوادر، وهو أُستاذ في البلاغة والفصاحة ، وفي بيان المعاني العميقة في أقصر عبارة .

والشيخ رجل عميق الفكرة ، خبير و عالم اجتماعيّ ؛ أمّا قولهم فيه بأنّه خبير في علم الحكمة والفلسفة والعرفان ، فهو قول يفتقر إلى الدليل ، إذ لا تفوح من أشعاره رائحة للعرفان . نعم ، هو ماهر وخبير في تصنّع العرفان . ومن أكبر أخطائه أنّه صبّ مضامين الأخبار والروايات الواردة عن النبيّ الأكرم والأئمّة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين في قوالب أشعاره الجميلة ، ولم يُشِرْ ـ و لو بأدنى إشارة ـ إلى أنّ تلك اللطائف والدقائق من أهل بيت الوحي .

المجلس الثالث والستون

المشمولون بالشفاعة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ .[1]

نهدف في هذا البحث بحول الله وقوّته إلى التعرّف على النفوس التي تشملها الشفاعة والإجابة على التساؤلات التالية :

هل تشمل الشفاعة جميع أصحاب النار ، أم تختصّ ببعض المجرمين دون البعض الآخر ؟ وما هي الشرائط التي ينبغي تحقّقها فيهم ، لتؤثّر في قبول الشفاعة في حقّهم إثباتاً أو نفياً ؟ أي : ما هي المراحل التي ينبغي عليهم تخطّيها لتتحقّق في شأنهم شفاعة الشافعين ؟

ليس في الآيات والروايات من تصريح بحتميّة شمول الشفاعة لطائفة معيّنة ، ليكون ذلك مدعاة لجرأة البعض من ذوي الفهم الضئيل ، وتشجيعاً لهم على ارتكاب المعاصي ، لاعتمادهم على تلك الشفاعة .

ومن جهة أُخرى ، فإنّ الوعد بالشفاعة قد ورد مُجملاً ، من أجل أن لا يتسرّب اليأس من رحمة الحقّ تعالى إلى نفوس المذنبين ، فيظنّون أنّ

١ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

النار مثواهم لا محالة ، بسبب ذنوبهم . وقد ورد أنّ رحمة الحقّ الواسعة غياثٌ للمستغيثين ، وأنّ الارتباط بالله وبأولياء الدين باعث على الاتّصال بالمبدأ اتّصالاً لا انفكاك له ، ممّا يستدعي الفوز بالشفاعة والنجاة من العذاب .

وحالة الوقوف بين الخوف والرجاء ، تعبّر عن أساس دينيّ حيويّ مسلّم يدعو إلى الرشد والتكامل ، وهي حالة مشجّعة على نيل الدرجات والمقامات .

إذ لو تقرر أن يكون المرء في خوف دائم ، وقد أُغلقت في وجهه سبل الأمل في بلوغ الكمال والفوز بالدرجات ، لآل إلى الهلاك ، ولهدّه الضغط النفسيّ الشديد ، ولضاعت جميع الثروات الإلهيّة المودعة فيه ، ولفقد القدرة على التقدّم خطوةً واحدة نحو مرحلة الفعليّة والكمال النسبيّين .

كذا لو تقرر أن يعيش المرء في أمل ورجاء مستمرّين ، لأعاقه الغرور النفسانيّ عن تحمل متاعب الحركة صوب الكمال ، ولجعله يخلد الى الراحة والدعة ؛ ولجرّه التجرّي في الذنوب وهتك الحرمات الإلهيّة إلى مستنقع الفساد والسقوط ، ولضاعت فيه جميع الثروات الإلهيّة ، واختنقت في وجوده نطفة القابليّة للكمال منذ الوهلة الأُولى .

أمّا الحال التي طرحها الإسلام فهي حال بَيْن بَيْن التي هي بين الخوف والرجاء ، وبين الأمل في الشفاعة والخوف من العذاب ؛ فيعيش الإنسان حالتيّ الرجاء في الرحمة والخوف من السطوة والغضب ، وينتابه شعوران مقترنان كتوأمين ولدا من رَحِم واحد ، فصارا مترافقين في حديثهما وحركاتهما . وهذان الشعوران يبعثان الإنسان على الحركة ، ويقودانه قُدماً لإيصال قواه وقابليّاته إلى فعليّتها في مراحل الكمال .

وقد جرى التعامل مع الشفاعة على ضوء هذا الأساس العامّ ؛ أي أنّ الخطابات الشرعيّة قد وردت على نحو يعجز معه أيّ شخص على القطع بأنّه من المشمولين بالشفاعة ، أو بأنّ الشفاعة لن تناله .

أجل ، فقد وردت في الآيات والروايات إشارات عامّة تشير إلى أنّ شرط الشفاعة هو الإيمان بالله وبرسوله وبأوصياء رسول الله وأوليائه ، وأن لا شفاعة للكفّار والمشركين والمنافقين .

ونشرع الآن في البحث في دلالة الآيات القرآنيّة الكريمة ، ثمّ نعرّج على الروايات الواردة عن المعصومين .

تدلّ الآية التي تصدّرت البحث على أنّ الشفاعة مختصّة بمن يرتضيه الله تعالى . فما هو المراد من الارتضاء ؛ أهو ارتضاء في الذات والفطرة ، أو ارتضاء في العقيدة والدين ، أو في السيرة والعمل والسلوك ؟

الآيات القرآنيّة الواردة في الشفاعة

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ.[١]

تفيد هذه الآيات بأنّ جميع النفوس مرهونة بأعمالها ، وأنّ الذنوب والخطايا التي ترتكبها النفوس في الحياة الدنيا ستكبّل تلك النفوس وتقيّدها بقيود الأسر والمسكنة والذلّة ، وبأنّ أصحاب اليمين مستثنون من هذا الأسر والارتهان ، لأنّهم قد تحرّروا منه وفكّوا عنهم عواقب الأعمال السيّئة ، فاستقرّوا في جنان الخلد .

١ـ الآيات ٣٨ إلى ٤٨ ، من السورة ٧٤ : المدّثّر .

وتدل الآيات في الوقت نفسه على أن المجرمين الممتحنين في جهنّم ليسوا محجوبين ، بل لهم كلام ومحاورة مع أصحاب اليمين ، حيث يسألهم الأخيرون عمّا أدخلهم النار ، فيجيبون بأنّ صفاتهم سلكت بهم سبيل الجحيم . وأحبطت شفاعة الشافعين في حقّهم .

ويتضمّن مفاد هذا الحوار أنّ أصحاب اليمين (الذين لم يدخلوا النار) قد جُنّبوا النار لعدم اتّصافهم بتلك الصفات التي تحول دون تحقّق الشفاعة في حامليها .

وباعتبار أنّ الله تعالى قد حرّر نفوس أصحاب اليمين من رهن الذنوب والمعاصي ، وجنبّهم من أن يكونوا في عداد المجرمين الذين حُرموا من الشفاعة ممّن استقرّ بهم المطاف في نار جهنّم ، فيتّضح أنّ تحرّر أصحاب اليمين من ارتهان الذنوب وخلاصهم من أسرها قد حصل بواسطة الشفاعة ، فيُستنتج من ذلك أنّ أصحاب اليمين هم الذين تحقّقت الشفاعة في حقّهم .

ونحصل من خلال هذه الآيات بالدلالة الالتزاميّة ـ بمقابلة المجرمين الذين حُرموا من الشفاعة بسبب صفاتهم ـ على صفات أصحاب اليمين الأربع .

وبيان ذلك ، أنّ هذه الآيات قد وردت في سورة المدّثّر ، ويُستفاد من مضمون آيات السورة أنّها نزلت في مكّة أوائل بعثة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقبل أن يستقرّ تشريع الصلاة والزكاة على هذه الكيفيّة التي نعهدها اليوم . فكان المراد بالصلاة الواردة في هذه الآيات في قول المجرمين **لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ** هو مطلق التوجّه إلى الله تعالى ، والخضوع والخشوع في مقام العبوديّة أمام ساحته المقدّسة جلّ وعزّ ؛ والمراد بإطعام المسكين هو مطلق الإنفاق على الفقراء والمساكين في سبيل

الله تعالى . كما كان المراد من الخوض والانغمار في الأُمور الدنيويّة هو الخوض في ملاهي الدنيا وزخارفها والانشغال بزينتها التي تصرف الإنسان عن الآخرة وتلهيه عن التفكير بيوم الجزاء . أو أنّ المراد بالخوض هو التشدّد في الطعن في آيات الله تعالى ، تلك الآيات التي يؤدّي الالتفات إليها إلى تذكير الإنسان بيوم الجزاء ، وإلى تحريك الناس من خلال البشارة والإنذار ، والوعد والوعيد .

ومن الجليّ أنّ المراد من بالتكذيب بيوم الدين هو عدم الإقرار والاعتراف بالمعاد وعودة الإنسان إلى مكان الخلود الأبديّ والوقوف في موقف القيامة .

ومن الواضح أنّ الاتّصاف بهذه الصفات الأربع ، وهي ترك الصلاة وترك الإنفاق في سبيل الله ، والانغمار في الملاهي والمناهي ، أو التمادي في الطعن والتكذيب بآيات الله عزّ وجلّ ، والتكذيب بيوم الحساب والجزاء . ممّا يهدم أركان الدين ويقوّض أُسسه .

أمّا التحلّي بما يقابلها من صفات ، أي بإقامة الصلاة للّه تعالى ، والإنفاق في سبيله ، والاقتداء بأولياء الدين في الإعراض عن الأُمور الاعتباريّة وفي توجيه اهتمامهم إلى يوم لقاء الله تعالى ، فهي أُمور تقوم عليها أُصول الدين وترتكز عليها أُسسه ، لأنّ الدين هو عبارة عن الاقتداء بالهداة إلى طريق الله الذين يصرفون الإنسان عن فكرة خلود الحياة الدنيويّة ، ويُلفتون نظره إلى عالم الآخرة ويهدونه إلى لقاء الحقّ المعبود وزيارة المعبود بالحقّ . وهاتان الجهتان تمثّلان الصفتين اللتين وردتا في الآية الكريمة وهما صفتا ترك الخوض في الأُمور الدنيويّة والتصديق بيوم القيامة ؛ وهما ـ في النتيجة ـ صفتان تبعثان على الالتفات التامّ إلى الله المتعال من مقام عبوديّته ، والسعي في قضاء حوائج الناس الذين يمثّلون

مخلوقات الله المرتبطة به ؛ ويتجسّدان في إقامة الصلاة ، والانفاق في سبيل الله عزّ وجلّ .

اختصاص الشفاعة بالمؤمن المذنب

ومن هنا فإنّ قوام الدين وأساسه في جهتي العلم والعمل ، والعقيدة والسلوك ، مرتبطان بهذه الجهات الأربع ؛كما أنّ هذه الجهات تستلزم بقيّة أركان الدين ،كالتوحيد والنبوّة .

ولذا ، فأصحاب اليمين المنزّهين في دينهم وعقيدتهم هم الذين سيحظون بالشفاعة يوم القيامة . ولو تحلّى أصحاب اليمين ـ مضافاً إلى عقيدتهم ـ بأعمال صالحة وسيرة حسنة حميدة ، لاستغنوا يوم القيامة عن شفاعة الشافعين ؛ أمّا لو لم تكن أعمالهم مرضيّة من قِبل الحقّ تعالى ، فسيفتقرون لتلك الشفاعة ، لأنّها مختصّة بالمذنبين من أصحاب اليمين .

ونتساءل : أيّ صنف من المذنبين ستناله الشفاعة ؟ الإجابة : أنّهم من أصحاب الكبائر ، لا من أصحاب الصغائر ، لأنّ من يجتنب الكبائر فإنّ ذنوبه الصغيرة ستُكَفَّر وتُغفَر تلقائيّاً ، فلا يعود بحاجة إلى الشفاعة .

إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا .[1]

وكما قلنا ، فإنّ أصحاب الذنوب غير المغفورة الذين يحتاجون الشفاعة في يوم القيامة هم أصحاب الكبائر ، لأنّهم لوكانوا من أصحاب الصغائر ،لكان اجتنابهم الكبائر موجباً لغفران تلك الصغائر ومحوها .

تَرْكُ الكَبِيرَةِ مُكَفِّرٌ لِلصَّغِيرَةِ. ومن هنا يتبيّن جليّاً أنّ الشفاعة مختصّة بمرتكبي الكبائر من أصحاب اليمين ؛ وقد نقلت أحاديث الفريقين

١ـ الآية ٣١، من السورة ٤: النساء.

(الشيعة والعامّة) عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ، أنّه قال :

إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي ، فَأَمَّا المُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ .

وقد نقل أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ مُدّ ظلّه العالي عن تفسير «الدرّ المنثور» قوله : أخرج الحاكم وصحّحه ، والبيهقيّ في «البعث» عن جابر ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تلا قول الله : «**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ**» ، **فَقَالَ : إنَّ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي .**[1]

وبطبيعة الحال فإنّ المراد بالمحسنين هم مجتنبو الكبائر لا مجتنبو الصغائر ، وهذا الاستنتاج ناشئ من تقابل المحسنين مع أهل الكبائر في كلام الرسول الأكرم .

ومن جهة أُخرى ، وكما سلف البيان في بحث صحيفة الأعمال ، فإنّ المراد بأصحاب اليمين ـ وهم أصحاب الميمنة في قبال أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ـ هم الذين تصلهم صحائف أعمالهم من جهة اليمين ، كناية عن جانب السعادة وإمام الحقّ ؛ ولا يعني أنّ أصحاب اليمين يُعطون صحائفهم في أيمانهم ، إذ يقول تعالى : **أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِ** ، ولا يقول : **أوتي كتابه في يمينه** ، أو **إلى يمينه** . والباء هنا للسببيّة ، أي أنّ صحيفة العمل تصل إلى أصحاب اليمين بسبب اليمين ؛ والمراد به إمام الحقّ ، كما ورد في القرآن الكريم :

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا .[2]

---

١ ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٤ ، ص ٣٠٨.

٢ ـ الآية ٧١ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

وتفيد الآية بوضوح أنّ المراد باليمين هو الإمام بالحق ، نظراً لتفريع **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِ** على جملة **نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ** ؛ فيكون أصحاب اليمين هم أتباع إمام الحقّ ، وهذه المسألة هي نفس مسألة الولاية الواردة في الأخبار المتضافرة .

أمّا تسمية أصحاب اليمين بهذا الاسم ، فراجع إلى ارتضائهم في الدين ، وهو عائد إلى تواجد الصفات الأربع المذكورة فيهم .

الشفاعة مختصّة بأصحاب اليمين من المبتلين بالذنوب الكبيرة

وعليه ، فالشفاعة مختصّة بمرتكبي الكبائر من أهل الولاية وأتباع الإمام بالحقّ . ويمكننا الاستدلال على صفات وخصائص المشمولين بالشفاعة في يوم القيامة بموردين قرآنيّين آخرين :

المورد الأوّل ، آية : **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ**.[1]

حيث جاء الارتضاء ـ كما هو ملاحظ ـ بصيغة الإطلاق دون تقييد بسلوك معيّن . أي أن يكون المشمول بالشفاعة مورداً للارتضاء من قبل الحقّ تعالى في عقيدته ودينه، ولو كانت سيرته غير مرضيّة .

خلافاً للآية الكريمة الواردة في الشافعين : **يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا**،[2] التي نشاهد أنّها قد قيّدت ارتضاء الشافع ـ مضافاً إلى إذن الله تعالى ـ بارتضاء قوله من قِبل الله تعالى .

أمّا في الآية مورد البحث التي تتحدّث عن المشمولين بالشفاعة ، فليس فيها قيد أو شرط من ذلك . وندرك من خلال ذلك أنّ السلامة في

١ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ١٠٩ ، من السورة ٢٠ : طه .

القول والسلوك غير مشترطة في المشمولين بالشفاعة ؛ إذ لو كانوا صادقين في القول والعمل ، وكانت أفعالهم مرضيّة حميدة شأنها في ذلك شأن دينهم وعقيدتهم ، لما كان هناك حاجة لشفاعتهم ، لأنّهم سيدخلون الجنّة حينئذٍ بلا شفاعة ؛ ويشهد على ذلك قوله تعالى : **وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ؛[1] حيث نلاحظ في هذا المجال أيضاً أنّ الشكر (الذي هو الإيمان بقرينة مقابلته للكفر) قد وقع مورداً للارتضاء دون العمل والسلوك .

ولدينا ـ من جهة أُخرى ـ قوله تعالى : **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ** ؛[2] حيث إنّ هذا الفسق ، إن كان فسقاً في الدين والعقيدة ، أي التنكّب عن العقيدة المنزّهة والانحراف عن الدين الحقّ ، فإنّه لا ينافي بحثنا هذا ، لأنّ الفسّاق في العقيدة والمذهب غير مشمولين بالشفاعة .

أمّا لو كان المراد بهذا الفسق هو الفسق العمليّ ، أي ارتكاب الذنوب والكبائر ، فإنّه سيتبدّل من خلال الشفاعة إلى حسنات ، وسينتفي ذلك الفسق ويتلاشى ، لأنّ من ثمرات الشفاعة تبديلها السيّئات حسناتٍ ، وهو أمر يرتضيه الحقّ تعالى .

فتكون النتيجة أنّ الشفاعة إنّما تتحقّق فيمن يُرتضى دينه وعقيدته لكن سلوكه غير مرضيّ ؛ وهو قولنا بأنّ المراد بالمشمولين بالشفاعة هم مرتكبو الكبائر من أصحاب اليمين .

المورد الثاني : بضمّ مجموعة من الآيات إلى بعضها وصولاً إلى هذه الحقيقة .

١ـ الآية ٧، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ الآية ٩٦، من السورة ٩: التوبة.

فقد جاء في القرآن الكريم :

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا.[1]

فالشفاعة هنا ـ باعتبار وقوعها مصدراً مبنيّاً للمفعول ـ هي الشفاعة للمجرمين لا شفاعة المجرمين لغيرهم ، فينتج من ذلك أنّ مستحقّ الشفاعة من المجرمين هو من اتّخذ عند الرحمن عهداً . إذ ليس كلّ مجرم كافراً . فلا يمكن الجزم بدخول كلّ مجرم في النار ، بدليل الآية القرآنيّة الأخرى :

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ.[2]

المراد بالعهد : الإيمان بالله والإقرار بالولاية

ونحن نعلم أنّ المجرم إمّا الذي ليس له إيمان ولا عمل صالح ، مثلاً كأن لم يؤمن من قبل أبداً ، أم آمن ولم يعمل عملاً صالحاً . لذا فإنّ بعض المجرمين هم على الدين الحقّ ، إلّا أنّهم لم يعملوا عملاً صالحاً ، وهم الذين اتّخذوا عند الله عهداً ، وجرى استثناؤهم في آية : **لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا.**

أمّا عهد الله سبحانه ، فقد بيّنته الآية الكريمة : **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ؛**[3] حيث إنّ جملة : **أَنِ ٱعْبُدُونِى** عهد ، وهو الأمر . فيكون معناه : أطيعوا أمري .

١ـ الآيات ٨٥ إلى ٨٧، من السورة ١٩: مريم.

٢ـ الآيتان ٧٤ و٧٥، من السورة ٢٠: طه.

٣ـ الآيتان ٦٠ و٦١، من السورة ٣٦: يس.

وجملة : **هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ، عهد ، بمعنى الالتزام ، ويعني : التزموا بالصراط المستقيم ، صراط الهداية والسعادة والنجاة .

ومن هنا ، فإنّ ذنوب المجرمين الذين قبلوا بعهد الله تعالى ولم يعملوا عملاً صالحاً ستقودهم إلى جهنّم ؛ ولكونهم قد آمنوا بالله وقبلوا عهده فانّهم سيخرجون من جهنّم بواسطة الشفاعة .

ويشير قوله تعالى إلى عهد الله :

وَقَالُوا (والقول لليهود) **لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا**.[1]

أي أنّ الذين اتّخذوا عند الله عهداً سوف يخرجون من النار ولن يمكثون فيها إلّا قليلاً . وهذا هو مضمون ما ذكرنا من أن المشمولين بالشفاعة في يوم القيامة هم أصحاب الكبائر ممّن يدينون بدين الحقّ الذين ارتضى الله تعالى دينهم .

قال الشيخ الطبرسيّ في ذيل الآية **وَلَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا** : أي لا يقدرون على الشفاعة ، فلا يشفعون ولا يُشفع لهم حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض ، لأنّ ملك الشفاعة على وجهين : أحدهما أن يشفع للغير ، والآخر أن يستدعي الشفاعة من غيره لنفسه ؛ فبيّن سبحانه أنّ هؤلاء الكفّار لا تنفذ شفاعة غيرهم فيهم ، ولا شفاعة لهم لغيرهم .

ثمّ استثنى سبحانه فقال : **إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا** . أي لا يملكون الشفاعة إلّا هؤلاء . وقيل لا يُشفع إلّا لهؤلاء ؛ والعهد هو الإيمان والإقرار بواحدانيّة الله تعالى وتصديق أنبيائه ، وقيل هو شهادة أن لا إله إلّا

١ـ الآية ٨٠، من السورة ٢: البقرة.

الله وأن يتبرّأ إلى الله من الحول والقوّة ولا يرجو إلّا الله ، عن ابن عباس .

وقيل معناه لا يشفع إلّا من وعده الرحمن بإطلاق الشفاعة كالأنبياء والشهداء والعلماء والمؤمنين على ما ورد في الأخبار .

كيفيّة الوصيّة عند الاحتضار

وقال عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره : حدّثني أبي عن الحسن ابن محبوب ، عن سليمان بن جعفر ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :

مَنْ لَمْ يُحْسِنْ وَصِيَّتَهُ عِنْدَ المَوْتِ كَانَ نَقْصاً فِي مُرُوءَتِهِ ؛ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! وَكَيْفَ يُوصِي المَيِّتُ ؟! قَالَ : إذَا حَضَرَتْهُ وَفَاتُهُ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إلَيْهِ قَالَ : اللَهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ؛ إنِّي أَعْهَدُ إلَيْكَ فِي دَارِ الدُّنْيَا أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ ، وَأَنَّ البَعْثَ حَقٌّ وَالحِسَابَ حَقٌّ وَالقَدْرَ وَالمِيزَانَ حَقٌّ ، وَأَنَّ الدِّينَ كَمَا وَصَفْتَ ، وَأَنَّ الإسْلَامَ كَمَا شَرَعْتَ ، وَأَنَّ القَوْلَ كَمَا حَدَّثْتَ وَأَنَّ القُرْآنَ كَمَا أَنْزَلْتَ ، وَأَنَّكَ أَنْتَ اللَهُ الحَقُّ المُبِينُ ، جَزَى اللَهُ مُحَمَّداً عَنَّا خَيْرَ الجَزَاءِ ، وَحَيَّا اللَهُ مُحَمَّداً وَآلَهُ بِالسَّلَامِ .

اللَهُمَّ يَا عُدَّتِي عِنْدَ كُرْبَتِي ، وَيَا صَاحِبِي عِنْدَ شِدَّتِي ، وَيَا وَلِيَّ نِعْمَتِي ، وَإلَهِي وَإلَهَ آبَائِي لَا تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، فَإنَّكَ إنْ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي أَقْرَبْ مِنَ الشَّرِّ وَأَبْعَدْ مِنَ الخَيْرِ ، وَآنِسْ فِي القَبْرِ وَحْشَتِي ، وَاجْعَلْ لِي عَهْداً يَوْمَ أَلْقَاكَ مَنْشُوراً .

ثُمَّ يُوصِي بِحَاجَتِهِ ؛ وَتَصْدِيقُ هَذِهِ الوَصِيَّةِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ فِي قَوْلِهِ : «وَلَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا» .

فَهَذَا عَهْدُ المَيِّتِ. وَالوَصِيَّةُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ؛ وَحَقٌّ عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ هَذِهِ الوَصِيَّةَ وَيُعَلِّمَهَا.

وَقَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: عَلَّمَنِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: عَلَّمَنِيهَا جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ.[1]

المشمولون بالشفاعة هم مرضيّو الدين لا مرضيّو العمل

روى المرحوم الصدوق في «الأمالي» و«عيون أخبار الرضا» بسند واحد عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن إبراهيم بن هاشم، عن عليّ بن معبد، عن الحسين بن خالد، عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام،

١ـ «تفسير مجمع البيان» ج ٣، ص ٥٣١ طبعة صيدا. وقد ورد هذا العهد والوصيّة في «تفسير عليّ بن إبراهيم» ص ٤١٦ بنفس هذه الألفاظ، إلاّ أنّه أورد جملة **وَأَسَرُّ فِي الفِتَنِ وَحْدِي**، بدلاً من جملة **وَآنِسْ فِي القَبْرِ وَحْشَتِي**. كما رواه الحرّ العامليّ في كتاب «وسائل الشيعة» ج ٢، ص ٦٦١، طبعة أمير بهادر، كتاب الوصايا، عن محمّد بن يعقوب الكلينيّ، عن عليّ بن إبراهيم، عن علي بن إسحاق، عن الحسين بن حازم الكلبيّ ابن أُخت هشام بن سالم، عن سليمان بن جعفر، عن الإمام الصادق عليه السلام؛ وقال بعد خاتمة العهد: ورواه أيضاً الشيخ الطوسيّ بإسناده عن عليّ بن إبراهيم في تفسيره، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن سليمان بن جعفر، عن أبيه، عن الصادق عليه السلام. كما رواه الشيخ الطوسيّ في «المصباح» مرسلاً بزيادات في الدعاء؛ ثمّ قال: **قَالَ النَّبِيُّ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ: تَعَلَّمْهَا أَنْتَ وَعَلِّمْهَا أَهْلَ بَيْتِكَ وَشِيعَتَكَ!** ـ انتهى كلام صاحب «الوسائل».

ويقول هذا الحقير: ومن المناسب أن يقول بعد الشهادة بالرسالة في قوله: وأنّ محمّداً عبدك ورسولك:

وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ وَوَصِيُّ رَسُولِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَنَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَعَلِيَّ بْنَ الحُسَيْنِ وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَجَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ، وَعَلِيَّ بْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَعَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ وَالحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَالحُجَّةَ القَائِمَ المَهْدِيَّ أَئِمَّتِي، بِهِمْ أَتَوَلَّى وَمِنْ أَعْدَائِهِمْ أَتَبَرَّأُ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

عن أبيه ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِحَوْضِي فَلَا أَوْرَدَهُ اللَّهُ حَوْضِي ؛ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِشَفَاعَتِي فَلَا أَنَالَهُ اللَّهُ شَفَاعَتِي ؛ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي ، فَأَمَّا المُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِن سَبِيلٍ.

قَالَ الحُسَيْنُ بْنُ خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِلرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَابْنَ رَسُولِ اللهِ ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ» ؟!

قَالَ: لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ دِينَهُ.[1]

وروى علي بن إبراهيم عن جعفر بن محمّد ، عن عبد الله بن موسى ، عن الحسن بن عليّ ، عن أبي حمزة ، عن أبيه ، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام في تفسير قوله تعالى : **لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا.**

قَالَ: لَا يَشْفَعُ وَلَا يُشْفَعُ وَلَا يُشَفَّعُ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً إِلَّا مَن أُذِنَ لَهُ بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَالأَئِمَّةِ مِن بَعْدِهِ ، فَهُوَ العَهْدُ عِنْدَ اللهِ.

وروى الصدوق في «الأمالي» عن محمّد بن موسى بن المتوكّل ، عن محمّد بن يحيى العطّار ، عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب ، عن النضر بن شعيب ، عن خالد القلانسيّ ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام ، قال :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قُمْتُ المَقَامَ

١ـ «الأمالي» ص ٥؛ و«العيون» ص ٩١، الطبعة الحجريّة سنة ١٣٧٥ ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨، ص ٣٤، نقلاً عن هذين الكتابين.

المَحْمُودَ تَشَفَّعْتُ فِي أَصْحَابِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُشَفِّعُنِي اللَّهُ فِيهِمْ ؛ وَاللَّهِ لَا تَشَفَّعْتُ فِيمَنْ آذَى ذُرِّيَّتِي.[1]

الشيعة مشمولون بالشفاعة

وروى الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» عن الفحّام ، عن المنصوريّ ، عن عمّ أبيه ، عن أبي الحسن عليّ بن محمّد العسكريّ ، عن آبائه عليهم السلام ، **قَالَ : قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إذَا حُشِرَ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، نَادَانِي مُنَادٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إنَّ اللَّهَ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ أَمْكَنَكَ مِن مُجَازَاةِ مُحِبِّيكَ وَمُحِبِّي أَهْلِ بَيْتِكَ المُوَالِينَ لَهُمْ فِيكَ وَالمُعَادِينَ لَهُمْ فِيكَ ، فَكَافِهِمْ بِمَا شِئْتَ ! فَأَقُولُ : يَا رَبِّ الجَنَّةَ ! فَأُبَوِّأُهُمْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُ ، فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي وُعِدْتُ بِهِ.**[2]

كما روى الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» عن الحفّار ، عن إسماعيل بن عليّ الدعبليّ ، عن محمّد بن إبراهيم بن كثير ، قال : دخلنا على أبي نوّاس الحسن بن هانئ نعوده في مرضه الذي مات فيه ، فقال له عيسى بن موسى الهاشميّ :

يا أبا عليّ ! أنت في آخر يوم من أيّام الدنيا وأوّل يوم من أيّام الآخرة ، وبينك وبين الله هنات ، فتُبْ إلى الله (عزّ وجلّ) .

قال أبو نوّاس : أسندوني ! فلمّا استوى جالساً ، قال : إيّاي تخوّف بالله ، وقد حدّثني حمّاد بن سلمة ، عن ثابت البنانيّ ، عن أنس بن مالك ،

١ـ «أمالي الصدوق» المجلس التاسع والأربعون ، ص ١٧٧ .

٢ـ «أمالي الطوسيّ» ج ١ ، الجزء ١١ ، ص ٣٠٤ ، طبعة النجف ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٣٩ و٤٠ .

قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«لِكُلِّ نَبِيٍّ شَفَاعَةٌ ، وَأَنَا خَبَّأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ» ! أَفَتَرَى لَا أَكُونُ مِنْهُمْ ؟![1]

وروى مؤلّف «بشارة المصطفى» في كتابه ، بسلسلة سنده المتّصل عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام ، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال :

أَرْبَعَةٌ أَنَا لَهُمْ شَفِيعٌ يَوْمَ القِيَامَةِ : المُكْرِمُ لِذُرِّيَّتِي ؛ وَالقَاضِي لَهُمْ حَوَائِجُهُمْ ؛ وَالسَّاعِي فِي أُمُورِهِمْ عِنْدَمَا اضْطُرُّوا إلَيْهِ ؛ وَالمُحِبُّ لَهُمْ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ .[2]

وقال الصدوق في «الاعتقادات» :

اعْتِقَادُنَا فِي الشَّفَاعَةِ أَنَّهَا لِمَنِ ارْتُضِيَ دِينُهُ مِنْ أَهْلِ الكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ ؛ فَأَمَّا التَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ فَغَيْرُ مُحْتَاجِينَ إلَى الشَّفَاعَةِ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِشَفَاعَتِي فَلَا أَنَالَهُ اللَهُ شَفَاعَتِي .[3]

وروى الصدوق في كتاب «فضائل الشيعة» بسنده عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قال :

إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ نَشْفَعُ فِي المُذْنِبِ مِنْ شِيعَتِنَا ؛ فَأَمَّا المُحْسِنُونَ

١ـ «أمالي الشيخ الطوسيّ» ج ١ ، ص ٣٨٩ ، طبعة النجف .

٢ـ «بشارة المصطفى» ص ٣٦ ، طبعة النجف ؛ وأوردها أيضاً الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» ج ١٠ ، ص ٢٨٦ ، وج ١٣ ، ص ٣٧٦ ، بسنده عن الإمام الرضا ، عن آبائه عليهم السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

٣ـ «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٥٨ ، الطبعة الحروفيّة .

فَقَدْ نَجَّاهُمُ اللهُ.[1]

وروى فرات بن إبراهيم الكوفيّ في تفسيره مُعنعناً عن الإمام الصادق عن الإمام الباقر عليهما السلام، قال:

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا وَفِي شِيعَتِنَا: «فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يُفَضِّلُنَا وَيُفَضِّلُ شِيعَتَنَا، حَتَّى أَنَا لَنَشْفَعُ وَيَشْفَعُونَ؛ فَإذَا رَأَى ذَلِكَ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ قَالُوا: فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ.[2]

وروى محمّد بن يعقوب الكلينيّ عن عدّة من الأصحاب، عن سهلٍ، عن ابن سنان، عن سعدان، عن سماعة، قال:

كُنْتُ قَاعِداً مَعَ أَبِي الحَسَنِ الأَوَّلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالنَّاسُ فِي الطَّوَافِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ؛ فَقَالَ: يَا سَمَاعَةُ! إلَيْنَا إيَابُ هَذَا الخَلْقِ، وَعَلَيْنَا حِسَابُهُمْ؛ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَنْبٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَمْنَا عَلَى اللهِ فِي تَرْكِهِ لَنَا، فَأَجَابَنَا إلَى ذَلِكَ؛ وَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ اسْتَوْهَبْنَاهُ مِنْهُمْ وَأَجَابُوا إلَى ذَلِكَ، وَعَوَّضَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.[3]

وروى الصدوق في «علل الشرايع» بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ بَعَثَ اللهُ العَالِمَ وَالعَابِدَ؛ فَإذَا وَقَفْنَا بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قِيلَ لِلْعَابِدِ: انْطَلِقْ إلَى الجَنَّةِ؛ وَقِيلَ لِلْعَالِمِ: قِفْ تَشَفَّعْ لِلنَّاسِ بِحُسْنِ تَأْدِيبِكَ لَهُمْ.[4]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٩.

٢ـ «تفسير فرات» ص ١٠٨.

٣ـ «روضة الكافي» ص ١٦٢.

٤ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٦.

حساب الشيعة على أئمّتهم

روى صاحب «كنز جامع الفوائد» بإسناده المتّصل عن محمّد بن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام في تفسير الآية الشريفة: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ»؛ قَالَ:

إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَكَلَنَا اللَّهُ بِحِسَابِ شِيعَتِنَا؛ فَمَا كَانَ لِلَّهِ سَأَلْنَاهُ أَنْ يَهَبَهُ لَنَا فَهُوَ لَهُمْ؛ وَمَا كَانَ لِمُخَالِفِيهِمْ فَهُوَ لَهُمْ؛ وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لَهُمْ. ثُمَّ قَالَ: هُمْ مَعَنَا حَيْثُ كُنَّا.[1]

كما روى في «كنز جامع الفوائد» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سئل عن تفسير الآية الكريمة السالفة الذكر، فقال:

إِذَا حَشَرَ اللَّهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، أَجَّلَ اللَّهُ أَشْيَاعَنَا أَنْ يُنَاقِشَهُمْ فِي الحِسَابِ، فَنَقُولُ: إِلَهَنَا هَؤُلَاءِ شِيعَتُنَا! فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرَهُمْ إِلَيْكُمْ، وَقَدْ شَفَّعْتُكُمْ فِيهِمْ وَغَفَرْتُ لِمُسِيئِهِمْ؛ أَدْخِلُوهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.[2]

وروى في نفس الكتاب بإسناده المتّصل عن جميل، قال: قلتُ لأبي الحسن (موسى بن جعفر) عليه السلام: أُحدّثهم بتفسير جابر؟

قال: لا تحدّث به السفلة فيوبّخوه؛ أما تقرأ:

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ؟

قلتُ: بلى. قال: إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأوّلين والآخرين، ولّانا حساب شيعتنا، فما كان بينهم وبين الله حكمنا على الله فيه فأجاز حكومتنا؛ وما كان بينهم وبين الناس استوهبناه منهم فوهبوه لنا؛ وما كان

---

١ و ٢ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٠.

بيننا وبينهم فنحن أحقّ مَن عفا وصفح .[1]

وروى الصدوق نظير هذه الرواية في «عيون أخبار الرضا» بسنده المتّصل عن داود بن سليمان ، عن الإمام الرضا ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليهم السلام .[2]

وفي كتابَي الحسين بن سعيد ، بسنده عن ابن أبي عُمير ، عن عبد الرحمن بن الحجّاج ، عن الأحول ، عن حمران ، قال :

سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ (البَاقِرَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إنَّ الكُفَّارَ وَالمُشْرِكِينَ يَرَوْنَ أَهْلَ التَّوْحِيدِ فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا نَرَى تَوْحِيدَكُمْ أَغْنَى عَنْكُمْ شَيْئاً، وَمَا أَنْتُمْ وَنَحْنُ إلَّا سَوَاءٌ.

قَالَ: فَيَأْنَفُ لَهُمُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: اشْفَعُوا! فَيَشْفَعُونَ لِمَنْ شَاءَ اللَهُ؛ وَيَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ حَتَّى إذَا لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ تَبْلُغُهُ الشَّفَاعَةُ قَالَ اللَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ أُخْرُجُوا بِرَحْمَتِي! فَيَخْرُجُونَ كَمَا يَخْرُجُ الفَرَاشُ.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ثُمَّ مُدَّتِ العَمَدُ وَأُعْمِدَتْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ـ وَاللَهِ ـ الخُلُودُ.[3]

بحث تحليليّ في حقيقة الشفاعة

يستنتج من مجموع هذه الروايات المستفيضة ، بل المتواترة معنويّاً ، أنّ الجنّة هي مأوى أصحاب الفطرة السليمة والعقائد النزيهة ، وأنّ النار هي مثوى أصحاب السيرة السيّئة والعقائد الرديّة ؛ وأنّ فعل الحسنات واجتناب

---

١ ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٥٠.

٢ ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٤٠.

٣ ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٣٦١ و٣٦٢.

السيّئات أمر ضروريّ لحصول طهارة النفس ونزاهة القلب وصفاء النيّة والعقيدة . وبغير ذلك فإنّ الأعمال الحسنة لن تثمر شيئاً ما لم تمسّ القلب وتطهّر النفس ،كما أنّ الأعمال السيّئة لو صدرت من صاحب النفس الطيّبة الطاهرة بصورة متقطّعة غير متعاقبة ، لما أدّت إلى تعكير تلك النفس وتدنّسها ، حيث ستزول آثار تلك الذنوب بالتوبة أو بالشفاعة أو بالتعرّض للعقوبات الإلهيّة ، فتطلع حقيقة النفس الصافية من جديد .

إنّ أعمالنا الحسنة لن تغني الله شيئاً ، وإن أعمالنا السيّئة لن تضرّه شيئاً . وليست هذه الأوامر والنواهي والمحلّلات والمحرّمات بأجمعها إلّا مقدّمة لتزكية نفوسنا وتطهير أسرارنا :

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا [1]

فإذا حصلت تزكية النفس من خلال العبادة والعمل الصالح ، فقد تحقّقت النتيجة المتوخّاة ؛ وإن لم تحصل التزكية ،كان تكرار العبادة صورة جوفاء لا تؤدّي إلى ارتقاء النفس وصعود الروح إلى مدارج الكمال .

فما أقبح أن نجعل ميزان السعادة نفسَ العمل الصالح ، ونغفل عن الإيمان والعقيدة والنيّة والطهارة !

وكم هو ذميم أن نعدّ أدنى خطأ في العمل ميزاناً للقبح ، ومدعاة للعقاب ، ونغضّ طرفاً عن حسن العقيدة وطهارة النيّة وصفاء الضمير !

إنّ العقيدة حين تكون حسنةً ، والنفس طاهرةً ، فسوف تعجز الخطايا والذنوب في أن تترك آثاراً عميقة على الروح . وحين تكون العقيدة سيّئة ، والنفس خبيثة ، فإنّ الأعمال الصالحة والسلوك الحسن سوف لن يُخلّفا على الروح ذات الأعمال الكدرة إلّا آثاراً سطحيّة طفيفة . ذلك

١ـ الآيتان ٩ و١٠ ، من السورة ٩١: الشمس.

لأنّ الظاهر الحسن لن يحتلّ بهذا العنوان موقعاً ما في عالم الحقائق والواقعيّات ؛ وسرعان ما سيزول هذا الظاهر ، فتطلع النفس الخبيثة بصورة جهنميّة متّقدة ذات ألسنة رهيبة من اللهب .

وفي المقابل ، فالظاهر المذموم والسيرة القبيحة للبعض من ذوي النفوس الحسنة والعقائد الصالحة ، سوف لن تصمد أمام عالم ظهور الحقائق .

وسينهار كلّ ذلك ويتلاشى بأدنى سبب ،كشدّة الاحتضار والنزع ، أو بعذاب القبر ، أو بالشفاعة يوم القيامة ، فتطلع النفس الطيّبة الطاهرة في صورتها البشوشة الخاصّة بالجنّة ، مبشّرة بنسائمها اللطيفة بالأصالة والواقعيّة .

ليس هناك من كبير قلق من الذنب ، إذ قد وُعد بغفران الذنوب : **إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** ؛[1] بل الخوف ـ كلّ الخوف ـ من فساد الباطن ، ذلك الفساد الذي لا يُتسامَح بشأنه مطلقاً . وإنّما كانت المجاهدة من أجل تصفية الباطن ، لا من أجل إعادة طلاء جدار متهرّئ متهدّم .

إنّ العمل السيّئ الصادر من امرئ ذي باطن جميل ، وعقيدة وإيمان راسخينِ أشبه بالزبد الذي يعلو الماء الصافي إثر تلاطم أمواج الشهوة أو الغضب ، ثمّ لا يلبث أن يتلاشى : **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ**.[2]

أمّا ذلك الماء الصافي الطاهر فلا زوال له ولا اضمحلال ، وهو موجود على الدوام في تلألؤ وبريق ، يسقي الأرواح الظمأى الصادية .

١ـ الآية ٥٣، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ الآية ١٧، من السورة ١٣: الرعد.

وفي المقابل ، فالعمل الحسن الصادر من الشخص الرديّ ذي الفطرة الخبيثة والباطن السيّئ والإيمان الفاسد والوجدان المتزعزع أشبه بالرماد الأبيض البارد ذي اللون الجميل ، حين يعلو الجمر المتّقد إثر تموّج الهواء ، أمّا حقيقة النار فتبقى ناراً محرقة . وسرعان ما يتطاير الرماد بأيسر هبّة نسيم ، فتتجلّى تلك النار في حقيقتها المحرقة التي تشعل البيت وتهدم الملجأ والمأوى .

فهل على المرء أن يخاف من الزَّبَد الذي يعلو الماء ؟ وهل يُسَرُّ حقّاً بمثل هذا الرماد ؟ أبداً ... أبداً .

مثال لمأمورَين أحدهما حسن الطويّة والآخر حسن السلوك

افرضوا أنّ رجلاً كان له غلامان ، أحدهما كيّس فطن مطيع شغول ، يطيع مولاه وينفّذ تعليماته حرفيّاً ولا يتخطّاها أبداً ، فهو ينهض كلّ صباح فيكنس الدار ويرشّ فناءها بالماء ، ثمّ يزيل الغبار عن جدرانها ، ثمّ يرتدي ملابسه في أدب ويُنجز كلّ ما كُلّف به من أعمال في داخل البيت وخارجه . إلّا أنّ هذا الغلام في حقيقة الأمر لصّ خائن ، لأنّه يترصّد موت صاحب الدار أو سفره ، ليخونه في حريم منزله ، أو ليعتدي على أطفاله ويسرق أمواله ، أو لينصب نفسه مالكاً للدار ، ناوياً في قرارة نفسه تزوير إمضاء صاحب الدار وخاتمه ، والتظاهر بأنّه صاحب تلك الدار ومالكها .

أمّا الثاني فغلام يحبّ مولاه ويكنّ الودّ لحريمه وأطفاله ؛ وهو شخص أمين لا يفكّر في الخيانة حتّى في نومه . ولو لمح وجه مولاه ، لاغرورقت عيناه بالدموع مودّةً ؛ ولو أصاب قدم طفل مولاه شوكة ؛ لتعكّر صفو روحه . فهو يحبّ أطفال مولاه ، ويرجو أن يبقى ذلك المولى سالماً معافى ، وأن تبقى داره عامرة ؛ إلّا أنّه قد يضعف وقد يتكاسل فيبقى راقداً

دون أن يكنس الدار ، ودون أن يلقي سطل القمامة إلى الزبّال .

فأيّ الخادمينِ أجدر بالاحترام ؛ وأيّهما أعزّ مقاماً عند مولاه ؟ إنّ هذا المولى يعيش في قلق واضطراب من غلامه الأوّل ، لأنّه يخشى خيانته على الدوام نظراً لامتلاكه نفساً شريرة ، لكنّه في أمان من غلامه الثاني ، فهو يسافر ويغيب عن داره دون أن يتسرّب إلى نفسه القلق والاضطراب .

وبهذا يتّضح مفاد جميع هذه الروايات ، التي تشير إلى أنّ الإيمان الصحيح والعقيدة الراسخة ، والنيّة النزيهة ، وحبّ الدين وأوليائه هي معيار السعادة والتقرّب وقبول الأعمال ؛ وأنّ العقيدة الفاسدة والنيّة المدنّسة والإيمان المشوب المعكّر ، وفقدان الحبّ للدين وأولياء الدين هي معيار الشقاء وحبط الأعمال وضلالها .

أجل ، لو واجه شخص ما رسول الله وحاججه عن عدم إطاعته لأوامره باحترام من صميم قلبه وروحه ، فما الذي سيحصل عليه من صلاته وصيامه وزهده في الملبس ؟ إذ إنّ أمثال تلك الأمور لا تعدو أن تكون في حقيقتها إلّا لهواً ولعباً لا معنى لها.

ولو أطاع شخص ما رسول الله إطاعة محضة ، وأكنّ الاحترام له ولأهل بيته وخاصّته والمقرّبين إليه ، ونظر إليهم نظر إعزاز وإكرام ؛ فأيّ ضرر سيُوقعه به ذنب صغير لحقه من شهوة طارئة ، دون أن يكون في الأمر إنكار واستكبار وجحود ؟

بهذا ينفتح أمامنا باب من المعارف الإلهيّة الدينيّة ، فنلج في عالم جديد من العلم من خلال إدراك هذه الحقائق .

إنّ المحبّة تهب الروح نشاطاً وحياةً جديدة ، وتجعل عمل المحبوب للمحبّ خالصاً ، وتصهر روح الحبيب والمحبوب في بوتقة واحدة .

المحبّة تستدعي المعيّة ، وتستدعي في علم النفس ـ كما هو الشأن في

خاصيّة الأواني المستطرقة في علم الفيزياء ـ توحيد مستويات الأفكار والعلوم والعقائد والإيمان لدى الأفراد المختلفين .

ومن ثمّ فإنّ الشفاعة تختصّ بأهل المحبّة لا بأهل العداوة ، وتختصّ بالشيعة لا بالنواصب .[1]

الشفاعة تحرق بيدر المعاصي الكبيرة بومضة واحدة لانجذابٍ روحيّ مغناطيسيّ ؛ فأين ستكون المعصية حينذاك ؟

الشفاعة تبدّل السيّئات حسنات ؛ فأين ستكون أشواك الذنب والعصيان في هذا الواديّ ؟

أجل ، إنّ الشفاعة ؛ شأنها شأن العمل الصالح ؛ تبدّل الذنب إلى حسنة ، والعصيان إلى طاعة ، وتُحيل المجرم مطيعاً ممتثلاً : **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ**.[2]

وكما يسبّب العمل الصالح تقوية روح الإنسان ، وصعودَ الكلم الطيّب ، وارتقاء روح الإنسان الطاهرة إلى الله تعالى ، في قوله : **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ**؛[3] فإنّ الشفاعة أيضاً تسبّب ارتقاء الكلم الطيّب إلى الله تعالى . والكلم الطيّب هو إيمان المؤمن الذي ترفعه الشفاعة إلى الله سبحانه .

والشفاعة هي خليفة العمل الصالح ؛ فهي ـ إذاً ـ التي تُلحق المذنبين بالمحسنين . بَيدَ أنّها لا تلحق جميع المذنبين ، بل تُلحق منهم من آمن بأولياء الدين وارتبط بهم ، ومن تأصّرت روحه مع أرواح أولياء الدين

١ـ يقال لمن نصب العداوة لآل محمّد عليهم السلام وعاداهم وسبّهم «ناصبيٌّ» ؛ وجمعه نواصب .

٢ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٣ـ الآية ١٠ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

بأواصر الانجذاب المغناطيسيّ .

الإيمان بالله مِن الله تعالى ؛ وحاشا ما يكون من الله عزّ وجلّ أن يدخل جهنّم أو أن يحترق في أُتونها . والمؤمن كذلك لا يمكن أن يكون في جهنّم ، ولا أن يحترق في لظاها . وسيستحيل رجس الذنوب الذي يعتريه إثر الشفاعة إلى حسنات .

فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ.[1]

والشفاعة تسبّب لحوق مذنبي المؤمنين بصالحيهم ، وتسبّب تقوية روح المؤمن ذاته من خلال الإعانة الخارجيّة في رفع الموانع والعقبات ، كما تمثّل إزاحة الحجاب بين الحبيب والمحبّ ، ذلك الحجاب الذي قد وجد على إثر حصول أكدار صدأ الكثرة .

الشفاعة في حكم الدواء الذي يقوّي الطبيعة

لو أصاب بدن الإنسان مرض ـ مثلاً ـ فانحرف مزاجه بسببه ، كأن تكون قرحة شديدة ، فلو كان مزاجه معتدلاً قويّاً وطبيعة بدنه سليمة وأجهزة بدنه الرئيسيّة خالية من العيوب ، فإنّه سيستعيد عافيته تلقائيّاً وسيرتفع ذلك المرض عنه ، وتلتئم تلك القرحة من جديد .

وفي غير هذه الحالة فإنّ المريض سيحتاج إلى استعمال الدواء ، وإلى استخدام المضادّات الحيويّة لمكافحة ميكروبات المرض وإبطال تأثيرها ؛ فيكون الدواء في حكم المساعد للبدن في إعادة طبيعته إلى حالها الأوّل من الصحّة ، وفي تبديل الموادّ الفاسدة التي تراكمت في البدن إلى موادّ صالحة نافعة تلائم طبيعة ذلك البدن .

ومن هنا ، فالعامل المؤثّر في الصحّة هو طبيعة البدن ؛ وكلّ ما هنالك

١ـ الآية ٤٠ ، من السورة ٤٠ : غافر.

أنّ تلك الطبيعة قد تعتمد على نفسها أحياناً فيتماثل البدن للشفاء تلقائيّاً دون الاستعانة بعامل خارجيّ ؛ وقد تضعف أحياناً أُخرى فتحتاج إلى إعانة لدحر الأعداء والقضاء على الميكروبات وإعادة الصحّة إلى مسارها الأوّل .

ولو كانت طبيعة الروح والنفس الإنسانيّة بعد ارتكاب الذنب قويّة متماسكة ، لصار بإمكانها إزالة أثر ذلك الذنب من خلال التوبة والاستحياء من الذنب . أمّا لو لم تكن قويّة بالقدر الكافي ، فإنّها ستحتاج إلى الشفاعة ، ليمكن لتلك الطبيعة أن تعود بإعانة الشفاعة إلى حالتها الأُولى ، وتحتل مرتبتها بين صالحي المؤمنين .

ولذا نشاهد أنّ الله سبحانه يعدّ الشفاعة مؤثّرة في لحوق العاصين بالمطيعين وإلحاقهم بهم ، ويؤكّد في كلامه باستمرار على أنّ كلّ نفس تنتفع بما كسبت :

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ .[1]

ونراه يعدّ نفس اللحوق والإلحاق من مكتسبات الإنسان ، كما يعدّ وجود نفس المؤمن الطيّبة دخيلاً في نيل مكتسبات وأعمال الشخص الملحق بالمؤمن ، وفي ظهور أعمال المؤمن في ذلك الملحق ، وفي إحلال حسناته محلّ سيّئات الشخص الملحق .

والآية الكريمة التالية صريحة جدّاً في إلحاق الذرّيّة العاصية بالآباء المطيعين وفي لحوقهم بهم :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ .[2]

١ـ الآية ٢٨٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٢١ ، من السورة ٥٢ : الطور .

لحوق المؤمنين بأُصولهم

ومن الجليّ أنّ اللحوق والإلحاق لا ينحصران في أصل الإيمان ؛ على افتراض إيمان الذرّية أيضاً ؛ بل هو لحوق في الأعمال . أي أنّ حسنات الآباء تُعطى إلى ذرّيّتهم الملحقين بهم ، فيصار إلى إنزال الأبناء في مرتبة أُولئك الآباء . والشاهد على ذلك قوله : **وَمَا أَلَتْنَـٰهُم مِّن عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ**.

أي أنّنا لن نقلّل من عمل الآباء وحسناتهم شيئاً بعد الإلحاق ، ولن نقسّم حسناتهم بينهم وبين ذرّيتهم ، بل سنعطي نظير أعمال الآباء الصالحة إلى ذرّيّتهم وأبنائهم مع بقاء تلك الأعمال ثابتة للآباء وهذه هي حقيقة اللحوق والإلحاق .

ثمّ يقول : **كُلُّ آمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ؛ أي أنّ نفس هذا اللحوق والإلحاق يحصل إثر طهارة ذوات الذرّيّة وعقائدها المنزّهة وإيمانها ونواياها الخالصة الموجب لإلحاق الذرّيّة بعمل آبائهم وأجدادهم. وبما أنّ هذه العقائد والإيمان والخلوص والنوايا الطاهرة هي من مكتسبات الذرّيّة ، فإنّ محو سيّئاتهم ووضع حسنات الآباء محلّها ناجم من كسب تلك الذرّيّة ومرهون بذلك الكسب .

وبهذا يتّضح بجلاء أنّ الإيمان يسبّب اتّصال الأدنى بالأعلى ؛ وأنّ ذلك الإيمان سيزيل العقبات التي قد تعترض مسيرة التساوي في الدرجات والمقامات ، وصولاً إلى جعل الطرفين في مرتبة واحدة .

وهذا هو حاصل الشفاعة التي توجب لحوق المشفوع له بالشافع ، وتسبّب إصلاح السيّئات وتبديلها بالحسنات .

أوَ لا نرى أنّه تعالى يقول : **أُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ آللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ** ؟ فلو لم يكن هناك أصل محفوظ بين المُبْدل والمُبْدل منه ، فإنّ التبديل

سيفقد معناه حينئذٍ ، بل سيكون إعداماً للمُبدل وإيجاداً للمبدل منه ؛ وذلك الأصل المحفوظ هو الإيمان والعقيدة والولاية والمحبّة والارتباط .

فالشفاعة ـ إذاً ـ هي نوع من التصرّف الخاصّ في الأعمال ، بحيث يبدّل تلك الأعمال مع حفظ أصل ثابت في الحالينِ ، وهو أصل الإيمان والولاية .

ولدينا في مجال اللحوق والإلحاق شواهد كثيرة ، فقد خاطب الله تعالى في قرآنه الكريم بني إسرائيل ، ولامهم على أفعال آبائهم وأسلافهم ؛ كما في :

الآيات الواردة في لحوق الكافرين بأعمال أسلافهم

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً.[1]

و : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ.[2]

و : إِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ.[3]

وكثير من الآيات الأُخرى التي وردت بسبّب متابعة بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لآبائهم الذين عاشوا زمن موسى ، وبسبب تخلّقهم بنفس العقائد والأخلاق والسلوك ، فصاروا كأنّهم موجود متّصل واحد يمتدّ طرفاه بين ذلك الزمان وهذا الزمان ؛ وإذا نظرتم إلى مقاطعه المختلفة لرأيتم شيئاً واحداً .

سئل الإمام الرضا عليه السلام : لماذا يُلعن ذراري بني أُميّة الذين أخلفوا آباءهم ، ويُساقون إلى جهنّم ، مع أنّ بينهم وبين الجرائم التي

١ـ الآية ٥٥، من السورة ٢: البقرة .

٢ـ الآية ٦١، من السورة ٢: البقرة .

٣ـ الآية ٦٣، من السورة ٢: البقرة .

ارتكبها آباؤهم أمداً بعيداً ؛ فقال : **لأَنَّهُمْ رَضُوا بِفِعَالِ آبَائِهِمْ**.[1]

وأنتم ترون أنّ الحاكم لو ذهب إلى مدينة أو قرية قد ارتكب بعض أهليها جناية ما،والباقون قد رضوا بتلك الجناية ، فإنّه سيؤاخذ الجميع ، بل قد يعاقبهم جميعاً عليها ، مع أنّهم لم يرتكبوا ذلك العمل بأجمعهم ؛كأن تكون تلك الجريمة من فعل عصابة من اللصوص والجناة المتمرّدين الفارّين ؛ لأنّ أهل تلك المدينة سيُعدّون ـ برضاهم على تلك الجريمة وسرورهم بها ـ شركاء فيها ، لذا فعليهم تحمّل عقوبة ذلك الرضا .

رواية شريفة لإبراهيم الليثيّ في أُصول معارف الشيعة

ومن الأجدر ـ وقد جرى بنا الحديث إلى هذه الغاية ـ أن نورد رواية أبي إسحاق إبراهيم الليثيّ ومحاورته مع الإمام الباقر عليه السلام ، وقد سبق أن ذكرنا قدراً منها في بحثنا المفصّل في **إلحاق المؤمنين بأولياء الله وإلحاق المنكرين بأولياء الشيطان** ، المارّ ذكره في المجلس العاشر من

١ـ «عيون أخبار الرضا» الباب ٢٨ ، ص ١٧٨ ، الطبعة الحجريّة ؛ روى عن أحمد بن زياد بن جعفر الهمدانيّ ، عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم ، عن أبيه ، عن عبد السلام بن صالح الهرويّ ، قال :

قلتُ لأبي الحسن الرضا عليه السلام : يا بن رسول الله ! ما تقول في حديث روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين بفعال آبائها ؟!

فقال عليه السلام : هو كذلك .

فقلتُ : قول الله عزّ وجلّ : «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» ما معناه ؟!

قال : صدق الله في جميع أقواله ، ولكنّ ذراري قتلة الحسين يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها ، ومن رضي شيئاً كان كمن أتاه . ولو أنّ رجلاً قتل بالمشرق فرضي بقتله رجل بالمغرب ، لكان الراضي عند الله عزّ وجلّ شريك القاتل ؛ وإنّما يقتلهم القائم إذا خرج لرضاهم بفعال آبائهم .

الجزء الثاني من هذا الكتاب «معرفة المعاد» بَيدَ أنّ هذا الحديث الشريف لمّا كان معدوداً في أُسس علم الإيمان والمعارف الإلهيّة ، ولأنّ التدبّر فيه يفتح للمرء أبواباً من المعارف ، فإنّنا سنورده بأكمله في هذا المجال لتتطيّب الأرواح بنور معرفة أولياء الدين وولايتهم ، وتُقبر في المزبلة ظُلمة الأهواء والآراء الباطلة الشيطانيّة .

يروي المرحوم الشيخ الصدوق عن أبيه ، عن سعد بن عبد الله ، عن محمّد بن أحمد ، عن أحمد بن محمّد السيّاريّ ، عن محمّد بن عبد الله بن مهران الكوفيّ ، عن حنان بن سدير ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق : إبراهيم الليثيّ قال :

قلتُ لأبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام : يا بن رسول الله ! أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل ، هل يزني ؟

قال : اللهمّ لا .

قلتُ : فيلوط ؟

قال : اللهمّ لا .

قلتُ : فيسرق ؟

قال : لا .

قلتُ : فيشرب الخمر ؟

قال : لا .

قلتُ : فيأتي بكبيرة من هذه الكبائر أو فاحشة من هذه الفواحش ؟

قال : لا .

قلتُ : فيذنب ذنباً ؟

قال : نعم ، هو مؤمن مذنب ملم .

قلتُ : ما معنى ملم ؟

قال : الملم بالذنب لا يلزمه ولا يصرّ عليه .

قال : فقلت : سبحان الله ! ما أعجب هذا ، لا يزني ولا يلوط ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يأتي بكبيرة من الكبائر ولا فاحشة .

فقال : لا عجب من أمر الله ؛ إنّ الله تعالى يفعل ما يشاء ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون . فممّ عجبتَ يا إبراهيم ؟ سَلْ ولا تستنكف ولا تستحي ، فإنّ هذا العلم لا يتعلّمه مستكبر ولا مستحي .

قلت : يا بن رسول الله ! إنّي أجد من شيعتكم من يشرب الخمر ويقطع الطريق ويُخيف السبل ويزني ويلوط ويأكل الربا ويرتكب الفواحش ويتهاون بالصلاة والصيام والزكاة ويقطع الرحم ويأتي الكبائر ، فكيف هذا ولِمَ ذاك ؟

فقال : يا إبراهيم ! هل يختلج في صدرك شيء غير هذا ؟ قلت : نعم يا بن رسول الله ؛ أُخرى أعظم من ذلك .

فقال : وما هو يا أبا إسحاق ؟

قال : فقلتُ : يا بن رسول الله ! وأجد مِن أعدائكم ومناصبيكم مَن يكثر من الصلاة ومن الصيام ويخرج الزكاة ويتابع بين الحجّ والعمرة ويحرص على الجهاد ويؤثر على البرّ وعلى صلة الأرحام ، ويقضي حقوق إخوانه ويواسيهم من ماله ، ويتجنّب شرب الخمر والزنا واللواط وسائر الفواحش ، فممّ ذاك ؟ ولِمَ ذاك ؟ فسّره لي يابن رسول الله وبرهنه وبيّنه ، فقد ـ والله ـ كثر فكري وأسهر ليلي وضاق ذرعي .

قال : فتبسّم الباقر صلوات الله عليه ، ثمّ قال : يا إبراهيم ! خُذْ إليك بياناً شافياً فيما سألت ، وعِلماً مكنوناً من خزائن علم الله وسرّه . أخبرني يا إبراهيم كيف تجد اعتقادهما ؟

قلتُ : يابن رسول الله أجد محبّيكم وشيعتكم ـ على ما فيه ممّا وصفته من أفعالهم ـ لو أُعطي أحدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضّة أن يزول عن ولايتكم ومحبّتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبّتهم ما زال ، ولو ضُرِبَتْ خياشيمه بالسيوف فيكم ولو قُتل فيكم ما ارتدع ولا رجع عن محبّتكم وولايتكم ؛ وأرى الناصب على ما هو عليه ممّا وصفته من أفعالهم ، لو أُعطي أحدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضّة أن يزول عن محبّة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم ما فعل ولا زال ، ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم ولو قُتل فيهم ما ارتدع ولا رجع ، وإذا سمع أحدهم منقبة لكم وفضلاً اشمأزّ من ذلك وتغيّر لونه ورُئي كراهية ذلك في وجهه بغضاً لكم ومحبّة لهم .

قال : فتبسّم الباقر عليه السلام ، ثمّ قال : يا إبراهيم ! ها هنا هلكت العاملة الناصبة ، **تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ** .[1]

ومن أجل ذلك قال تعالى : **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** .[2]

ويحك يا إبراهيم ! أتدري ما السبب والقصّة في ذلك ، وما الذي قد خفي على الناس منه ؟

قلتُ : يابن رسول الله ! فبيّنه لي واشرحه وبرهنه !

قال : يا إبراهيم ! إنّ الله تبارك وتعالى لم يزل عالماً قديماً خلق الأشياء لا من شيء ، ومن زعم أنّ الله تعالى خلق الأشياء من شيء فقد كفر ، لأنّه لو كان ذلك الشيء الذي خلق منه الأشياء قديماً معه في أزليّته

١ـ الآيتان ٤ و٥ ، من السورة ٨٨ : الغاشية .
٢ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

وهويّته كان ذلك الشيء أزليّاً ، بل خلق الله تعالى الأشياء كلّها لا من شيء ، فكان ممّا خلق الله تعالى أرضاً طيّبة ، ثمّ فجّر منها ماء عذباً زلالاً ، فعرض عليها ولايتنا أهل البيت ، فقبلتها ، فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيّام طبقها وعمّها ، ثمّ أنضب ذلك الماء عنها ، فأخذ من صفوة ذلك الطين طيناً فجعله طين الأئمّة عليهم السلام ، ثمّ أخذ ثفل [1] ذلك الطين ، فخلق منه شيعتنا ، ولو ترك طينتكم يا إبراهيم على حاله كما ترك طينتنا ، لكنتم ونحن شيئاً واحداً .

قلت : يا بن رسول الله ! فما فعل بطينتنا ؟

قال : أخبرك يا إبراهيم ؛ خلق الله تعالى بعد ذلك أرضاً خبيثة منتنة ، ثمّ فجّر منها ماء أُجاجاً آسناً مالحاً ، فعرض عليها ولايتنا أهل البيت فلم تقبلها ، فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيّام حتّى طبقها وعمّها ، ثمّ نضب ذلك الماء عنها ، ثمّ أخذ من ذلك الطين فخلق منه الطغاة وأئمّتهم ، ثمّ مزجه بثفل طينتكم ؛ ولو ترك طينتهم على حالها ولم يمزج بطينتكم ، لم يشهدوا الشهادتين ولا صلّوا ولا صاموا ولا زكّوا ولا حجّوا ولا أدّوا الأمانة ولا أشبهوكم في الصور ، وليس شيء أكبر على المؤمن من أن يرى صورة عدوّه مثل صورته .

قلت : يا بن رسول الله ! فما صنع بالطينتين ؟

قال : مزج بينهما بالماء الأوّل والماء الثاني ، ثمّ عركها عرك الأديم ، ثمّ أخذ من ذلك قبضة ، فقال : هذه إلى الجنّة ولا أُبالي . وأخذ قبضة أُخرى وقال : هذه إلى النار ولا أُبالي . ثمّ خلط بينهما ، فوقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته ، ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ

١ـ الثفل : ما سَفَل من كلّ شيء .

المؤمن وطينته . فما رأيتَه من شيعتنا من زنا أو لواط أو ترك صلاة أو صوم أو حجّ أو جهاد أو خيانة أو كبيرة من هذه الكبائر ، فهو من طينة الناصب وعنصره الذي قد مُزج فيه ، لأنّ من سنخ الناصب وعنصره وطينته اكتساب المآثم والفواحش والكبائر . وما رأيت من الناصب من مواظبته على الصلاة والصيام والزكاة والحجّ والجهاد وأبواب البرّ فهو من طينة المؤمن وسنخه الذي قد مُزج فيه ، لأنّ من سنخ المؤمن وعنصره وطينته اكتساب الحسنات واستعمال الخير واجتناب المآثم . فإذا عُرضتْ هذه الأعمال كلّها على الله تعالى قال : أنا عدلٌ لا أجور ، ومنصفٌ لا أظلم ، وحَكَم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط ، ألحقوا الأعمال السيّئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته ، وألحقوا الأعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته ، ردّوها كلّها إلى أصلها ؛ **فَإنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا عَالِمُ السِرِّ وَأَخْفَى ، وَأَنَا المُطَّلِعُ عَلَى قُلُوبِ عِبَادِي لَاأَحِيفُ وَلَا أَظْلِمُ وَلَا أُلْزِمُ أَحَداً إلَّا مَا عَرِفْتُهُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ أَخْلُقَهُ**.

ثمّ قال الباقر عليه السلام : اقرأ يا إبراهيم هذه الآية !

قلتُ : يابن رسول الله ؛ أيّة آية ؟

قال : قوله تعالى : **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ**.[١] هو في الظاهر ما تفهمونه ، هو ـ والله ـ في الباطن هذا بعينه .

يا إبراهيم ! إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وناسخاً ومنسوخاً .

ثمّ قال : أخبرني يا إبراهيم عن الشمس إذا طلعت وبدا شعاعها في

١ ـ الآية ٧٩ ، من السورة ١٢ : يوسف .

البلدان ، أهو باين من القرص ؟

قلتُ : في حال طلوعه باين .

قال : أليس إذا غابت الشمس اتّصل ذلك الشعاع بالقرص حتّى يعود إليه ؟ قلتُ : نعم .

قال : كذلك يعود كلّ شيء إلى سنخه وجوهره وأصله ، فإذا كان يوم القيامة نزع الله تعالى سنخ الناصب وطينته مع أثقاله وأوزاره من المؤمن ، فيلحقها كلّها بالناصب ؛ وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب برّه واجتهاده من الناصب فيلحقها كلّها بالمؤمن . أفترى هاهنا ظلماً أو عدواناً ؟

قلت : لا يابن رسول الله .

قال : هذا ـ واللهِ ـ القضاء الفاصل والحكم القاطع والعدل البيّن ، لا يُسئل عمّا يفعل وهم يُسألون . يا إبراهيم : **ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** ،[1] هذا من حكم الملكوت .

قلتُ : يا بن رسول الله ! وماحكم الملكوت ؟

قال : حكم الله حكم أنبيائه ، وقصّة الخضر وموسى عليهما السلام حين استصحبه ، فقال : **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا**.[2]

افهمْ يا إبراهيم واعقلْ ؛ أنكر موسى على الخضر واستفظع أفعاله ، حتّى قال له الخضر : يا موسى ! **مَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى** ؛[3] إنّما فعلتُه عن أمر الله

١ـ الآية ٦٠، من السورة ٣٠ : آل عمران .

٢ـ الآيتان ٦٨ و٦٩، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ـ مقطع من الآية ٨٢، من السورة ١٨ : الكهف .

تعالى . من هذا ـ ويحك يا إبراهيم ـ قرآن يُتلى وأخبار تؤثر عن الله تعالى ، مَن ردّ منها حرفاً فقد كفر وأشرك وردّ على الله تعالى .

قال الليثيّ : فكأنّي لم أعقل الآيات وأنا أقرأها أربعين سنة إلّا ذلك اليوم ، فقلتُ : يا بن رسول الله ! ما أعجب هذا ! تؤخذ حسنات أعدائكم فتُردّ على شيعتكم ، وتؤخذ سيّئات محبّيكم فتردّ على مبغضيكم ؟!

قال : إي والله الذي لا إله إلّا هو فالق الحبّة وبارئ النسمة وفاطر الأرض والسماء ، ما أخبرتك إلّا بالحقّ ، وما أنبأتُك إلّا الصدق **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ**؛[1] **وَمَا اللَّهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**،[2] وإنّ ما أخبرتُك لموجود في القرآن كلّه .

قلتُ : هذا بعينه يوجد في القرآن ؟

قال : نعم ، يوجد في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن ؛ أتحبّ أن أقرأ ذلك عليك ؟

قلتُ : بلى يا بن رسول الله .

فقال : قال الله تعالى :

استدلال الإمام الباقر في اللحوق والإلحاق بآيات القرآن

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ

---

١ ـ الآية ١١٧ ، من السورة ٣ : آل عمران ؛ والآية ٣٣ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ ـ ليس في القرآن آية بهذا اللفظ ، بل ورد بثلاثة تعابير قريبة : أ ـ وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد (الآية ١٨٢ ، من السورة ٣ : آل عمران ؛ والآية ٥١ ، من السورة ٨ : الأنفال ؛ والآية ١٠ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .)

ب ـ وما ربّك بظلّام للعبيد (الآية ٤٦ ، من السورة ٤١ : فصّلت) .

ج ـ وما أنا بظلّام للعبيد . (الآية ٢٩ ، من السورة ٥٠ : ق) .

لذا يمكن أن يكون كلام الإمام اقتباساً من القرآن وليس استشهاداً به .

وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ـ الآية .[١] أزيدك يا إبراهيم ؟

قلتُ : بلى يابن رسول الله .

قال : لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ،[٢] أتحبّ أن أزيدك ؟

قلتُ : بلى يابن رسول الله .

قال : فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .[٣]

يبدّل الله سيّئات شيعتنا حسنات ، ويبدّل الله حسنات أعدائنا سيّئات ، وجلال الله إنّ هذا لمن عدله وإنصافه ، لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه وهو السميع العليم . هل أبيّن لك أمر المزج والطينتين من القرآن ؟

قلتُ : بلى يا بن رسول الله .

قال : اقرأ يا إبراهيم :

ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ؛[٤] يعني من الأرض الطيّبة والأرض المنتنة . فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ؛[٥] يقول : لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه ، لأنّ الله تعالى أعلم بمن اتّقى منكم ، فإنّ ذلك من قبل اللمم ـ وهو المزج ـ .

أزيدك يا إبراهيم ؟

قلت : بلى يابن رسول الله .

١ـ الآيتان ١٢ و١٣ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٢ـ الآية ٢٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٤ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٥ـ مقطع من الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

قال: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**؛[١] يعني أئمّة الجور دون أئـمّة الحقّ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**.[٢] خُذها إليك يا أبا إسحاق فوالله إنّه لمن غرر أحاديثنا وباطن سرائرنا ومكنون خزائننا، وانصرف ولا تطلع على سرّنا أحداً إلّا مؤمناً مستبصراً، فإنّك إن أذعتَ سرّنا بُليتَ في نفسك ومالك وأهلك وولدك.[٣]

أخبار الطينة لا تستلزم الجَبرْ

وينبغي أن تعدّ هذه الرواية الشريفة من أُصول المعارف الشيعيّة؛ ومن المهمّ هنا أن نذكّر بأنّ خلق أفراد من البشر من طينة طيّبة وخلق آخرين من طينة منتنة سبخة، أوكما في تعبير بعض الروايات الأُخرى: من طينة علّيين ومن طينة سجّين، لا منافاة له أبداً مع أمر الاختيار، لأنّ الله تعالى قد جعل هذه الطينة الطيّبة وهذه الطينة السبخة مختارتينِ، وقد أشار الإمام في نفس الرواية ـ دفعاً لشبهة الجبر والاضطرار ـ إلى قول الله تعالى:

وَأَنَا المُطَّلِعُ عَلَى قُلُوبِ عِبَادِي لَا أَحِيفُ وَلَا أَظْلِمُ وَلَا أُلْزِمُ أَحَداً إِلَّا مَا عَرَفْتُهُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ أَخْلُقَهُ.

ومن هنا، فإنّ التكاليف الإلهيّة ترد حسب القدرة والوسع؛ وحين يعطي الله سبحانه لشخص ما شيئاً معيّناً، فإنّه يطلب منه كمال ذلك الشيء، لا كمال شيء آخر. فالإنسان المخلوق من طينة علّيين مكلّف بتكليف

١ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠؛ من السورة ٧: الأعراف.

٢ـ الآية ٣٠، من السورة ٧: الأعراف.

٣ـ «علل الشرايع» ص ٦٠٦ إلى ٦١٠، الباب ٣٨٥، نوادر العلل، الرواية ٨١، طبعة المطبعة الحيدريّة في النجف الأشرف، سنة ١٣٨٥ هـ.

معيّن ، والمخلوق من طينة سجّين مكلّف بتكليف معيّن آخر ، وهو مختار مريد ، وعليه أن يبلغ بالقابليّة التي وهبه الله إلى منصّة الفعليّة والظهور . والله سبحانه لم يأمره أبداً أن يصل إلى فعليّة الإنسان المخلوق من علّيّين ، لأنّ هذا الطلب ظلم ، أمّا ذاك الأوّل فعدل مَحض .

إنّ الله تعالى لم يأمر الشّمر أن يصبح كسيّد الشهداء عليه السلام ، ولا ينتظر منه أن يصبح كذلك ؛ لكنّ الشمر مختار ذو إرادة ؛ وعليه ـ ضمن إدراكاته وسعته ـ أن يجتنب فعل القبيح ، فإن هو فعل ذلك القبيح ، لحقه الخزي والعار ، واستحقّ العقاب والنار .

وخلاصة الكلام : أنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق الخلق مجبورين ، وإذ إنّه جعل كلّ فردٍ من طينةٍ معيّنة ، فينتظر منه كمال تلك الطينة .

كما أنّ علم الله بالمعاصي والذنوب التي يرتكبها الناس باختيارهم لا يستدعي الجبر ، بل هو نقيض الجبر ؛ إذ على فرض علمه تعالى بالمعاصي التي يفعلها الناس اختياراً ، فكيف يكون ذلك جبراً ؟ إذ لو كان الأمر جبراً لاستلزم الانقلاب ، والانقلاب محال .

وإذاً ، فإنّ الله تعالى كان عالماً قبل خلق الناس بخلقهم وأفعالهم التي يجترحونها اختياراً ، لأنّ الخلقة هي خلقة الإنسان المختار ، وهذا هو عين العدل . ولقد منح سبحانه الأفراد قابليّات مختلفة بالوجدان ، إلّا أنّه ينتظر من كلّ فرد ظهور تلك القابليّة المعيّنة التي منحه إيّاها ، وذلك عين العدل ؛ **وَالحَمْدُ لِلّهِ وَحْدَهُ.**

لا فائدة من العمل الصالح من دون إيمان

وهناك نكتة أخرى ينبغي أن تُذكر ، وهي أنّ مقولة : (إنّ العمل الصالح ليس له من فائدة بلا إيمان وعقيدة) ، ليست مقولة مطلقة ، لأنّ

تأثير الأعمال الحسنة على نفس المؤمن ، ودورها في تزكية تلك النفس وتطهيرها ممّا لا شكّ فيه . لذا ، فإنّ جميع الناس مأمورون بالقيام بالأعمال الحسنة الصالحة ،كلّ ما في الأمر أنّ أعمال القربة لا تصدر من الكفّار المشركين بالله ، وليس ثمّة معنى من أن يقوم شخص لا يعترف بالله بعمل لله وفي الله .

ومن هنا ، فمثل هذه الأعمال الصالحة التي قد يفعلها هؤلاء الكفّار ستمتلك صورة صالحة وباطناً فاسداً ، وستكون الصلاة والصيام والزكاة والجهاد خبيثة بأجمعها إذا اقترنت بالنفس الخبيثة والأخلاق الخبيثة . الصورة صورة صلاة ، أمّا باطنها فرياء وسمعة وتظاهر وآلاف أُخرى من النوايا الخفيّة . ومثل هذه الصلاة لا تُقبل ، وما إن يرفع الملائكة إلى الأعلى نظائر هذه الصلاة ، فإنّ الخطاب يأتيهم : ارجعوا فاضربوا بها وجه صاحبها ، فأنا في غنى عن مثل هذه الصلاة ! أجل ، إنّ العمل الصالح والسيرة الحسنة هما اللذان يصدران عن نيّة صالحة حسنة ، وهما اللذان يؤثّران في طهارة فاعلهما وقربه من الله تعالى .

أمّا عنوان الصلاة والصوم والحجّ والجهاد فلا موضوعيّة له . ولو صدرت هذه الأعمال من نفوس شريرة خبيثة ، فسوف لا تقبل ، لأنّ التقوى والتوحيد هما شرطا قبول الأعمال : **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**.[1]

والخلاصة ، فقد جاء في الآيات القرآنيّة الكريمة تعبير : **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ** ، الذي ينصّ على أنّ المؤمن بالله تعالى هو من يعمل صالحاً . ولذلك فإنّ خبر إبراهيم الليثيّ لا ينفي العمل الصالح ، بل يعتبره مشروطاً بالتقوى والتوحيد والولاية ؛ **وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ**.

١ـ الآية ٢٧ ، من السورة ٥: المائدة .

وحاصل ما ورد في البحث هو أنّ حجاب الكثرة سيزول يوم القيامة، وستنهار الجزئيّات المفرّقة، وستندمج الحقائق وتتّحد، فتتّجه حقائق الجنّة إلى الجنّة، بينما تتّجه حقائق النار إلى جهنّم.

وسيلحق المؤمنون والشيعة الحقيقيّون بالأئمّة الطاهرين، ويتّجهون إلى الجنّة في معيّة الأئمّة ومن خلال اتّحادهم معهم. أمّا الكافرون والمعاندون فسيلحقون بأئمّتهم وقادتهم، فيهوون جميعاً في نار جهنّم.

الآيات الواردة في اللحوق

جاء في القرآن الكريم: **يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ.**[1]

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ.[2]

وهي آيات تفصح أيّما إفصاح عن أمر اللحوق والإلحاق. كما ورد في كثير من الروايات أنّ من يفعل الأمر الفلاني فإنّ ذلك العمل سيكون جليسه وقرينه في درجته ورتبته؛ هذا من باب اللحوق. فإن كان فاعل ذلك العمل من ذوي الإيمان وأصحاب الولاية، صار اللحوق والإلحاق حتميين، وهو أمر يبعث على سرور الشيعة المخلصين وأتباع نهج الولاية والمحبّين الحقيقيّين لأئمّة الدين. إذ على الرغم من أنّهم لم يكونوا ـ بحسب الظاهر ـ أصحاباً معاصرين لجميع سادتهم وأئمّتهم، فإنّهم يوم القيامة لن يكونوا أصحابهم فحسب، بل وأعلى من ذلك وأسمى، لأنّهم سيُلحقون بهم؛ **فَذَلِكَ الشَّرَفُ نِعْمَ الشَّرَفُ.**

١ـ الآية ٩٨، من السورة ١١: هود.

٢ـ الآيتان ٣٦ و٣٧، من السورة ٨: الأنفال.

روى الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» بسنده المتّصل عن جماعة، عن أبي المفضّل، عن جعفر بن محمّد العلويّ، عن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن، عن أبيه، عن جدّه، عن أبيه عبد الله، عن أبيه وخاله عليّ بن الحسين، عن الحسن والحسين، عن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهم، قال:

جاء رجل من الأنصار إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا رسول الله! ما أستطيع فراقك! وإنّي لأدخل منزلي فأذكرك فأترك ضيعتي وأُقبل حتّى أنظر إليك حبّاً لك، فذكرتُ إذا كان يوم القيامة وأُدخلتَ الجنّةَ فرُفعتَ في أعلى علّيّين، فكيف لي بك يا نبيّ الله؟ فنزل:

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا.

فدعا النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الرجل فقرأها عليه وبشّره بذلك.[1]

ويعدّ أمر اللحوق أحد المعارف الدينيّة، سواءً حصل ذلك اللحوق بتأثير الشفاعة أم بعوامل أُخرى كالتوبة والعمل الصالح وغير ذلك.

ولدينا روايات كثيرة دالّة على أنّ صلاح العمل وفساده قائمان على أساس النيّة؛ فإن صلحت النيّة صلح العمل، وإن فسدت فسد، مهما كان ظاهر ذلك العمل كبيراً كبناء مسجد أو دار للأيتام أو مستشفى أو مدرسة ونظائر ذلك، إذ إنّ العمل الصغير الضئيل المقترن بالنيّة الصالحة هو أفضل من الأعمال الجليلة العظيمة المقترنة بالنيّة السيّئة المدنّسة.

١ـ «أمالي الشيخ الطوسيّ» ص ٣٩ و ٤٠، مجلس اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني لسنة ٤٥٧ هـ، الطبعة الحجريّة؛ و«بحار الأنوار» ج ٨، ص ١٨٨، الطبعة الحروفيّة.

الروايات الواردة في أصالة النيّة

روى الشيخ زين الدين الشهيد الثاني في كتاب «مُنية المريد» :

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ؛ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى. فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ.[1]

وروى أحمد بن خالد في كتاب «المحاسن» عن الحسين بن يزيد النوفليّ، عن السكونيّ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام، قال :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: نِيَّةُ المَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الفَاجِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ، وَكُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِنِيَّتِهِ.[2]

وروى بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام، قال :

إنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ الفَقِيرَ لَيَقُولُ: يَا رَبِّ ارْزُقْنِي حَتَّى أَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنَ البِرِّ وَوُجُوهِ الخَيْرِ، فَإذَا عَلِمَ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِيَّتِهِ، كَتَبَ اللهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَا يَكْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ، إنَّ اللهَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ.[3]

وروى كذلك أحمد بن خالد، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال :

إنَّ اللهَ يَحْشُرُ النَّاسَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.[4]

١ـ «منية المريد» ص ٢٧، طبعة النجف؛ و«بحار الأنوار» ج ١٥ من الطبعة القديمة (الكمبانيّ)، القسم الثاني: في الأخلاق، ص ٨٧، نقلاً عن «منية المريد»، وص ٧٧ نقلاً عن «غوالي اللئالي».

٢ـ «محاسن البرقيّ» ج ١، ص ٢٦٠، كتاب مصابيح الظلم، الباب ٣٣: النيّة، الحديث ٣١٥.

٣ـ «محاسن البرقيّ» ص ٢٦١، الحديث ٣٢٠.

٤ـ «محاسن البرقيّ»، ص ٢٦٢، الحديث ٣٢٥، كتاب مصابيح الظلم الباب ٣٣: النيّة.

ويتّضح أنّ عنوان العمل وقالبه زائلان غير مثمرين بدون النيّة ، وأنّ روح العمل المتمثّل في النيّة هو النافع المجدي .

ولقد كانت نيّة الناصبين المعاندين لأئمّة الدين نيّة فاسدة مدنّسة ، لذا فإنّهم سيُلحقون بأوليائهم المجرمين ، مهما امتلكت أعمالهم قالباً عظيماً ذا أُبّهة وجلال . أمّا الشيعة المؤمنون ذوو النوايا الخالصة النزيهة ، فسيُلحقون بأوليائهم ، مهما بدت أعمالهم صغيرة ولا تستلفت الأنظار ، وعلى الرغم من الأخطاء . والزلّات التي ارتكبوها ؛ لأنّ الشفاعة ستُلحقهم بأوليائهم وتجعلهم يلتحمون بهم .

ولمناسبة المقام ، فإنّنا نختتم هذه المطالب بحول الله وقوّته بعشر روايات تتحدّث عن تأثير محبّة أولياء الدين ، تلك المحبّة التي تتسبّب في اللحوق والإلحاق .

الرواية الأُولى : يروي البرقيّ في «المحاسن» عن محمّد بن خالد الأشعريّ ، عن إبراهيم بن محمّد الأشعريّ ، عن حسين بن مصعب ، قال :

سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ اللَهَ وَأَبْغَضَ عَدُوَّهُ لَمْ يُبْغِضْهُ لِوَتْرٍ وَتَرَهُ فِي الدُّنْيَا ،[1] ثُمَّ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِمِثْلِ زَبَدِ البَحْرِ ذُنُوباً كَفَّرَهَا اللَهُ لَهُ .[2]

الرواية الثانية : يروي الكلينيّ في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن حمّاد ، عن حريز ، عن الفُضَيْل بن يسار ، قال :

١ـ إذ إنّ من الممكن أن يلحق المرء ضرر من عدوّ الله يصيبه في ماله أو جاهه أو سُمعته ـ وليس في دينه أو حياته ـ فيكون بُغضه حينذاك بلا أثر .

أمّا إذا أبغض عدوّ الله لنفس كونه عدوّاً للّه ولأولياء الله ، فإنّه سيمتلك التأثير المذكور .

٢ـ «محاسن البرقيّ» ج ١ ، ص ٢٦٥ ، الحديث ٣٤١ ، كتاب مصابيح الظلم .

سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الحُبِّ وَالبُغْضِ ، أَمِنَ الإِيـمَانِ هُوَ ؟ فَقَالَ : وَهَلِ الإِيمَانُ إِلَّا الحُبُّ وَالبُغْضُ ؟ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ :[1] «حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ».[2]

الرواية الثالثة : روى البرقيّ في «المحاسن» عن أبيه ، عن العزْرَميّ ، عن أبيه ، عن جابر الجُعفيّ ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال :

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ فِيكَ خَيْراً فَانْظُرْ إِلَى قَلْبِكَ ، فَإِن كَانَ يُـحِبُّ أَهْلَ طَاعَةِ اللهِ وَيُبْغِضُ أَهْلَ مَعْصِيَةِ اللهِ فَفِيكَ خَيْرٌ وَاللهُ يُحِبُّكَ ؛ وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ أَهْلَ طَاعَةِ اللهِ وَيُحِبُّ أَهْلَ مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَفِيكَ شَرٌّ وَاللهُ يُبْغِضُكَ ، وَالمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ.[3]

وروى المرحوم الكلينيّ في «الكافي» عين هذه الرواية بنفس السند ، عن أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ .[4]

الرواية الرابعة : روى المحدّث القمّيّ في «سفينة البحار» عـن «عـلل الشرايع» عن أنس ، قال : جاء رجل من أهل البادية ، وكان يُعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقال :

يا رسول الله ! متى قيام الساعة !

فحضرت الصلاة ، فلمّا قضى صلاته ؛ قال : أين السائل عن الساعة ؟

قال : أنا يا رسول الله .

قال : فما أعددتَ لها ؟

١ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ١٢٥ ، باب الحبّ والبغض في الله .

٢ـ الآية ٧ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٣ـ «محاسن البرقيّ» ج ١ ، ص ٢٦٣ ، الحديث ٣٣١ ، كتاب مصابيح الظلم .

٤ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١٢٦ و١٢٧ .

قال : واللهِ ما أعددتُ لها من كثير عـمل صـلاة ولا صـوم ، إلّا أنّـي أُحبّ الله ورسوله .

فقال له النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : **المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**.

قال أنس : فما رأيتُ المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشـيءٍ أشـدّ مـن فرحهم بهذا .[1]

مكتوب الإمام الرضا إلى الجمّال

الرواية الخامسة : وهي رواية في «دعوات الراونديّ» ذكر فيها حديثاً قدسيّاً يتضمّن محاورة بين الله تعالى وموسى على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام ، يقول فيها :

فَعَلِمَ مُوسَى أَنَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ الحُبُّ فِي اللَهِ وَالبُغْضُ فِـي اللَـهِ؛ وَإلَيْهِ أَشَارَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَكْتُوبِهِ:

كُنْ مُحِبّاً لِآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإنْ كُنْتَ فَاسِقاً ، وَمُحِبّاً لِمُحِبِّيهِمْ وَإنْ كَانُوا فَاسِقِينَ.

ثمّ يقول الراونديّ : ومن شجون الحديث أنّ هذا المكتوب هو الآن عند بعض أهل « كرمند» قرية من نواحينا إلى أصفهان ، وروايته أنّ رجـلاً من أهلهاكان جـمّالاً لمـولانا أبـي الحسـن عـليه السـلام عـند تـوجّهه إلى خراسان ، فلمّا أراد الانصراف قال له : يابن رسول الله ! شرّفني بشيء مـن

١ـ «سفينة البحار» ج ١ ، ص ١٩٩ ، مادّة حبب . وروى القندوزيّ في «ينابيع المودّة» ص ١٨١ ، طبعة إسلامبول ، عن البخاريّ ومسلم ، عن رسول الله ، قال : **المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ** . ورواه عن الترمذيّ بلفظ : **المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ** . وروى عن الترمذيّ أيضاً بلفظ : **المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ** . وقد وردت الرواية التي نـقلناها عـن «سـفينة البحار» في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ١٩٥ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ) .

خطّك أتبرّك به ؛ وكان الرجل من العامّة ، فأعطاه ذلك المكتوب .[1]

الرواية السادسة : روى العيّاشيّ في تفسيره عن بُريد بن معاوية العجليّ ، قال : كنتُ عند أبي جعفر (الباقر) عليه السلام ، إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً ، فأخرج رجليه قد تفلّقتا ؛ قال : أما ـ والله ـ ما جاء بي من حيث جئتُ إلّا حبّكم أهل البيت . فقال أبو جعفر : **وَاللَّهِ لَوْ أَحَبَّنَا حَجَرٌ ، حَشَرَهُ اللَّهُ مَعَنَا ؛ وَهَلِ الدِّينُ إلَّا الحُبُّ ؟**[2]

الرواية السابعة : روى أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ في «المحاسن» عن محمّد بن عليّ ، عن محمّد بن جبلة الأحمسيّ ، عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام ، قال :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضِ زَبَرْجَدٍ خَضْرَاءَ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ عَنْ يَمِينِهِ ـ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ـ وُجُوهُهُمْ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ ؛ وَأَضْوَءُ مِنَ الشَّمْسِ الطَّالِعَةِ ،

١ـ «سفينة البحار» ج ١ ، ص ١٩٩ ، مادّة « حبب » ، الطبعة الحجريّة ؛ و«بحار الأنوار» المجلّد الخامس عشر ، الجزء الأوّل ، ص ٢٨٤ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ) .

٢ـ «سفينة البحار» ج ١ ، ص ٢٠١ ، مادّة «حبب» .

وينقل المجلسيّ رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» مجلّد المزار ، ج ٢٢ ، ص ١٣٨ و١٣٩ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ) رواية شريفة عن «عيون أخبار الرضا» و«أمالي الشيخ الصدوق» عن ماجيلويه ، عن علي ، عن أبيه ، عن ريّان بن شبيب ، قال : دخلتُ على الرضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرّم ... ثمّ ينقل مطالب كثيرة عن إقامة العزاء على أبي عبد الله الحسين عليه السلام حتّى يصل إلى قوله عليه السلام : يا بن شبيب ! إنّ سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فَقُلْ متى ما ذكرتَه : **يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً** . يابن شبيب ! إنْ سرّك أن تكون معنا في الدرجات العُلى من الجنان ، فاحزن لحزننا ، وافرحْ لفرحنا ، وعليك بولايتنا ؛ فلو أنّ رجلاً تولّى حَجَراً لحشره اللهُ معه يوم القيامة !

يَغْبِطُهُمْ بِمَنْزِلَتِهِمْ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَكُلُّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ؛ يَقُولُ النَّاسُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَيُقَالُ: هَؤُلَاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ.[1]

وروى الكلينيّ في كتابه «الكافي» هذه الرواية بنفس السند.[2]

الرواية الثامنة: روى أحمد بن محمّد البرقيّ في «المحاسن» عن محمّد ابن عليّ وغيره، عن الحسن بن محمّد بن فضل الهاشميّ، عن أبيه، قال:

قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَنْتَفِعُ بِهِ فِي سَبْعِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ الْمَوْتِ، وَعِنْدَ الْقَبْرِ، وَيَوْمَ الْحَشْرِ، وَعِنْدَ الْحَوْضِ، وَعِنْدَ الْمِيزَانِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ.[3]

متابعة المرء لآل محمّد تلحقه بهم وتجعله منهم

الرواية التاسعة: يروي أبوجعفر محمّد بن أبي القاسم الطبريّ الشيعيّ في كتابه «بشارة المصطفى لشيعة المرتضى» عن الحسن بن الحسين بن بابويه في الري، عن أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ في النجف الأشرف، عن محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد، عن الحسين بن أحمد بن المغيرة، عن حيدر بن محمّد السمرقنديّ، عن محمّد بن عمرو الكشّيّ، عن محمّد بن مسعود العيّاشيّ، عن جعفر بن معروف، عن يعقوب بن يزيد، عن محمّد بن عذافر، عن عمر بن يزيد[4] قال:

١ـ «محاسن البرقيّ» ج ١، ص ٢٦٤، الحديث ٣٣٧، كتاب مصابيح الظلم.

٢ـ «أُصول الكافيّ» ج ٢، ص ١٢٦.

٣ـ «المحاسن» ج ١، ص ١٥٢، الحديث ٧٥: كتاب «الصفوة والنور والرحمة».

٤ـ جاء في «رجال الكشيّ»: عمر بن يزيد بيّاع السابريّ مولى ثقيف، حدّثني جعفر ابن معروف، عن يعقوب بن يزيد، عن محمّد بن عذافر، عن عمر بن يزيد، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا بن يزيد! أنتَ واللهِ منا أهل البيت ... إلى آخر هذه الرواية التي أوردناها هنا.

⇦

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بْنَ يَزِيدَ! أَنْتَ وَاللَهِ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ.

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! مِن آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟

قَالَ: وَاللَهِ مِنْ أَنفُسِهِمْ يَا عُمَرَ، أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ:

«إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱللَهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ».[1]

أَمَا تَقْرَأُ قَوْلَهُ: «فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»؟[2]

رواية عطيّة العوفيّ الكوفيّ وجابر في آثار المحبّة واللحوق

الرواية العاشرة: كما يروي الطبريّ الشيعيّ في «بشارة المصطفى» بسلسلة سنده المتّصل معنعناً عن الأعمش، عن عطية العوفيّ الكوفيّ، قال:

خرجتُ مع جابر بن عبد الله الأنصاريّ زائرين قبر الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا وردنا كربلاء دنا جابر من شاطئ الفرات فاغتسل، ثمّ اتّزر بإزار وارتدى بآخر، ثمّ فتح صرّة فيها سعد

⇐ وأوردها الأردبيليّ في رجاله بهذا المنوال، ونقل جميع المطالب السابقة عن «رجال الكشّيّ»؛ وقال: ذكره الشيخ الطوسيّ في رجاله في أصحاب الصادق عليه السلام؛ وقال: كان كوفيّاً.

وذكره في «الفهرست» في أصحاب الكاظم؛ وقال عنه: ثقة، وله كتاب. على أيّ تقدير فيتّضح من المدح الذي مدحه به الإمام الصادق عليه السلام أنّه كان جليل القدر.

١ـ الآية ٦٨، من السورة ٣: آل عمران.

٢ـ «بشارة المصطفى» ص ٦٧ و٦٨، الطبعة الثانية، النجف الأشرف. والآية الواردة هي الآية ٦٨، من السورة ٣: آل عمران.

فنثرها على بدنه ، ثمّ لم يخطُ خطوةً إلّا ذكر الله تعالى ، حتّى إذا دنا من القبر ، قال : ألمسنيه ،[1] فألمستُه فخرّ على القبر مغشيّاً عليه ، فرششتُ عليه شيئاً من الماء فلمّا أفاق ، قال : يا حسين ! ـ ثلاثاً ـ ، ثمّ قال : حبيبٌ لا يُجيب حبيبه !

ثمّ قال : وأنّى لك بالجواب وقد شحطت أوداجك على أثباجك ، وفُرّق بين بدنك ورأسك ؛ فأشهدُ أنّك ابن خاتم النبيّين وابن سيّد المؤمنين ، وابن حليف التقوى وسليل الهُدى ، وخامس أصحاب الكسا ، وابن سيّد النقبا ، وابن فاطمة سيّدة النساء . وما لك لا تكون هذا وقد غَذَّتْكَ كفُّ سيّد المرسلين ورُبّيت في حِجر المتّقين ورضعتَ من ثدي الإيمان وفُطمت بالإسلام ؛ فَطِبْتَ حَيّاً وطِبتَ ميّتاً ؛ غير أنّ قلوب المؤمنين غير طيّبة بفراقك ، ولا شاكّة في الخيرة لك ، فعليك سلام الله ورضوانه . وأشهدُ أنّك مضيتَ على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريّا .

ثمّ جال ببصره حول القبر ، وقال : السلام عليكم أيّتها الأرواح التي حلّت بِفناء الحسين وأناختْ برحله ، وأشهدُ أنّكم أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأمرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر ، وجاهدتم الملحدين ، وعبدتم الله حتّى أتاكم اليقين . والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً ، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه .

قال عطيّة : فقلتُ له : يا جابر ! كيفَ ولم نهبط وادياً ولم نَعْلُ جبلاً ولم نضرب بسيفٍ ، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم وأُوتمت

[1] ـ طبقاً للتواريخ والأحاديث فَقَدْ فَقَدَ جابر بصره في أواخر حياته . أمّا في أمر كونه أعمى وقت زيارته للقبر المطهّر لسيّد الشهداء عليه السلام ، فقد أوردنا تحقيقاً في شأنه في الجزء الثالث من كتاب «معرفة الإمام» من سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميّة (٢) ، الدرس ٣١ ، ضمن بيان حديث جابر حول الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام .

أولادهم وأُرملت أزواجهم ؟!

فقال : يا عطيّة ! سمعتُ حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : «من أحبّ قوماً حُشِرَ معهم ، ومن أحبّ عمل قومٍ أُشْرِكَ في عملهم» . والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً إنّ نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام وأصحابه . خُذني إلى أبيات كوفان !

فلمّا صرنا في بعض الطريق ، قال : يا عطية ! هل أوصيك ، وما أظنّ أنّني بعد هذه السفرة مُلاقيك ؟ أحبِبْ مُحبّ آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ما أحبّهم ، وأَبْغِضْ مُبغض آل محمّد ما أبغضهم وإن كان صوّاماً قوّاماً ؛ وأرفق بمحبّ محمّد وآل محمّد ، فإنّه إن تزلّ له قدم بكثرة ذنوبه ، ثبتت له أُخرى بمحبّتهم ، فإنّ محبّهم يعود إلى الجنّة ، ومبغضهم يعود إلى النار .[1]

ولقد أجاد مادح أهل البيت النظام الاسترابادي في قوله :

علی امام مُعَلّای هاشمی که بود
سواد منقبتش بر بیاض دیدهٔ حور

ز حُبّ اوست بروز جزا نه از اطاعت
أُمید مغفرت از حیّ لا یزال غفور

نتیجه‌ای ندهد بی محبّتش در حشر
مکاشفات جُنید وریاضت منصور[2]

١ـ «بشارة المصطفى» ص ٧٤ و٧٥، طبعة النجف.

٢ـ «سفينة البحار» ج ١، ص ٢٠١ . يقول : «عليّ هو الإمام الهاشميّ المعلّى الذي خُطّت سطور مناقبه على بياض أعين الحور.

وبحبّه ـ لا من الطاعة ـ ينال العاصون يوم الجزاء بغفران الحيّ الدائم الغفور.

ولن تجدي في الحشر ، بدون محبّته ، نفعاً ، مكاشفات الجُنيد ورياضة المنصور» .

ز دل سواد معاصى برون برد مهرش

چنانكه ماه برد ظلمت شب ديجور[١]

١ـ يقول: «إنّ حبّه ينفي من القلب سواد المعاصي، كما ينفي البدر ظلمة الليل الديجور».

المجلس الرابع والستون

في حقيقة الشفاعة وثبوتها


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا.[1]

التهجّد من الهجود ، وهو أساساً بمعنى النوم ؛ والتهجّد بمعنى القيام من النوم . والضمير في «به» عائد إلى القرآن ، أي : تهجّد بالقرآن ، انهضْ واتلُ القرآن . والمراد بذلك قراءته في الصلاة ، حيث يقرأ في الصلاة السور والآيات القرآنيّة الطويلة . وهذه الصلاة في قلب الليل بمثل هذه التلاوة القرآنيّة بالسور الطويلة ، هي غير الفرائض التي أوجبها الله على نبيّه الكريم ، وهي نافلة ألزم الله تعالى بها نبيّه .

والمقام في الظاهر اسم مكان ، أمّا البعث فهو إمّا بمعنى الإقامة ، أي : **يُقِيمَكَ رَبُّكَ فِي مَقَامٍ مَحْمُودٍ** . أو متضمّن لمعنى الإعطاء ، أي : **يَبْعَثَكَ مُعطياً لَكَ** ؛ أو **يُعْطِيكَ بَاعِثاً مَقَاماً مَحْمُوداً**.

وعلى أيّة حال ، فقد منّ الله جلّ وعزّ بالمقام المحمود على رسوله

١ـ الآية ٧٩، من السورة ١٧ : الإسراء.

كأجر على تهجّده بالقرآن وقيامه في صلاة الليل التي كان يتلو فيها السور القرآنيّة الطويلة . والمقام المحمود هو مقام يمتدحه جميع الخلائق ويبجّلونه ؛ وبطبيعة الحال فإنّهم لا يبجّلونه ما لم يكن المقام في حسابهم جميلاً مُستحسناً ، وما لم ينتفعوا به قاطبة .

وعلى هذا الأساس ، فقد فُسّر المقام المحمود بالمقام الذي يحمده جميع الخلائق ويستفيدون منه . وذلك هو مقام الشفاعة الكبرى لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في يوم القيامة . وقد اتّفقت على هذا التفسير جميع الروايات الواردة عن الرسول الأكرم وأئمّة أهل البيت عن طريق الشيعة والعامّة . ذلك أنّ الحمد هو الثناء والمدح على عملٍ جميل اختياريّ . وباعتبار أنّ المقام المحمود مطلق ، فعلى جميع الخلائق أن يحمدوه،ولا يمكن للفعل الجميل الاختياريّ الذي يصدر عن رسول الله يوم القيامة فينتفع به الجميع ويحمدونه ، أن يكون غير الشفاعة الكبرى . لذا ، فالمقام المحمود الذي فُسّر في الروايات بالشفاعة الكبرى هو معنى لطيف يمكن استنباطه من نفس الآية .

روي في «الميزان» نقلاً عن «تفسير العيّاشيّ» عن عبيد بن زرارة قال : **سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ المُؤمِنِ : هَلْ لَهُ شَفَاعَةٌ ؟**

قَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ : هَلْ يَحْتَاجُ المُؤْمِنُ إلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، لِلْمُؤْمِنِينَ خَطَايَا وَذُنُوبٌ ؛ وَمَا مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَيَحْتَاجُ إلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ.[1]

---

١ ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ١٩١ ؛ وأورد الرواية الثانية في ج ١ ، ⇦

وقال العيّاشيّ :

وَسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ.

فَقَالَ: نَعَمْ، يَأْخُذُ حَلْقَةً مِنْ بَابِ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا، فَيَخِرُّ سَاجِداً، فَيَقُولُ اللَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ! اطْلُبْ تُعْطَ! فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ، ثُمَّ يَخِرُّ سَاجِداً فَيَقُولُ اللَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ! اشْفَعْ تُشَفَّعْ! وَاطْلُبْ تُعْطَ! ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَشْفَعُ يُشَفَّعُ [فَيُشَفَّعُ] وَيَطْلُبُ فَيُعْطَى.[1]

وأورد العيّاشيّ في تفسيره عن سماعة بن مهران ، عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام في تفسير قوله تعالى : **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**؛ قال :

يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً ، وتُؤمَر الشمس فتركب على رؤوس العباد ويلجمهم العَرَق ، وتُؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئاً ، فيأتون آدم فيشَفِّعونه . فيدلّهم على نوح ، ويدلّهم نوح على إبراهيم ، ويدلّهم إبراهيم على موسى ، ويدلّهم موسى على عيسى ، ويدلّهم على محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فيقول : **عَلَيْكُم بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ**، فيقول **محمّد** : أنا لها .

فينطلق حتّى يأتي باب الجنّة فيدقّ ، فيُقال له : من هذا ؟ والله أعلم ، فيقول : محمّد . فيُقال : افتحوا له ، فإذا فتح الباب استقبل ربّه فخرّ ساجداً فلا يرفع رأسه حتّى يُقال له : تكلّم وسَلْ تُعْطَ واشفعْ تُشَفَّع ، فيرفع رأسه فيستقبل ربّه فيخّر ساجداً ؛ فيُقال له مثلها ، فيرفع رأسه حتّى أنّه ليشفع من

⇐ ص ١٧٨.

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣، ص ١٩١؛ وج ١، ص ١٧٨.

قد أُحرق بالنار ، فما أحدٌ من الناس يوم القيامة في جميع الأُمم أوجه من محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهو قول الله تعالى : **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**.[1]

والمراد بشفاعته صلوات الله عليه لمن في النار ، شفاعته لبعضهم ؛ وسيأتي لاحقاً أنّ شفاعة رسول الله تشمل غير المخلّدين في النار ، حيث ينجو ببركة شفاعته خلق كثير ممّن رزحوا في النار مدّة من الزمن .

وجاء في «تفسير الدرّ المنثور» : أخرج البخاريّ وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر ، قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، يقول : إنّ الشمس لتدنو حتّى يبلغ العرق نصف الأُذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام ، فيقول : لستُ بصاحب ذلك ؛ ثمّ موسى عليه السلام فيقول مثل ذلك ، ثمّ محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم . فيشفع فيقضي الله بين الخلائق ، فيمشي حتّى يأخذ بحلقة باب الجنّة ، فيومئذٍ يبعثه الله مقاماً .[2]

وفي «الدرّ المنثور» كذلك : أخرج ابن جرير والبيهقيّ في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، قال : **المَقَامُ المَحْمُودُ: الشَّفَاعَةُ**.[3]

وفيه : أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقّاص ، قال : **سُئِلَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ عَنِ المَقَامِ المَحْمُودِ، فَقَالَ: هُوَ الشَّفَاعَةُ**.[4]

وقال الخواجة نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسيّ

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ١٩١ ؛ وفي ج ١ ، ص ١٧٧ .

٢ إلى ٤ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ١٩٢ .

رحمة الله عليه في كتاب «تجريد الاعتقاد» أو «تجريد الكلام» :

المَسْأَلَةُ العَاشِرَةُ فِي الشَّفَاعَةِ: وَالإجْمَاعُ عَلَى الشَّفَاعَةِ، فَقِيلَ لِزِيَادَةِ المَنَافِعِ، وَيَبْطُلُ مِنَّا فِي حَقِّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ وَنَفْيُ المُطَاعِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ المُجَابِ؛ وَبَاقِي السَّمْعِيَّاتِ مُتَأَوَّلَةٌ بِالكُفَّارِ.

وَقِيلَ: فِي إسْقَاطِ المَضَارِّ؛ وَالحَقُّ صِدْقُ الشَّفَاعَةِ فِيهِمَا وَثُبُوتُ الثَّانِي لَهُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لِقَوْلِهِ: إدَّخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي.[1]

وقال العلاّمة الحلّيّ رحمة الله عليه في «شرح التجريد» في بيان هذا الكلام :

اتّفقت العلماء على ثبوت الشفاعة للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قوله تعالى : **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** قيل إنّه الشفاعة . واختلفوا ، فقالت **الوعيديّة**:[2] إنّها عبارة عن طلب زيادة المنافع للمؤمنين المستحقّين للثواب . وذهبت **التفضيليّة** إلى أنّ الشفاعة للفسّاق من هذه الأمّة في إسقاط عقابهم وهو الحقّ . وأبطل المصنّف الأوّل بأنّ الشفاعة لو كانت في زيادة المنافع لا غير ، لكنّا شافعين في النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حيث نطلب له من الله تعالى علوّ الدرجات ، والتالي باطل قطعاً ، لأنّ الشافع أعلى من المشفوع فيه ، فالمقدّم مثله . وقد استدلّوا بوجوه :

الأوّل : قوله تعالى : **مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**،[3] نفى الله تعالى قبول الشفاعة عن الظالم ، والفاسق ظالمٌ . والجواب أنّه تعالى

١ـ في بحث المعاد ، في آخر كتاب «التجريد» .

٢ـ الوعيديّة طائفة سمّيت بهذا الاسم لتشدّدها في أمر غضب الله تعالى ووعيده .

٣ـ الآية ١٨ ، من السورة ٤٠ : غافر .

نفى الشفيع المطاع ، ونحن نقول به ، لأنّه ليس في الآخرة شفيع يُطاع ، لأنّ المطاع فوق المطيع ، والله تعالى فوق كلّ موجود ولا أحد فوقه . ولا يلزم من نفي الشفيع المطاع نفي الشفيع المجاب . سلّمنا ، لكن لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بالظالمين هنا الكفّار جمعاً بين الأدلّة ؟

الثاني : قوله تعالى : **وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** [1] ؛ ولو شفع صلّى الله عليه وآله وسلّم في الفاسق ، لكان ناصراً له .

الثالث : قوله تعالى : **وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ** [2] ؛ **يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا** [3] ؛ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ** [4].

والجواب عن جميع هذه الآيات هو أنّها مختصّة بالكفّار جمعاً بين الأدلّة .

الرابع : قوله تعالى : **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ** [5] ؛ نفى شفاعة الملائكة عن غير المرضيّ لله تعالى ، والفاسق غير مرتضى .

والجواب : لا نسلّم أنّ الفاسق غير مرتضى ، بل هو مرتضى لله تعالى في إيمانه [6].

وقال الفاضل القوشجيّ : والحقّ عند المصنّف [الخواجة نصير الدين الطوسيّ] صدق الشفاعة فيهما ، أي في زيادة المنافع لهم وفي إسقاط المضارّ عنهم ، إذ يقال شفع فلان لفلان إذا طلب له زيادة منافع وإسقاط

١ـ الآية ٢٧٠ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ و٣ـ الآية ١٢٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٤ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٧٤ : المدّثّر .

٥ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٦ـ «كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد» للعلّامة الحلّيّ ، ص ٢٦٢ و٢٦٣ ، الطبعة الحروفيّة ، طبعة قم .

مضارّ ؛ أقول : وحينئذٍ يعود وجه الإبطال المذكور ، أعني لزوم كوننا شافعين للنبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم . ويمكن الجواب عنهما باعتبار زيادة قيد فيهما ، أعني كون الشفيع **أَعْلَى حَالاً [وأَرْفَعُ مَنْزِلَةً] مِنَ المَشْفُوعِ لَهُ**.

وقال المجلسيّ رضوان الله عليه في «البحار» بعد نقله كلامي الخواجة والعلّامة :

وقال النوويّ في «شرح صحيح مسلم» : قال القاضي عياض : مذهب أهل السنّة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح الآيات ، وبالخبر الصادق ، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحّة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين ، وأجمع السلف الصالح ومَنْ بعْدَهُم من أهل السنّة عليها ، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها ، وتعلّقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار . واحتجّوا بقوله تعالى : **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ** [1] وأمثاله وهي في الكفّار . وأمّا تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل ، وألفاظ الأحاديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان مذهبهم ، وإخراج مَن استوجب النار . لكنّ الشفاعة خمسة أقسام :

أوّلها : مختصّة بنبيّنا محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، وهو الإزاحة من هول الموقف وتعجيل الحساب .

الثانية : في إدخال قومٍ الجنّة بغير حساب ، وهذه أيضاً وردت لنبيّنا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم .

الثالثة : الشفاعة لقومٍ استوجبوا النار ، فيشفع فيهم نبيّنا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ومن يشاء الله .

---

١ ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٧٤ : المدّثّر.

الرابعة : فيمن دخل النار من المؤمنين . وقد جاءت الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبيّنا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ، ثمّ يخرج الله تعالى كلّ من قال **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَهُ**. كما جاء في الحديث : لا يبقى فيها إلّا الكافرون .

الخامسة : الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنّة لأهلها ، وهذه لا ينكرها المعتزلة ولا ينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأولى .[١]

وخلاصة القول أنّ ما يستفاد من مجموع الروايات هو أنّ رسول الله والأئمّة الطاهرين يمتلكون شفاعة خاصّة وشفاعة عامّة ؛ فالشفاعة الخاصّة تتعلّق برفع العذاب عن مرتكبي الكبائر من المؤمنين . ويدّل على ذلك قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كما في الأحاديث المستفيضة :

إِنَّمَا ادَّخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي ، فَأَمَّا المُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .

خاصّة وأنّ دلالة لفظ **ادَّخَرْتُ** لا تخلو من اللطف ، وهي جليّة في بيان هذا المعنى المختصّ بتلك النفس الشريفة .

كما يدل عليه دلالة صريحة قول الإمام الباقر عليه السلام في رواية أبي العبّاس المكبّر ، في قوله عليه السلام لأبي أيمن : **وَيْلَكَ ! فَهَلْ يَشْفَعُ إِلَّا لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ؟!**

أمّا الشفاعة العامّة ، فلا تختصّ بهذه الجهة وحدها ، بل تتعدّاها إلى رفع العذاب عن جميع الأُمم . كما تتعلّق برفع درجات الأنبياء والشهداء والعلماء والمجاهدين ، ومنحهم منزلة أعلى من قِبل الله تبارك وتعالى .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في رواية أبي العبّاس المكبّر السالفة

١ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٦٢ و٦٣، الطبعة الحروفيّة .

الذكر ، إذ أتبع عليه السلام قوله : **وَيْلَكَ فَهَلْ يَشْفَعُ إلَّا لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ؟!** بقوله : **مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ.**

ولذلك لا يمكن تخصيص الشفاعة بموارد رفع العقاب دون غيرها ، بل ينبغي عدّها شاملة لهذا المورد وغيره من موارد زيادة الدرجات ، ورفع الحجاب ، وحلّ المعضلات والأُمور المستعصية التي تعترض المرء في مسيره إلى الله تعالى . إلّا أنّ الشرط الأساس هو عدم كون المشمول بالشفاعة مشركاً ولا كافراً ولا جاحداً ولا مستكبراً ، أي ينبغي أن يكون المشفوع له مسلماً مؤمناً ذا عقيدة حسنة ، وذلك يعني كون ذاته ووجدانه ـ وبتعبير آخر : عقيدته ودينه ـ منزّهين ، إلّا أنّ الذنوب قد دنّست ظاهرهما ، فتجيء الشفاعة لإزالة ذلك اللوث والدنس ولجلاء صدأ الذنوب عنهما لتطلع من جديد تلكما النفس السليمة والعقيدة الحسنة ، فتقود ذلك الشخص إلى مرفأ الأمان وساحل النجاة .

وقد مرّ في رواية حسين بن خالد عن الإمام الرضا عليه السلام ، قال : **وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ دِينَهُ.**

وروى الكلينيّ في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن فضّال ، عن حفص المؤذّن ، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه كتب إلى أصحابه كتاباً يقول فيه : **وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئاً لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَنْ دُونَ ذَلِكَ ! فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَطْلُبْ إلَى اللَّهِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ**[1].

والمراد بالرضا هنا ، الرضا عن النفس وعن العقيدة والإيمان ، حيث

١ـ «روضة الكافي» ص ١١.

تنفع حينذاك شفاعةُ الشافعين وتؤتي ثمارها .

ولا ينفي هذا الحديث الشفاعة كما قد يُوهم بذلك صدر الحديث ، بل يعدّها مشروطة بالإرتضاء في الدين وارتضاء ذات المشفوع له كما قد نصّ على ذلك ذيل الحديث .

وأوضح من هذه الروايات وأكثر صراحة الحديثُ الوارد في «توحيد الصدوق» بسنده عن ابن أبي عُمير ، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، عن أبيه ، عن آبائه ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : **إنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي فَأَمَّا المُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** .

قال ابن أبي عُمير : فقلتُ : يا بن رسول الله ! فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى ذِكره يقول : **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ** ؛ ومَن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى ؟

فقال : يا أبا أحمد ! ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه ، وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : **كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً** . وقال عليه السلام : **مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ** . فمن لم يندم على ذنبٍ يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً . والله تعالى ذِكره يقول : **مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** .[1]

فقلتُ له : يا بن رسول الله ! وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنبٍ يرتكبه ؟

فقال : يا أبا أحمد ! ما من أحدٍ يرتكب كبيرةً من المعاصي وهو يعلم أنّه سيعاقَب عليها إلّا ندم على ما ارتكب ، ومتى ندم كان تائباً مستحقّاً

١ـ الآية ١٨ ، من السورة ٤٠ : غافر .

للشفاعة ، ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً ، والمصرّ لا يُغفر له ، لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم . وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : **لَا كَبِيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الإصْرَارِ.**

وأمّا قول الله عزّ وجلّ : **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ**، فإنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه ، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيّئات ، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة .[1]

ويتبيّن ممّا قيل في مسألة الشفاعة حتّى الآن أنّ الشفاعة ثابتة عموماً ، إلّا أنّها لا تشمل الجميع ولا تتحقّق في جميع الظروف والشرائط ؛ أي أنّها ليست مطلقة ، وقد سبق أن علمنا بأنّ الشفاعة تعني التوسّط في السببيّة والتأثير ، ولا معنى ـ عندئذٍ ـ للإطلاق في السببيّة ، وإلّا لكان أيّ واحد من الأسباب علّة في أيّ واحد من المسبّبات ؛ ولكان أيّ مسبّب معلولاً لأيّ سبب ، وهو قول يستدعي بطلان السببيّة ، وهو باطل بالضرورة .

وقد أُبهم هذا الأمر على مَن نفى الشفاعة ، فخُيِّل إليهم أنّها قد ذُكرت مطلقةً غير مقيّدة بشرطٍ ما ، لذا فقد اعترضوا عليها بعدّة اعتراضات ، ونسبوا هذه الحقيقة القرآنيّة إلى البطلان دونما تدبّر في معاني القرآن الكريم ودون تمعّن في مغزى كلام الله تعالى .

وقد ذكر أُستاذنا : سماحة آية الله العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه العالي في تفسيره «الميزان» سبعة اعتراضات على لسان المعترضين على الشفاعة ، ثمّ أجاب عليها واحداً بعد الآخر . ونورد فيما يلي خلاصةً لتلك

---

١ ـ «التوحيد» للصدوق ، ص ٤٠٧ و٤٠٨ ، الباب ٦٣ ، الأمر والنهي والوعد والوعيد .

الإشكالات والردود عليها :

الإشكال الأوّل : أنّ رفع العقاب عن المجرم يوم القيامة بعدما أثبته الله تعالى بالوعيد ، إمّا أن يكون عدلاً أو ظلماً . فإن كان عدلاً ، كان أصل الحكم المستتبع للعقاب ظلماً لا يليق بساحة قدس الحضرة الأحديّة . وإن كان ظلماً ، كانت شفاعة الأنبياء ـ مثلاً ـ سؤالاً للظلم من الله تعالى ، وهو جهل لا يجوز نسبته إلى ساحة الأنبياء صلوات الله عليهم .

والجواب على هذا الإشكال بالنقض والحلّ . فأمّا بالنقض فإنّه منقوض بالأوامر الامتحانيّة التي يكون فيها إثبات الحكم الامتحانيّ أوّلاً ورفعه ثانياً كلاهما من العدل وكلاهما صحيح ، لأنّ الحكمة في ذلك تتمثّل في اختبار سريرة المكلّف وإظهار نيّته ، أو إخراج ما في قوّته إلى الفعل .

ونقول أيضاً في مورد الشفاعة بأنّ من الممكن أن تكون النجاة مكتوبة لجميع المؤمنين ، ثمّ توضع الأحكام وما لمخالفتها من أنواع العقاب ، ليهلك الكافرون بكفرهم ، وأمّا المؤمنون فيرتفع بالطاعة درجات المحسنين منهم ، ويبقى المسيئون فينالون بالشفاعة تلك النجاة الغائيّة والسعادة النهائيّة ولو بالنسبة إلى بعض أنواع العذاب ، مع مقاساة عذاب البعض الآخر كأحوال البرزخ وأهوال يوم القيامة ، فيكون بذلك أصل وضع الحكم وعقابه أوّلاً عدلاً ، ورفع عقابه ثانياً عدلاً .

وأمّا الجواب بالحلّ ، فإنّ رفع العقاب بواسطة الشفاعة ـ كما ذكرنا ـ لا ينافي الحكم الأوّل ليستلزم العدل أو الظلم ، إذ إنّ تضادّ وتزاحم حكم العفو مع حكم العقاب إنّما يحصل عند مغايرتهما لبعضهما . أمّا حكم الشفاعة والعفو الذي يتبعها ، فله حكومته على الحكم الأوّل . أي أنّه يخرج المجرم عن كونه مصداقاً لشمول العقاب بجعله مصداقاً لحكم آخر مثل رحمة الله وعفوه وغفرانه وإكرامه مقام الشافع بالإكرام والإعظام .

فأين المغايرة والتضادّ في ذلك . إنّ كلا الحكمينِ صحيح ، وكلاهما صادق في موضوعه ومحلّه .

الإشكال الثاني : أنّ سنّة الله جرت على صون أفعاله من التخلّف والاختلاف ، فما قضى وحكم به يجريه على وتيرة واحدة من غير استثناء وعلى هذا جرت سُنّة الأسباب .

قال تعالى : **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**.[1]

وقال تعالى : **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**.[2]

وقال تعالى : **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا**.[3]

وتحقّق الشفاعة موجب للاختلاف في سنّة الله تعالى ، لأنّ رفع العقاب بالشفاعة عن جميع المجرمين موجب لنقض الغرض ، ونقض الغرض محال ، وهو لعب يُنافي حكمة الله تعالى ، ورفعه عن بعض المجرمين أو في بعض جرائمهم أو ذنوبهم موجب للاختلاف في فعل الله ، ومستلزم لتغيير سُنّته الجارية وطريقته الدائمة ، إذ لا فرق بين المجرمين في أنّ كلّ واحد منهم مجرم ، ولا بين الذنوب في أنّ كلاًّ منهم ذنب وخروج عن نهج العبوديّة . فتخصيص بعضهم أو بعض ذنوبهم بالشفاعة والصفح محال . وإنّما تجري سنّة الشفاعة وما يماثلها في هذه الحياة من ابتناء

١ـ الآية ٤٣ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٢ـ الآية ١٥٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٣ـ الآية ٤٣ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

الأعمال والأفعال على الأهواء والأوهام التي كثيراً ما تقضي في الحقّ والباطل على حدٍّ سواء ، وتجري عن الحكمة وعن الجهالة على نسق واحد .

والجواب أنّه لا ريب في أنّ صراط الله تعالى مستقيم وسنّته واحدة ، إلّا أنّ هذه السنّة الواحدة غير المختلفة ليست قائمة على أساس صفة واحدة من الصفات الإلهيّة ، كصفة التشريع والحكم ـ مثلاً ـ حتّى لا يتخلّف حكم عن مورده ، ولا جزاء حكم عن محلّه قطّ ؛ بل إنّ هذه السنّة قائمة بمجموع صفات الله المرتبطة بهذا الموضوع وهذه الجهة .

وبيان هذه الحقيقة هو أنّ الله سبحانه وتعالى هو الواهب الفرد ، والمفيض على جميع موجودات عالم التكوين بالحياة والموت والرزق والنعمة والقدرة وغيرها ، وهي أُمور مختلفة لا ترتبط به سبحانه على السواء ، ولا برابطة واحدة كيف كانت ، لانتفاء السببيّة إذ ذاك ، ولبطلان الارتباط والسببيّة حينئذٍ فهو تعالى لا يشفي مريضاً من غير سبب ومصلحة ، كما لا يشفي المريض بصفته الله المميت المنتقم الجبّار شديد البطش . أي أنّه تعالى لا يفيض الشفاء عن طريق هذه الصفات ، بل يشفي لأنّه الله الرؤوف الرحيم العطوف المنعم الشافي المعافي .

كما أنّ الله تعالى لا يهلك جبّاراً مستكبراً بلا سبب ومصلحة ، ولا يهلكه بصفته الله الرؤوف الرحيم ، بل بصفته شديد البطش شديد الانتقام . ولذا ، فإنّ كلّ حادث من حوادث هذا العالم ينضوي تحت اسم خاصّ وصفة خاصّة ، وإنّ الله تعالى يُنشئ بأسمائه الحسنى كلّ شيء بما يتناسب وذلك الاسم وتلك الصفة .

والقرآن الكريم يجهر بندائه الصريح بحقيقة أنّ كلّ حادث من الحوادث بما يشتمل عليه من جهات الوجود مستند إلى صفة أو أكثر من

صفات الحقّ وأسمائه المختلفة ، وأنّ تلك الحوادث ترتبط بذاته القدسيّة من خلال التلاؤم والائتلاف الواقع بينها والاقتضاء الناشئ من ذلك ، وبواسطة صفاته العليا وأسمائه الحسنى .

ويمكن القول باختصار بأنّ كلّ أمر من الأُمور يرتبط بالله تبارك وتعالى من جهة ما يتضمّنه ذلك الأمر من المصالح والخيرات . ولذلك فإنّ استقامة صراط الله ووحدة سببيّته وعدم تبدّل سنّته وعدم اختلاف فعله ، إنّما هو بالنسبة إلى ما يفعله . بجميع صفاته المرتبطة بذلك الشيء ، لا بالنسبة إلى مقتضى مصلحة واحدة فحسب .

وبعبارة أبسط ، فإنّه يحصل بواسطة نتيجة الفعل والانفعال والكسر والانكسار الواقع بين الأحكام والمصالح المرتبطة بالموارد والموضوعات ، لا بالنسبة إلى مقتضى مصلحة واحدة .

وبناء على ذلك ، فلوكانت سنّة الحكم المجعول هي فقط نفس الأجر في خصوص البرّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والعادل والفاسق ، فإنّها لن تتغيّر بطبيعة الحال . وسيجري هذا الحكم ـ من ثمّ ـ على وتيرة واحدة في جميع تلك الأحوال . لكنّنا نعلم بكثرة تلك الأسباب التي ربّما يستدعي توافق عدد منها أثراً يغاير الأثر الذي يقتضيه بعض تلك الأسباب .

والشفاعة حادثة كسائر الحوادث الأُخرى . وهي غير مستثناة من هذه القاعدة العامّة . لذا ، فإنّ رفع العقاب إثر الشفاعة إثر عدّة من الأسباب ، كالرحمة والمغفرة والحكم والقضاء وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه والفصل في القضاء ، لا يوجب اختلافاً في السنّة الجارية والصراط المستقيم ، بل من شأنه أن يُمضي هذه السنّة ويدعم هذا الصراط .

الإشكال الثالث : أنّ الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يصرف الشافعُ المشفوع عنده عمّا عزم عليه ، ويحمله على خلاف ما أراده أوّلاً ،

سواءً أراد فعل أمرٍ ما أم أراد تركه . فلا تتحقّق الشفاعة إلّا بترك الإرادة ونسخها لأجل الشفيع . فأمّا الحاكم العادل فإنّه لا يقبل الشفاعة إلّا إذا تغيّر علمه بما كان أراده أو حكم به ،كأن يقع في الخطأ ـ مثلاً ـ ثمّ يعرف الصواب ويرى أنّ المصلحة في خلاف ما أراده وحكم به .

أمّا الحاكم المستبدّ الظالم ، فإنّه يقبل شفاعة المقرّبين عنده في الشيء وهو عالم بأ نّه ظلم وأنّ العدل في خلافه ، لكنّه يفضّل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرّب عنده على العدالة والحكم بالحقّ .

وكلا النوعين من الشفاعة محال على الله تعالى ، لأنّه ليس ظالماً ، ولأنّ إرادته على حسب علمه ، وعلمه أزليّ لا يتغيّر ولا يتبدّل .

والجواب على ذلك أنّ الشفاعة ليست من قبيل تغيير الإرادة والعلم ، بل هي من قبيل التغيير في المراد والمعلوم ، إذ إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم بأنّ الإنسان الفلانيّ ستطرأ عليه حالات مختلفة ، فيكون في الحين الفلانيّ على الحال الفلانيّ ، وفي حينٍ آخر على حال آخر يخالف حاله الأوّل لاقتران أسباب وشرائط أُخر ، فيريد تعالى فيه بإرادة أُخرى ، إذ له ـ تعالى ـ إرادة مختلفة تبعاً لأحوال الناس المختلفة :

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ.[1]

يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ.[2]

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ.[3]

مثال ذلك : أنّنا نعلم أنّ الليل يحلّ فيشغل الظلامُ العالَم ، وتعجز

١ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٢ـ الآية ٣٩ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٣ـ الآية ٦٤ ، من السورة ٥ : المائدة .

أبصارنا عن الرؤية مع قيام الحاجة إليها .كما نعلم أنّ الشمس تشرق صباحاً فيزول ذلك الظلام وتزول حاجتنا إلى شيء يساعدنا على الرؤية .

لذا ، فحين يحلّ الليل فإن إرادتنا تتعلّق بإضاءة المصباح ؛ ثمّ ينتهي الليل فتتعلّق إرادتنا بإطفاء ذلك المصباح . ونرى في هذه الفرضيّة أنّ علمنا وإرادتنا لم يتغيّرا أبداً ، وأنّ المتغيّر كان المعلوم والمراد ، فخرجا عن كونهما منطَبقاً عليه للعلم والإرادة .

وبطبيعة الحال فإنّ الإرادة لا تتعلّق بكلّ مراد ، بل تتعلّق بالمراد الذي تعلّقت به هذه الإرادة ؛كما أنّ العلم لا ينطبق على كلّ معلوم ، بل ينطبق على خصوص المعلوم الذي تعلّق به العلم .

ولا يطرأ على هكذا علم وإرادة تغيير ولا فساد ، وكلّ منهما موجود في موضعه وعند تحقّق شرائطه ، وإنّما يتغيّر المعلوم والمراد ، أي أنّهما يخرجان عن كونهما منطبقاً عليه للعلم والإرادة ، فينتفي العلم والإرادة بانتفاء المراد والمعلوم . وإلّا فإنّ الإرادة موجودة ما دام المراد موجوداً ،كما أنّ العلم موجود ما دام المعلوم موجوداً ، وكلاهما ثابت باستمرار في موضوعه على نحو القضيّة الحقيقيّة ، لا يتغيّر ولا يتبدّل .

نعم ، إنّ تغيّر العلم والإرادة الذي يستحيل عليه تعالى هو بطلان انطباق العلم على المعلوم والإرادة على المراد مع بقاء المعلوم والمراد على حالهما ، وهو الخطأ والفسخ ، وذات الحقّ القدسيّة مبرّأة عن ذلك .كأن يرى الشخص شبحاً من بعيد فيحكم بكونه إنساناً ، ثمّ يقترب الشبح فيتّضح أنّه فَرَس لا إنسان . فقد تغيّر العلم في هذه الحالة مع بقاء المعلوم ؛ ونسبة ذلك إلى الحقّ أمر محال .

أوكأن يريد المرء فعل أمرٍ ما لمصلحة معيّنة يعلمها ، ثمّ يظهر له أنّ المصلحة في خلافه ، فتزول إرادة الفعل عند ذلك ؛ ولا يجوز نسبة ذلك إلى

الحقّ تعالى .

أمّا الشفاعة ورفع العقاب إثر الشفاعة فليست من هذا القبيل ، بل هي من قبيل تغيّر الإرادة بتغيّر المراد ، وتغيّر العلم بتغيّر المعلوم ، مع ثبات الإرادة والعلم على متعلّقهما من المراد والمعلوم . نظير إرادة العقاب عند عدم التوبة والاستغفار ، وإرادة الثواب عند التوبة والاستغفار .

الإشكال الرابع : أنّ وعد الشفاعة منه تعالى أو تبليغها من الأنبياء عليهم السلام مستلزم لتجرّي الناس على المعصية ، وإغراء لهم على هتك محارم الله تعالى ، وهو منافٍ للغرض الوحيد من الدين والتشريع والشرائع الإلهيّة ، من سَوْق الناس إلى العبوديّة والطاعة ، فلابدّ من تأويل ما يدلّ عليه من الكتاب والسنّة بما لا يتنافى وهذا الأساس البديهيّ .

والجواب عنه ، أوّلاً بالنقض ؛ وثانياً بالحلّ .

أمّا النقض ، فبالآيات الدالّة على شمول المغفرة وسعة رحمة الله تعالى ،كقوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ .[1]

وهذه الآية ـ كما مرّ سابقاً ـ في غير مورد التوبة ، بدليل استثناء الشرك المغفور بالتوبة .

وأمّا بالحلّ ، فإنّ وعد الشفاعة أو تبليغها إنّما يستلزم إغراء الناس بالمعصية بشرطين :

أوّلهما : تعيين المجرم بنفسه ونعته ، أو تعيين خصوص الذنب الذي تقع فيه الشفاعة تعييناً لا يقع فيه لبس بنحو الإنجاز ، من غير تعليق بشرط جائز .

١ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٤ : النساء .

وثانيهما : تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته ، بأن تقلعه من أصله تماماً .

فلو قيل ـ مثلاً ـ بأنّ جميع طبقات الناس ، أو الطائفة الفلانيّة منهم لا يُعاقبون على ما أجرموا ، ولا يؤاخذون فيما أذنبوا أبدا ؛ أو قيل بأنّ الذنب الفلانيّ لا عذاب عليه قطّ ، كان ذلك باطلاً من القول ولعباً بالأحكام والتكاليف المتوجّهة إلى المكلّفين .

أمّا إذا أُبهم أمر الشفاعة من حيث الشرطينِ ، فلم يعيّن أنّ الشفاعة في أيّ الذنوب وفي حقّ أيّ المذنبين ، أو أنّ العقاب المرفوع هو جميع العقوبات وفي جميع الأوقات والأحوال ، فلا يعلم المرء هل ينال الشفاعة الموعودة أو لا ، فلن يكون هناك تجرٍّ على هتك محارم الله تعالى .

غير أنّ ذلك الوعد بالشفاعة يوقظ قريحة رجاء نفس المذنب وأملها ، فلا يجعل مشاهدتها ذنوبها وآثامها التي اقترفتها قنوطاً من رحمة الله ، ويأساً من رَوح الله تعالى .

ومن الجليّ أنّ اليأس هو منشأ جميع أنواع الشقاء والتعاسة ، وأنّ الرجاء منبع أنواع السعادة والنشاط والحيويّة .

وبغضّ النظر عن ذلك ، فإنّ الله تعالى وعد بمغفرة الصغائر في قوله عزّ من قائل : **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ،[1] الدّال بصراحة على رفع عقاب السيّئات والمعاصي الصغيرة على تقدير اجتناب المعاصي الكبيرة . فإذا جاز أن يقول الله سبحانه : إن اتّقيتم الكبائر عفونا عن صغائركم ؛ فلماذا لا يجوز أن يقول : إن تحفّظتم على إيمانكم ، فجئتموني يوم القيامة بإيمان سليم ، قبلتُ فيكم شفاعةَ الشافعين ؟!

١ـ الآية ٣١ ، من السورة ٤ : النساء .

ولكن ، مَن يطمئن أنّه سيأتي ربّه بإيمان سليم ، وأنّه سيحفظ إيمانه حتّى ذلك الحين ؟

فالمعاصي تقسّي القلب وتضعف الإيمان وتجلب الشرك . ألم يقل تعالى : **فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ**.[1]

ألم يقل : **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**.[2]

ألم يقل : **ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ**.[3]

ولربّما أوجب الرجاء في الشفاعة إقلاع الشخص العاصي عن معاصيه ، وركوبه صراط التقوى ، وصيرورته من المحسنين . بينما قد يقول إذا انعدمت في وجوده أيّة نافذة للرجاء : لقد قُضي الأمر ، وبلغ السيل الزُّبى ؛ وإذا طغى الماء ، فما الفرق أن يغمر شخصاً واحداً أو مائة ؟ وما دمنا من أصحاب النار ، فلماذا نفعل أعمال الخير ؟

أمّا إذا لاحت أمام أعينه نافذة رجاء العفو وطلائع الرحمة ، ورجى شموله بالشفاعة ، فلربّما أقلع عن غيّه وانزجر عن معاصيه ، وانساق إلى الطاعات والعبادات ، **وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْعَظِيمُ**.

وكذا إذا عُيّن المجرم المشفوع له ، أو الجرم المشفوع فيه ، وصُرّح بشمولها على بعض جهات العذاب أو بعض أوقاته ، فإنّه لن يوجب تجرّي المجرمين قطعاً .

والقرآن الكريم لم ينطق في خصوص المجرمين ، وفي خصوص

١ـ الآية ٩٩، من السورة ٧: الأعراف.

٢ـ الآية ١٤، من السورة ٨٣: المطفّفين.

٣ـ الآية ١٠، من السورة ٣٠: الروم.

الذنب بالتعيين ، ولم ينطق في رفع العذاب إلّا بالبعض ؛ فلا إشكال أساساً .

الإشكال الخامس : أنّ الأدلّة التي ذكرها القائلون بالشفاعة هي إمّا عقليّة أو نقليّة ؛ فأمّا الدليل العقليّ فإنّه لو دلّ ، فإنّما يدلّ على إمكان وقوع الشفاعة لا على فعليّة وقوعها ، مضافاً إلى أنّ أصل دلالته ممنوع .

وأمّا الدليل النقليّ ، فما يتضمّنه القرآن لا دلالة فيه على وقوع الشفاعة ، فإنّ آيات القرآن في هذا الشأن على ثلاثة أقسام :

الأوّل : الآيات الدالّة على نفي الشفاعة مطلقاً ،كقوله تعالى : **لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ** .[1]

الثاني : الآيات الدالّة على نفي فائدة الشفاعة مطلقاً ،كقوله تعالى : **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ** .[2]

والثالث : الآيات الدالّة على تقييد الشفاعة بإذن الله ومشيئته ،كقوله تعالى : **إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ** .[3] وآية : **إِلَّا بِإِذْنِهِ** .[4]

وآية : **إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ** .[5]

وهي آيات تدلّ بدورها على نفي الشفاعة ، لأنّ هذا الاستثناء استثناء بإذن الله ومشيئته سبحانه في مقام النفي القطعيّ للإشعار بأنّه لا شيء أعلى من مشيئة الله وإذنه ، وأنّ كلّ شيء منوط بإذنه تعالى ومشيئته ؛كقوله تعالى : **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** .[6]

١ـ الآية ٢٥٤، من السورة ٢: البقرة.

٢ـ الآية ٤٨، من السورة ٧٤: المدّثّر.

٣ـ الآية ٣، من السورة ١٠: يونس.

٤ـ الآية ٢٥٥، من السورة ٢: البقرة.

٥ـ الآية ٢٨، من السورة ٢١: الأنبياء.

٦ـ الآيتان ٦ و٧، من السورة ٨٧: الأعلى.

وقوله تعالى : **خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** .[1]

أي ليس فوق إرادة الله ومشيئته شيء . وليس المراد مجيء ظرف تتعلّق به هذه الإرادة الإلهيّة خارجاً . فليس هناك ـ إذاً ـ من نصٍّ قطعيّ على الشفاعة في القرآن الكريم .

وأمّا السنّة ، فلا تعويل على ما دلّت عليه الروايات من الخصوصيّات ؛ وأمّا المتيقّن منها ، فلا يزيد على ما في الكتاب دلالة .

والجواب : أمّا عن الآيات النافية للشفاعة ، فقد ذكرنا أنّها لا تنفي مطلق الشفاعة ، بل الشفاعة بغير إذن الله وارتضائه . وأمّا عن الآيات النافية لمنفعة الشفاعة ـ على زعم المستشكل ـ فإنّها تثبت الشفاعة ولا تنفيها .

والآيات الواقعة في سورة المدّثر إنّما تنفي الانتفاع عن طائفة خاصّة من المجرمين لا عن جميعهم . ومع ذلك فالشفاعة مضافة لا مجرّدة مقطوعة عن الإضافة . وفرقٌ بين أن يقول القائل : **فَلَا تَنفَعُهُم الشَّفَاعَةُ** ؛ وبين أن يقول : **فَلَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ** ، فالمصدر المضاف يُشعر بوقوع الفعل في الخارج ، بخلاف المقطوع عن الإضافة . وقد نصّ على ذلك **الشيخ عبد القاهر** في «**دلائل الإعجاز**» .

فقوله : **شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ** ، يدلّ على أنّ شفاعةً ما ستقع ، غير أنّ هؤلاء لا ينتفعون بها . على أنّ الإتيان بصيغة الجمع في **الشَّـٰفِعِينَ** ـ حيث لم يأت التعبير بالمفرد ؛ **الشافع** ـ يدلّ على تحقّق الشفاعة في الخارج ؛ كقوله : **كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ** ؛[2] وقوله : **كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ** ؛[3] وقوله : **كَانَ مِنَ**

١ـ الآية ١٠٧ ، من السورة ١١ : هود .

٢ـ الآية ٨٣ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣ـ الآية ٣٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

ٱلْغَاوِينَ ؛[1] وقوله : **لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ** ،[2] وأمثال هذه الآيات .

ولولا ذلك ، لكان الإتيان بصيغة الجمع ـ وله مدلول زائد على صيغة المفرد ـ لغواً زائداً في الكلام . فقوله : **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ** من الآيات المثبتة للشفاعة دون النافية لها .

وأمّا الإجابة عن الآيات المشتملة على استثناء الإذن والارتضاء ، فدلالة قوله : **إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ** وقوله : **إِلَّا بِإِذْنِهِ** هي على وقوع الشفاعة . لأنّ المصدر مضاف ، وذلك ممّا لايخفى على العارف بأساليب الكلام والأدب العربيّ .

وكذا قوله : **إِلَّا بِإِذْنِهِ** ؛ و : **إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ** بمعنى واحد هو المشيئة ، ممّا لاينبغي الإصغاء إليه . على أنّ الاستثناء واقع في مورد الشفاعة بوجوه مختلفة ؛كقوله : **إِلَّا بِإِذْنِهِ** ؛ و : **إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**؛ و : **إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ** ؛ و : **إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ، وغير ذلك .

فهبْ أنّ الإذن والارتضاء واحد ، وهو المشيئة ، فهل يمكن التفوّه بذلك في قوله : **إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**؟ وهل المراد بهذا الاستثناء هو استثناء المشيئة أيضاً ؟

فهكذا تساهل في البيان ممّا لا يصحّ أن ينسب إلى كلام سوقيّ ، فكيف بالكلام البليغ ؟ وكيف بأبلغ الكلام ؟!

وأمّا الإجابة عن السنّة والروايات ، فإنّ دلالتها ـ إجمالاً ـ على الشفاعة للمؤمنين في المعاصي الكبيرة عند بقاء الإيمان ، وذلك ممّا لا يعتريه شبهة ولا ريب . وقد وردت الروايات المستفيضة ، بل المتواترة ، في شفاعة رسول الله والأنبياء والأئمّة الطاهرين عليهم السلام ،

١ـ الآية ١٧٥ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآية ١٢٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

ودلالتها مطابقة لدلالة الآيات القرآنيّة .

الإشكال السادس : أنّ الآيات الواردة في الشفاعة ليست صريحة في رفع العقاب الثابت على المجرمين يوم القيامة بعد ثبوت الجرم ولزوم العقاب ، بل المراد بها شفاعة الأنبياء ، بمعنى توسّطهم ـ بما هم أنبياء ـ بين الناس وبين ربّهم بأخذ الأحكام بالوحي وتبليغها للناس وهدايتهم .

وهذا المعنى للشفاعة والتوسّط كالبذر ينمو وينشأ منه ما يستقبله من الأقدار والأوصاف والأحوال . فالأنبياء عليهم السلام شفعاء المؤمنين في الدنيا وشفعاؤهم في الآخرة .

والجواب : أنّه لا شكّ في أنّ عمل الأنبياء من جهة نبوّتهم نوع من أنواع الوساطة والشفاعة ومصداق من مصاديقها ، إلّا أنّ الشفاعة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ غير مقصورة فيه . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**.[1]

وقد ذكرنا أنّ الآية في غير مورد الإيمان والتوبة ، لأنّ الشرك سيُغفر فيه أيضاً عند تحقّق التوبة والإيمان ، والشفاعة التي ذكرها المستشكل في الأنبياء إنّما هي بطريق الدعوة إلى الإيمان والتوبة .

الإشكال السابع : أنّ طريق العقل لا يوصل إلى تحقّق الشفاعة وإثباتها ، وما نطق به القرآن آيات متشابهة تنفي الشفاعة تارةً وتثبتها أُخرى ، وربّما قيّدتها وربّما أطلقتها . والأدب الدينيّ يقتضي الإيمان بها وإرجاع علمها إلى الله تعالى .

والجواب عنه : أنّ الآيات المتشابهة في الشفاعة تصير بإرجاعها إلى المحكّمات محكمات مثلها ، وهو أمر ميسور لنا غير مضروب دونه

١ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٤ : النساء .

الستر ،كما سيجيء بيانه عند قوله تعالى :

مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ... وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ.[١]

أمّا قول البعض بانعدام الدليل العقليّ على الشفاعة ، فجوابه أن الأمر ليس منحصراً في خصوص الشفاعة ، بل إنّه يشمل كثيراً من الخصوصيّات التفصيليّة لمسائل المعاد ، لأنّ البراهين العقليّة لا يمكنها أن تحلّ كمقدّمات متوسطة في إنتاج المسائل المعاديّة على نحو التفصيل . لذا ، فاستخلاص النتائج العقليّة من البرهان لن يكون ميسوراً في مثل هذه المسائل ؛ وقد صرّح بهذا المطلب ابن سينا في «الشفاء» . إلّا أنّ الأدلّة العقليّة تُعدّ كافية لإنتاج الكمالات العقليّة والمثاليّة للإنسان خلال مسيرة السعادة والشقاء بعد مفارقة نفس الإنسان لبدنه ، بسبب حصول التجرّد المثاليّ والتجرّد العقليّ ، لأنّ التجرّد المثاليّ والعقليّ من المسائل التي بُرهن على صحّتها في الحكمة المتعالية .

وعلى هذا الأساس يمكننا إقامة الدليل العقليّ على حصول الشفاعة للمذنبين والعاصين .

الدليل العقليّ على شفاعة النفوس الكاملة للنفوس الضعيفة يوم القيامة

وبيان هذا المطلب هو أنّ الإنسان إذا فعل فعلاً قبل أن يبلغ مرحلة الفعليّة ، أنتج ذلك الفعل في نفسه هيئة نفسانيّة وحالاً من أحوال السعادة أو الشقاء . والمراد بسعادة ذلك الفعل هو كونه خيراً قد حصل للإنسان بوصفه إنساناً ، والمراد بشقاء الفعل عكس ذلك ، أي كونه فعلاً يعدّ شراً للإنسان

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١ ، ص ١٦٤ إلى ١٧١ . والآية هي الآية ٧، من السورة ٣ : آل عمران .

بوصفه إنساناً . ثمّ تحصل في نفس الإنسان ملكة راسخة من خلال تكرار أفعال الخير والشرّ ، فيحصل له بتلك الملكة الراسخة صورة نفسانيّة سعيدة أو شقيّة ، بحيث تصبح تلك الصورة النفسانيّة البسيطة الواحدة منشأ لظهور هيئات وصور كثيرة أُخرى .

فإن كانت تلك الصورة النفسانيّة سعيدة ،كانت جميع آثارها وجوديّة ومنسجمة مع تلك الصورة ومع أصل نفس الإنسان ، باعتبار أنّ النفس الإنسانيّة بمثابة مادّة قابلة لتحقّق تلك الصورة وتجسّدها .

أمّا لو كانت تلك الصورة النفسانيّة شقيّة ، فتكون جميع آثارها عدميّة عائدة إلى الشرّ والخسران من حيث التحليل .

ومن هنا ، فالنفس الإنسانيّة السعيدة تلتذّ بآثارها بصفتها نفساً إنسانيّة ،كما تلتذّ بها باعتبار بلوغها فعليّة السعادة . وفي المقابل فإنّ النفس الإنسانيّة الشقيّة تنزعج وتتألّم من آثارها ، بصفتها نفساً إنسانيّة ، على الرغم من انسجامها معها وأُنسها بها لكونها سبب نشوئها وظهورها . هذا بالنسبة إلى النفوس الكاملة ، سعيدة كانت أم شقيّة ، أي بالنسبة إلى الإنسان الذي له ذات سعيدة وأفعال صالحة حسنة ، وبالنسبة إلى الإنسان الذي له ذات شقيّة وأفعال فاسدة .

أمّا النفوس الناقصة فهي على صنفينِ :

الأوّل : النفوس التي لها ذوات سعيدة وأفعال شقيّة ، بمعنى أنّ تلك النفوس تمتلك صوراً سعيدة واعتقاداً حقّاً ثابتاً ، إلّا أنّ هيئات شقيّة ورديئة طرأت على تلك النفوس من المعاصي والذنوب والانحرافات التي اكتسبتها تلك النفوس الإنسانيّة من خلال تعلّقها بالأبدان الدنيويّة ، ومن خلال تلوّث تلك النفوس بواسطة ارتضاعها ثدي الاختيار حتّى الارتواء ، فتسبّب ذلك في تراكم صدأ الحُجب وغبار ظلمة الكثرة وآثارها .

ومن الجليّ في هذه الحال أنّ هذا الدنس الظاهريّ يمثّل أُموراً قسريّة غير منسجمة مع ذوات النفوس السعيدة . والبرهان قائم على عدم دوام الأُمور القسريّة ، لذا فإنّ هذه النفوس الصالحة المؤمنة السعيدة ستطهر من خلال الضغوط والمحن التي تواجهها خلال الحياة الدنيا ، أو في عالم المثال والبرزخ ، أو في يوم القيامة وأهوالها ، حسب مقدار ذلك الدنس ومقدار ترسّخه في تلكم النفوس .

والصنف الثاني هو النفوس التي لها ذوات شقيّة وأفعال سعيدة ، أي أنّ تلك الذوات تمتلك صورة شقيّة ، إلّا أنّ ظاهراً قسريّاً عرض عليها من خلال طروء الهيئات الحسنة من الطاعات والعبادات على تلك النفوس . وسيفنى ويزول هذا الظاهر عاجلاً أم آجلاً ، فتظهر حينها تلكم الذوات الشقيّة في شقائها .

أمّا النفوس التي لم تبلغ مرحلة الفعليّة ، في أيّة من جهتي السعادة والشقاء ، فبقيت ناقصة وضعيفة عند مفارقتها لأبدانها ، فهي ممّن وُصفوا بأنّهم **مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَهِ** يقضي فيهم ما يشاء .

وهذا المطلب هو مقتضى برهان الجزاء في الثواب والعقاب ، وهو من لوازم الأعمال ونتائجها ، لأنّه ينبغي للأُمور الوضعيّة والعلاقات الاعتباريّة أن تعود في نهاية المطاف إلى العلاقات الوجوديّة الحقيقيّة .

ومن جهة أُخرى فإنّ البرهان قائم على أنّ الكمالات الوجوديّة تختلف فيما بينها بحسب مراتب الكمال والنقص ، والشدّة والضعف . وهذه هي مسألة التشكيك ، و خاصّة في النور المجرّد .

ومن هنا ، فإنّ للنفوس مراتب تختلف في قُربها وبُعدها عن مبدأ الكمال ومنتهاه خلال سيرها الارتقائيّ وفي عودتها إلى حيث بدأت ،

بحيث تقف في درجات يعلو بعضها البعض الآخر ، وخاصة فيما يتعلّق بالعلل الفاعلة ووسائط الفيض من جانب الحقّ الأوّل تبارك وتعالى .

لذا ، فالنفوس الكاملة ،كنفوس الأنبياء عليهم السلام ونفس رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خاصّةً ، التي تقف في ذروة درجات الكمال والفعليّة وفي أرقى منازلها ، لها مقام الوساطة في إزالة الهيئات الشقيّة الرديئة عن نفوس الضعفاء وعن النفوس التي تقف أدنى منها في الدرجة ، إن كانت تلك النفوس من نفوس السعداء الذين طرأت على نفوسهم تلك الهيئات الشقيّة الرديئة ، وهذه هي حقيقة الشفاعة الخاصّة في يوم القيامة ، وهي مختصّة بمرتكبي الذنوب الكبيرة .

وكما شاهدنا ، فقد كان ما ذكرناه برهاناً عقليّاً على هذا المطلب ، **وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.**

الشفاعة لا تستدعي تجرّي الأُمّة الإسلاميّة على المعصيّة

وأمّا ما ذكره بعض الباحثين في المسائل الاجتماعيّة من أنّ الشفاعة تستدعي تراخي الناس في مجال العمل ، وانحرافهم عن الصراط المستقيم من خلال اعتمادهم على أمر المغفرة الحتميّة ، فهو أيضاً كلام عارٍ عن الحقيقة . ويتلخّص مجمل هذه الشبهة بما يلي : أنّ القوانين الجزائيّة المطبّقة في المجتمعات البشريّة عقاباً وثواباً ، لو نُفّذت على نحوٍ جيدّ ، لتسبّب ذلك في زيادة احترام الناس لتلك الأحكام الأوّليّة التي دُوّنت ووضعت في تلك المجتمعات من أجل إصلاحها وتنميتها ، وأنّ أفراد أيّ مجتمع سيبلغون ـ وعلى نحوٍ أفضل ـ الهدف المنشود من الرقيّ والإصلاح في ظلّ تطبيقهم للأحكام والقوانين الأوّليّة الموضوعة في ذلك المجتمع ، حسب اختلاف تلك القوانين الموضوعة .

أمّا إذا تقرّر تعطيل العمل بالقوانين الجزائيّة لسببٍ ما ، فإن ذلك سيوجب تساهل الأفراد في تطبيق القوانين ، وإلى جرأة أهل الهوس على التعدّي . لذا ، ينبغي إغلاق سبيل احتمال نجاة المجرم من العقاب بواسطة الارتشاء أو الشفاعة أو الفدية والعوض ، أو بسائر أنواع الحيل ، منعاً لحصول المجرم على نافذة للخلاص عند ارتكابه للجرم ، وردعاً له في النتيجة عن ارتكاب الجرم .

وعلى هذا الأساس العامّ فقد وُجّه الانتقاد إلى المسيحيّة بأنّ ما ورد فيها من أن عيسى كان مستعداً لاعتلاء خشبة الإعدام فداءً لذنوب العاصين هو أمر غير صحيح ، لأنّ أتباع المسيحيّة سيتكّلون على فداء عيسى لتخليص أنفسهم يوم القيامة من حكم الله تعالى وإنقاذها من طائلة العقاب ، فيعكفون لذلك على الذنوب والمعاصي .

وفي هذه الحال ، فإنّ الدين سيتسبّب في انهيار التعاليم الأخلاقيّة واضمحلال شرف النفس وعفّتها ، وفي سقوط مقام الإنسانيّة الشامخ ، وإلى سَوْق الإنسان المتحرّك نحو كماله وسعادته القهقرى ، إلى الانحراف ، وإكسابه الرذائل الأخلاقيّة بدلاً من الفضائل وبدلاً من أن يكون ذلك الدين مدعاة لرقي المجتمعات وصعودها إلى كمال الإخلاق والإنسانيّة . وقد دلّت إحدى الإحصائيّات على أنّ المتديّنين بالمسيحيّة يكذبون ويتنكّبون عن صراط الأخلاق والعفّة والعدل أكثر من غير المتديّنين منهم ، والعلّة في ذلك هي اعتماد أتباع شريعة عيسى على حقّانيّة دينهم وتعويلهم على شفاعة المسيح يوم القيامة ، وعدم مبالاتهم بالتدنّس بالذنوب والمعاصي ؛ خلافاً للذين لم ينتهجوا ديناً معيّناً ، والذين أسلسوا قيادهم لغرائزهم وصفاتهم الفطريّة ، إذ لم يُبطل حُكمَ الأخلاق والصفات الغريزيّة والفطريّة في وجود هؤلاء شيء ، فتكفّلت الفطرة الإنسانيّة والأخلاق وحكم الوجدان

بردعهم عن المعصية والجريمة .

وبناء على هذا الأساس ، فقد لجأ كثير من الباحثين في العلوم الإسلاميّة إلى تأويل مسألة الشفاعة الواردة في الإسلام عن مدلولها الابتدائيّ وحملوها على معانٍ أُخرى ، مثل الشفاعة التكوينيّة والشفاعة والوساطة في تبليغ الأحكام ، والتوسّط في إرشاد الأُمّة وهدايتها إلى سبيل الكمال من خلال إبلاغ الرسالات الإلهيّة ، على الرغم من دلالة الآيات القرآنيّة على تلك الشفاعة وإمضاء سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لذلك الحكم الإلهيّ حسب ما جاءت به الروايات المستفيضة المتضافرة .

ونقول في الإجابة على هذه الفئة:بأنّها أخطأت في جميع جوانب البحث ، وأنّها لفّقت كلامها دونما تعمّق في موضوع الشفاعة وحكمها . فالإسلام أوّلاً لم يقرّر مثل هذه الشفاعة التي وضعوا لها هذا التفسير ،كما أنّ الشفاعة التي أكّدها الإسلام ليس لها آثار وخصائص كالتي تخيّلوها . على أنّ من الأجدر بمن يتعمّق في مسائل الإسلام الاجتماعيّة أن يغور في بحث معارفه الدينيّة وأحكامه التشريعيّة القائمة على هيكل المجتمع الصالح والمدينة الفاضلة ، وأن يطبّق جميع الجوانب التي أوردها الإسلام من الأُسس والقوانين الاجتماعيّة على مواردها الخاصّة ، ثمّ ينظر إلى ما تعنيه الشفاعة الموعودة ، وإلى موضعها بين المعارف التي ذكرها الإسلام والأُسس التي ترتكز عليها .

وينبغي أن يُعلم في بداية الأمر بأنّ الشفاعة التي أثبتها القرآن الكريم خاصّة بالمؤمنين ، وأنّها تعني عدم خلودهم يوم القيامة في نار جهنّم ، بشرط أن يأتوا ربّهم بإيمان مرضيّ ودين حقّ .

هذا هو الوعد الذي وعد القرآن المؤمنين بتحقّقه ، جُعل مشروطاً ببقاء الإيمان والنهج المرضيّ السديد الحميد .

ومن جهة أُخرى فقد بيّن الإسلام أنّ بقاء الإيمان في خطر عظيم ، حيث تهدّد الذنوب ـ وعلى الأخصّ الكبائر منها ـ بقاءَ إيمان المؤمن، خاصّة إدمان ارتكابها والإصرار عليها ؛ ذلك أنّ نفس ارتكاب المؤمن ،خصوصاً لكبائر المعاصي،والإدمان عليها والعكوف عليها ، سيؤدّي إلى كسر ذلك الإيمان ، وقد يؤدّي إلى الهلاك الدائميّ والشقاء الأبدي .

لذا ، فإنّ الشخص العاصي يقف باستمرار على مشارف الهلاك ، وعلى شفا جرف الزوال والبوار .

وتبعاً لذلك فلن يكون بمقدور المذنب أن يحسب نفسه بمنجاة من العقاب ، بل يراها متأرجحة على الدوام بين أمل النجاة والخوف من الهلاك .كما أنّ نفس المؤمن تتردّد دوماً بين الخوف والرجاء ، فهو يعبد الله تعالى رغبة ورهبة .كما أنّ له سيراً في حياته الدنيويّة لا يجرّه إلى مرحلة اليأس ، ولا يوقفه عند مرحلة التساهل والتكاسل والوثوق الكاذب .

كما ينبغي أن يُعلم ثانياً بأنّ الإسلام قد وضع قوانينه الاجتماعيّة في الأُمور الماديّة والمعنويّة معاً ودوّنها على نحوٍ يجعلها تشمل جميع حركات الفرد والمجتمع وسكناتهما ، وأنّه أقرّ لكلٍّ واحد منهما جزاءً دنيويّاً مناسباً ، من العقاب والقضاء والكفّارة والدية والحدّ والتعزير وغير ذلك ، وصولاً إلى الحرمان من الحقوق الاجتماعيّة والتوبيخ والملامة .كما أنّه عمل من أجل ضمان هذه الجهات ـ إضافة إلى دعمه حكومة أُولي الأمر ـ على إيجاب قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعل الجميع يتنافسون في تنفيذه ، وجعل بعضهم رقيباً على البعض الآخر ، ثمّ لم يكتفِ بذلك ، بل نفخ أصالة روح الدعوة الدينيّة في أمر حفظ الملكينِ الملازمينِ للانسان وتدوينهما أعماله وسلوكه في السرّ والعلن ، وفي الخلوة وبين الملأ ، فكبح جماح الإنسان باستمرار عن الإفراط والتفريط والاعتداء على

الحقوق والنواميس والتعدّيات التي تنجم عن قواه الشهويّة والبهيميّة والغضبيّة والوهميّة ، وعن استكباره وتمرّده على ذلّ العبوديّة ، فساقه إلى الصراط المستقيم في العلم والعمل والعقيدة ، وفي الظاهر والباطن . كما حافظ على توازن الإنسان من خلال الإنذار والتبشير ، والوعد بالثواب والوعيد بالعقاب في مراحل الآخرة التي تعقب عالم الدنيا ، وقد أرسى الإسلام وباستمرار أُسسه في تربية المجتمع من خلال تلقينه معارف المبدأ والمعاد وفق هذا النهج ، ولفت نظره بهذه الكيفيّة .

وهذه هي الجوانب الدينيّة الحقيقيّة التي جعلت الناس يعيشون على الأمل الدائم ، ونجّتهم من براثن اليأس المطلق والانتحار وارجعت المرء على الدوام إلى أصالة نفسه وحقيقتها ، وأعلنت بأنّ الله تعالى هو الرقيب الحاضر والشاهد الدائم .

وحقّاً ، فإنّ مثل هذه التعاليم والأحكام ستؤدّي إلى ترعرع عالم السعادة والأمل في قلوب المذنبين،وخاصّة إذا اقترنت تلك التعاليم بالرحمة والشفاعة التي تخصّ المستأهلين. بل ما أكثر ما نجّت أُولئك المذنبين من الهلاك الأبديّ بهذه البشرى بالرحمة والمغفرة ، وهذه هي حقيقة الشفاعة وآثارها الإيجابيّة .

وثانياً : فإنّ الشفاعة التي ذكرها الإسلام تشريعاً بلحاظ الآيات القرآنيّة والروايات الواردة عن النبيّ والأئمّة عليهم السلام عائدة إلى يوم القيامة . وأثرها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ يتمثّل في إنقاذ المؤمنين من الخلود في النار . أمّا سائر أنواع العذاب الدنيويّ والأُخرويّ، فمحفوظة في مواضعها .

لذا ، فهذه الأحكام الجزائيّة من الحدود والتعزيرات ، وهذه الأحكام التكوينيّة الدنيويّة ، من انعكاسات الذنوب ، وشدّة سكرات الموت ، وهول

عالم القبر وسؤال منكر ونكير ، وأنواع الغصص والآلام المثاليّة البرزخيّة . وهول البعث والنشور والقيام في يوم القيامة ، ومقام العرض وغير ذلك . محفوظة بأجمعها كلاًّ في موضعه .

وافرضوا الآن أنّ المؤمن يوقن بأنّه لن يخلّد في جهنّم : أفلا يكفي نفس وروده عالم البرزخ ومكثه فيه بالقدر الذي يطهّره - ومشقّات ومصاعب عالم القيامة ، من السؤال والحساب والميزان والصراط وصحيفة الأعمال والموقف عند الله تعالى ، ومصاعب عالم البرزخ وتطاوله ، وعالم القيامة - أفلا يكفي كلّ هذا في ردع المؤمن عن الذنب وصرفه عنه ؟

وبغضّ النظر عن ذلك ، أفينحصر سبيل ردع المؤمن عن المعصية في تخويفه وإنذاره ؟ أفلا يكفي نظر رحمة الربّ الودود وهبوب نسائم الجذبات الإلهيّة والنغمات القدسيّة لسَوْق المؤمن إلى المنزل المقصود وهدايته إلى حرم أمن الله وأمانه ؟ أفلا يكفي ذلك لإحراق جذور المعصية واستئصالها من وجوده .

وثالثاً : أنّ هذه الشفاعة بذاتها هي سبب لتقليل الذنوب وليس لزيادتها ، لأنّ اتّهام أتباع عيسى بأنّ ذنوبهم تفوق ذنوب سائر الأقوام لم يقم الدليل على صحّته ، وسيبقى مجرّد ادّعاء يفتقر إلى الدليل ؛ يضاف إلى ذلك أنّ إحصائيّة ذنوب المسيحيّين وتجرّؤهم على المعصية لا تشير إلى هذا الأمر ، بل الأمر عند اليهود أشدّ وأكثر ، والخشونة والعنف في أوساطهم أكثر بأضعاف مضاعفة . وفي المقابل فإنّ الرحمة والعطف والشفقة في أوساط المسيحيّين تفوق نظائرها لدى اليهود . وهو أمر نابع من أمر الشفاعة والاعتقاد بتضحية السيّد المسيح ، على الرغم من أنّ ذلك لا حقيقة له .

يضاف إلى ذلك أنّ القرآن الكريم وصف المشركين واليهود

بالفظاظة والغِلظة والقسوة وتحجّر القلوب وتبلّد الأحاسيس ، ونعتهم بشدّة عدائهم للمؤمنين . بينما نعت المسيحيّين في مواضع بالرحمة والرأفة والعطف ، ووصفهم بأنّهم : **أقربهم مودّةً للمؤمنين** .

والعلّة في مماثلة الدين المسيحيّ للدين الإسلاميّ في سرعة الانتشار وسرعة اعتناق الناس له تكمن في هذه الرحمة والجوانب العاطفيّة التي تنسجم مع فطرة البشر .

وعلى أساس رحمة السيّد المسيح هذه صرنا نرى الكثير من أتباعه يشاركون في أعمال ذات جانب عاطفيّ كبير ، كمعالجة المجذومين وتمريضهم ، وصرنا نشاهدهم وهم يعرّضون أنفسهم إلى مثل هذه الأُمور الشاقّة تعظيماً منهم لتضحية المسيح الذي جسّد أمامهم ينبوع الرحمة . أمّا قساوة المسيحيّين وغلظتهم في كثير من الأُمور ، فغير نابعة عن تلك الشريعة ، بل ناشئة عن انحرافهم عنها .

والأمر كذلك بالنسبة إلى المسلمين الذين يؤدّي انحرافهم عن الشريعة النبويّة المقدّسة ـ بدل تمسّكهم بها ـ إلى قساوتهم وتجرّؤهم .

ونلحظ بالوجدان والبديهة أنّ العطف والمودّة والرحمة لدى الشيعة تفوق نظائرها لدى غيرهم ، بسبب اقتفاء الشيعة خطوات أئمّتهم في الدين الذين ضحّوا بكلّ ما لديهم فداءً للإسلام والمسلمين ، فأشرقت في نفوس الشيعة روح الرقّة واللين حتّى صار ذكر الإمام الحسين عليه السلام ـ وهو الذي فدى نفسه عملاً بمذهب جدّه رسول الله وبنهج أبيه عليّ وليّ الله ـ كافٍ بمفرده لكبح بحار ثائرة من الغضب والحقد والطمع والبخل وغيرها ، ولتفجير بحار من الرحمة والمودّة واللين والإيثار والعفو تجاه المجتمعات والأقوام والملل الأُخرى . أفليس هذا ناشئاً عن الشفاعة العمليّة ؟!

إنّ هذه الشفاعة العينيّة الظاهريّة تمتلك باطناً وحقيقة في الملكوت

الأعلى ، وستطلع هذه الشفاعة هناك أيضاً ، فتحرق بيادر الذنوب وتستأصلها بشرارة واحدة من الرحمة .

والسبب الذي حدا بهؤلاء الباحثين إلى تصوّر عدم امتلاك الشفاعة لمثل هذا الأساس الراسخ ، هو أنّهم تطلّعوا إلى الإسلام من زاوية واحدة وجانب واحد ، وهو الجانب الظاهريّ المتمثّل في القوّة والشوكة والأمر والنهي والتنظيم والجزاء والعقاب . وإذ أعموا هؤلاء المساكين أنفسهم بأيديهم ، فلم يكن لهم بعدُ ثمّة أعين ينظرون بها إلى الإسلام ليعلموا أنّ له كذلك مقاماً للرحمة والعطف والإيثار والعفو والعرفان والتوحيد والفناء والولاية والشفاعة وآلاف من الأُمور المعنويّة والحقيقيّة والباطنيّة والروحيّة التي يجهلون أمرها .

يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ.[1]

أجل ، إنّ نتيجة امتلاك عين واحدة هي الحرمان عن إدراك كثير من الحقائق .

متى تتحقّق الشفاعة

وخلاصة الأمر ، فقد بقيت ضمن مسائل الشفاعة مسألة واحدة لم نتعرّض لها بعدُ ، وقد أشرنا لها مؤخّراً ، وهي أن نعلم متى تتحقّق الشفاعة . والمراد بالشفاعة تلك الشفاعة التي ترفع العذاب .

من جملة الآيات التي يمكن من خلالها إدراك زمن تحقّق الشفاعة :

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ.[2]

١ـ الآية ٧، من السورة ٣٠: الروم.

٢ـ الآيات ٣٨ إلى ٤٢، من السورة ٧٤: المدّثّر.

وقد مرّ خلال بحثنا في هذه الآيات أنّها تتحدّث بلسان طائفة يقول أفرادها : لقد كنّا كذا وكذا ، ولقد فعلنا كذا وكذا ؛ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ** .

وهذه الآيات تتحدّث عن أوصاف المشمولين بالشفاعة وأوصاف المحرومين منها . ونقول الآن بأنّ الآيات المذكورة تدلّ ـ مضافاً إلى دلالتها على أصل الشفاعة ـ على أنّ شفاعة الشافعين نافعة في فكاك النفوس من الارتهان ، وفي نجاتها من الخلود في جهنّم ؛ أمّا سائر أهوال يوم القيامة ومشقات البرزخ ومخاوفه ، فباقية في مواضعها ، ولا دليل لدينا على تحقّق الشفاعة في شأنها .

ويمكننا أن نقول إنّ هذه الآيات تفيد انحصار الشفاعة في أمر الاستخلاص من رهن جهنّم ،كما يمكن الاستفادة منها على أنّ المحاورات بين أصحاب الجنّة وأصحاب النار إنّما تجري بعد استقرار أصحاب الجنّة فيها واستقرار أصحاب النار فيها ، وأنّها تحصل بعد تحقّق الشفاعة في حقّ طائفة من المجرمين وإخراجهم بواسطتها من النار . وذلك لعدّة أُمور :

أولاً : قوله : **فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ** ؛ الدالّ على الاستقرار في الجنّات .

ثانياً : قوله : **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ** ؛ لأنّ السلوك لا يُطلق على مطلق الدخول ، بل على نوع من الدخول المنظّم لطائفة وجماعة .

وثالثاً : قوله : **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ** ؛ وكلمة «ما» نافية للحال ؛ يعني أنّ شفاعة الشافعين لن تنفعهم في حالهم تلك .

ورد في «تفسير عليّ بن إبراهيم» في ذيل قوله تعالى : **وَمِن وَرَآئِهِم** **البَرْزَخُ هُوَ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرينِ ، وَهُوَ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَهُوَ رَدٌّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ عَذَابَ القَبْرِ وَالثَّوَابَ وَالعِقَابَ قَبْلَ القِيَامَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ إلّا البَرْزَخَ، فَأَمَّا إِذَا صَارَ الأَمْرُ إِلَيْنَا فَنَحْنُ أَوْلَى بِكُمْ.[1]

وهذه الرواية صريحة في أنّ الشفاعة لا تعني رفع العذاب قبل يوم القيامة؛ أمّا الروايات الواردة في حضور رسول الله والأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين عند الاحتضار وفي القبر، وإعانتهم للمؤمن في الشدائد التي تواجهه، فلا تدخل في باب الشفاعة، بل هي من قبيل التصرّف والحكومة التي فُوّضت إليهم بإذن الله تعالى.

وسنذكر قريباً في باب الأعراف إن شاء الله تعالى أنّ مخاطبة أصحاب الأعراف (وهم الأئمّة الطاهرون) لأصحاب النار: **أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**؛[2] وخطابهم: **ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ** هو خطاب من نوع الحكومة صادر من الأئمّة وولاة الأمر.

ويمكن ـ لجهة من الجهات ـ أن نعتبر الآية التالية من هذا القبيل: **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِ** ـ الآية، لأنّ وساطة الإمام في إعطاء صحيفة الأعمال وفي قراءتها هو من قبيل الحكومة المفوّضة له.

ونستخلص من مجموع ما مرّ أنّ زمن تحقّق الشفاعة مقارن للموقف الأخير من مواقف يوم القيامة، وأنّها تحصل من خلال شمول البعض بغفران الله تعالى، أو من خلال منع دخول البعض نار جهنّم، أو بإخراج بعض الداخلين في النار بواسطة اتّساع رحمة الحقّ وظهور الكرامة **والحَمْدُ لِلَّهِ**.

وقد انتهى بحثنا في أمر الشفاعة **وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَلَهُ المِنَّةُ**، وكان بحثاً

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٤٤٩.

٢ـ الآية ٤٩، من السورة ٧: الأعراف.

وافياً كاملاً قد استوعب جميع جوانب مسألة الشفاعة ، فصار جليّاً أنّ الشفاعة هي من المسلّمات ؛ ويدعم هذا القول كلام الإمام الصادق في رواية عمارة ؛ فقد روى الصدوق في «الأمالي» عن القطّان ، عن السُّكّري ، عن الجوهريّ ، عن ابن عمارة ، عن أبيه عمارة ، قال : قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام :

مَنْ أَنْكَرَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ فَلَيْسَ مِن شِيعَتِنَا: المِعْرَاجَ وَالمُسَاءَلَةَ فِي القَبْرِ وَالشَّفَاعَةَ. [١]

اللهمّ إنّك تعلم وتخبر ما في ضمائرنا ، من أنّنا لا نعتقد بالشفاعة فحسب ، بل إنّنا ـ كذلك ـ لا نعوّل على شيء غير أملنا بشفاعة موالينا المعصومين الأربعة عشر ، وتعلم أنّنا قد جعلنا ولايتهم والبراءة من أعدائهم شعارنا الذي رضعناه قبل لَبن الأُمّهات ، فهو معنا لا يفارقنا حتّى بعد الموت ، وتخبر أنّنا أوكلنا الدنيا والآخرة وما فيهما لأهليهما وطالبيهما ، فلم يكن لنا من بُغية وقصد إلّا المحبّة الخالصة الممحّضة لأهل البيت :

امشب آن نيست كه در خواب رود چشم نديم
خواب در روضهٔ رضوان نكند أهل نعيم
خاك را زنده كند تربيت باد بهار
سنگ باشد كه دلش زنده نگردد به نسيم [٢]

١ـ «أمالي الصدوق» ص ١٧٧ .

٢ـ «كلّيات سعدى» ص ٢٣٧ و٢٣٨ ، الغزليّات ، طبعة فروغي .

يقول : «ليست الليلة بالتي يهجع فيها النديم ، وبالتي لا يرقد فيها في جِنان الرضوان أهلُ النعيم» .

يتعاهد نسيمُ الربيع الأرضَ القفر فيبعث فيها الحياة ، ولا غَرو أنّ القلب قُدّ من جلمدٍ إنْ لم يُحيِه هبوبُ النسيم» .

بـوی پـیراهـن گـم کـردهٔ خـود مـی‌شنوم
گر بگویم، هـمه گـویند ضـلالی است قـدیم
عـاشق آن گـوش نـدارد کـه نـصیحت شـنود
درد مـا نـیک نـباشد بـه مـداوای حکـیم
تـوبه گـویندم از انـدیشهٔ مـعشوق بِکـن
هرگز این توبه نباشد، که گـناهی است عـظیم
ای رفـیقان سـفر! دست بـرداریـد از مـا
کـه بـخواهـیم نشسـتن بـه دَرِ دوست مـقیم
ای بـرادر غـم عشـق آتش نـمرود انگـار
بَر مَـن ایـن شـعله چـنانست کـه بـر إبـراهـیم
مـرده از خـاکِ لحـد رقـص کـنان بـر خـیزد
گـر تـو بـالای عـظامش گـذری، وَهْـیَ رمـیم
طـمع وصـل تـو مـی‌دارم وانـدیشهٔ هـجر
دیگر از هر چه جهانم نـه امـیدست ونـه بـیم
عـجب از کشـته نـباشد بـه در خـیمهٔ دوست
عجب از زنده که چون جان به در آورد سلیم[1]

١ـ يقول: «ها أنا ذا أشمّ رائحة قميص حبيبي الضائع، ولو اطّلعتم لقلتم: ها أنت ذا في ضلالك القديم.
ليس للعاشق ثمّة أُذن ليُصغي لنُصح ناصح، لأنّ سقمنا لايشفيه ترياق طبيب حكيم.
يقولونَ، وأنّى لي الامتثال، تُبْ وأقلعْ عن الحبيب، وهيهات فذاك ذنبٌ عظيم.
فيا رفاق المسير، سألتكمُ أن تكفّوا، فقد نوينا عند أعتاب دار خِلّنا أن نُقيم.
إنّ حزن العشق ـ يا صاح! ـ كنار نمرود، لكنّها كانت عَلَيّ كما كانت قبلُ على إبراهيم.
سينهض الميّت المسجّى من تراب لحده راقصاً، لو خَطرتَ على عظامه وهي ⇐

ســعديا عشــق نــياميزد و شــهوت بــا هــم
پــيش تســبيح مــلايک نــرود ديــو رجـيم[1]

لِي خَمْسَةٌ أُطْفِي بِهِمْ حَرَّ الجَحِيمِ الحَاطِمَةَ
المُصْطَفَى وَالمُرْتَضَى وَابْنَاهُمَا وَالفَاطِمَة

اللَّهُمَ بِحَقِّهِمْ وَبِحَقِّ أَبْنَائِهِم الطَّاهِرِينَ الطَّيِّبِينَ لَا سِيَّمَا وَلِيِّكَ القَائِم المُنْتَظَرِ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِمَعْرِفَتِهِمْ وَارْزُقْنَا لِقَاءَهُمْ وَشَفَاعَتَهُمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

⇦ رميم .

أطمع في وصالك ، وأخشى هجرانك ، فليس لي من كلّ دنياي خوف ولا رجاء مُقيم .

ولا عجب من القتيل المردى عند أُعتاب خيمة الحبيب ، بل العجب من الحيّ المعافى السليم» .

١ـ يقول : «فحذار يا «سعدي» لا تشيبنّ عشقاً بشهوة ، إذ لا يدنونّ من الملائكة المسبّحة شيطانٌ غويٌّ رجيم» .

المجلس الخامس والستون

اختصاص منبر الوسيلة ولواء الحمد يوم القيامة برسول الله وآله



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ.[1]

يقول مؤلّف «تفسير بيان السعادة» : ومعنى هذه الآية أنّ الله تعالى سرعان ما سيعطيك في الدنيا حتّى يحصل لك مقام الرضا ، أو حتّى ترضى . ولهذه الجهة فقد فُسّر **المُعطى** بمقام الشفاعة الكبرى وقد جاء في الرواية أنّ هذه الآية هي أرجى آية في القرآن الكريم .

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

رِضَا جَدِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ لَا يَبْقَى فِي النَّارِ مُوَحِّدٌ.[2]

وهذه هي نفس رسول الله في سعتها وإحاطتها وشموليّتها بحيث تجعل جميع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين من جميع الأُمم يفتقرون إلى إفاضة النور من تلك النفس المقدّسة ، وتجعلهم ينتفعون به

١ـ الآيات ١ إلى ٥، من السورة ٩٣: الضحى.

٢ـ «تفسير بيان السعادة» ج ٢ ، ص ٣١٦، الطبعة الحجريّة.

ويقفون أمامه حامدين ، وتجعله حائزاً للمقام المحمود .

ماه فرو ماند از جمال محمّد

سرو نباشد به اعتدال محمّد

قدرِ فلك را كمال ومنزلتی نیست

در نظر قدر با كمال محمّد

وعدهٔ ديدار هر كسی به قيامت

ليلهٔ أسْرَى شبِ وصال محمّد

آدم ونوح وخليل وموسی وعيسی

آمده مجموع در ظِلال محمّد

عرصهٔ گيتی مَجال همّت او نيست

روز قيامت، نگر مَجال محمّد

و آنهمه پيرايه بسته جنّتِ فردوس

بو كه قبولش كند بَلال محمّد

همچو زمين خواهد آسمانكه بيفتد

تا بدهد بوسه بر نعال محمّد[1]

١ـ «كلّيات سعدي» ص ٢٠ ، المواعظ ، طبعة فروغي . يقول : «تضاءل القمر أمام جمال محمّد ، وعجز شجر السرو أن يمتلك قامةً باعتدال قامته .
وحاشا أن يمتلك الفَلَك قدراً يُضاهي كمالاً ومنزلةً قدر النبيّ محمّد .
لقد وُعد كلّ امرئ باللقاء يوم القيامة ، أمّا محمّد فكانت ليلةُ الإسراء ليلةَ وصاله .
ولقد احتشد آدم ونوح والخليل وموسى وعيسى بأجمعهم تحت ظلّ محمّد .
وضاقت عرصة الوجود عن استغراق مجال همّته ، فتطلّع يوم القيامة إلى مدى همّته !
بل قُل إنّ جنّة الفردوس ازدانت بكلّ هذه الزينة ، من أجل أن يقبلها بلال محمّد .
لقد أرادت السماء أن تسقط فتماثل الأرض ، من أجل أن تطبع قُبلة على نعاله» .

شمس وقمر در زمين حشـر نـتابد

نـور نـتابد، مگـر جـمال مـحمّد

شـايد اگـر آفـتاب ومـاه نـتابند

پيش دو ابروی چون هـلال مـحمّد

چشم مرا تا به خواب ديد جـمالش

خـواب نـمی‌گيرد از خـيال مـحمّد

سعدی اگر عـاشقی کـنی وجـوانـی

عشق محمّد بس است وآل محمّد[1]

وقد أوردنا سابقاً عن «تفسير فرات بن إبراهيم» عن بشر بن شـريح البصريّ، قال:

قلتُ لمحمّد بن عليّ (الباقر) عليه السلام: **أَيَّةُ آيَـةٍ فِـي كِـتَابِ اللَّـهِ أَرْجَى؟**

قال: ما يقول فيها قومك؟

قال، قلتُ: يقولون: **يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ.**[2]

قال: **لَكِنَّا أَهْلَ البَيْتِ لَا نَقُولُ ذَلِكَ.**

قال: قلتُ: فَأيّ شَيء تقولون فيها؟

١ـ يقول: «ولن يشعّ نور الشمس والقمر في أرض المحشر، إذ لن يضيء يومئذٍ إلّا جمال محمّد.

وأجدر بالشمس والقمر أن ينكسفا فلا يُضيئا أمام هلالي حاجبي محمّد.

وحين لاح جماله في المنام لعيني، فقد فارقها النوم من خياله.

فإن شئتَ يا «سعدي» أن تعشق وتتصابى، فلا تتعدّ عشق محمّد وآل محمّد!».

٢ـ الآية ٥٣، من السورة ٣٩: الزمر.

قال ، نَقُولُ : «وَلَسُوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ».[١]

الشَّفَاعَةُ ، وَاللهِ الشَّفَاعَةُ ، وَاللهِ الشَّفَاعَةُ ![٢]

وينبغي أن نرى الآن السبب الذي صارت به آية : **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ـ وليس آية : **يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ** ـ أرجى آية في القرآن ، وأن نرى السبب في كون النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله نهياً عن القنوط من رحمة الله التكوينيّة بشهادة مورد الآيات وموضوع بيانها ، كما في الآية : **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ؛[٣] والآية : **إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**.[٤]

أمّا في الآيات مورد البحث : **قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**،[٥] فقد ورد النهي عن القنوط واليأس من الرحمة التشريعيّة . والمراد من النهي هو النهي عن القنوط من غفران الله وشمول رحمته للذنوب والمعاصي التي ارتكبها العباد ، بقرينة جملة «أسْرَفُوا عَلَى أنفُسِهِم» الظاهرة في أنّ القنوط واليأس ينتجان عن المعصية .

فَلِمَ لَمْ تُعدّ هذه الآية أرجى آية وأدعاها لترعرع براعم الأمل في

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٩٣ : الضحى .

٢ـ «تفسير فرات بن إبراهيم» ص ٢١٥ ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٥٧ .

٣ـ الآية ٥٦ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٤ـ الآية ٨٧ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٥ـ الآيات ٥٣ إلى ٥٥ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

أعماق قلوب العاصين ، مع أنّ مغفرة الله سبحانه وتعالى قد شملت جميع العاصين بلا استثناء ؟

السرّ في ذلك هو أنّ النهي عن القنوط الوارد في هذه الآية،قد جاء بعد وعد الله تعالى بغفرانه جميع الذنوب التي يعقبها المرء بالإنابة والإسلام واتّباع العمل الصالح . ومن هنا فالآية تدلّ على أنّ من غير اللائق بالعبد المذنب الذي أسرف على نفسه أن يقنط من رحمة الله تعالى ما دامت التوبة والإنابة والإسلام والعمل الصالح في متناول يده .

فهذه الرحمة الإلهيّة ـ إذاً ـ ليست رحمة مطلقة ، بل هي رحمة مقيّدة قد أمر الله سبحانه عباده بالتمسك بها وبإعداد الأرضيّة المناسبة لنيلهم المغفرة من خلال التوبة والإسلام والعمل الصالح .

أمّا في آية إعطاء الله تعالى نبيّه حتّى يرضى ، فإن هذا الرضا يمثّل الرحمة المطلقة العامّة التي منّ بها الله تعالى دون قيد أو شرط على نبيّه الكريم الذي بعثه رحمة للعالمين . وهو وعد قد بعث السرور والبهجة في نفس رسول الله وأقرّ عينيه وطيّب خاطره .

وبيان ذلك أنّ هذه الآية وردت في مقام الامتنان ، إذ إنّ الوعد الذي قُطع لرسول الله صلّى الله عليه وآله لم يُقطع نظير له لأيّ مخلوق سواه . ونلحظ في هذا المجال أنّ عطاء الله تعالى كان مطلقاً ، وكان رضا رسول الله مطلقاً أيضاً .

أمّا بلحاظ الإعطاء ، فقد منّ الله تعالى بنظيره على بعض عباده في الجنّة من خلال قوله تعالى : **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ** ؛[1] وقوله : **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**.[2]

١ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٢ـ الآية ٣٥ ، من السورة ٥٠ : ق .

وتبيّن الآية الأخيرة أنّ ما خلق الله تعالى لأصحاب الجنة يفوق مشيئتهم ، إذ إنّ مشيئة الإنسان تتعلّق بما يخطر على قلبه من أُمور الخير والسعادة .كما ويستفاد من الآية أنّ في الجنّة أموراً لم تخطر على قلب بشر ، وأشياءً أعلى ذروةً من أن تنالها خطرات فكر الإنسان وهواجسه :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ.[1]

وإذا تقرّر أن يمنّ الله على المؤمنين من أُصحاب العمل الصالح بهذه الأُمور التي تفوق الحدّ والتقدير ، فلا ريب أنّ ما سيمنحه لرسوله الكريم في مقام الامتنان سيكون أسمى وأعظم وأوسع من ذلك ، وهذا هو شأن عطاء الحقّ جلّ وعزّ .

أمّا شأن رضا رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فنحن نعلم بأنّه ليس رضا بأمر الله ومقدّراته وبما قسمه الله له ، لأنّ مثل هذا الرضا القائم على أساس مالكيّة الحقّ وغناه المطلق هو ممّا لابدّ للعبد الخاضع للحقّ أن يتحلّى به ، لأنّ العبد لا يملك أمام ذلك الغنى إلّا الفقر والفاقة ، فينبغي على النبيّ إذاً أن يرضى بما يعطيه ربّه ، سواءً قلّ ذلك العطاء أم كثر ؛ وعليه أن يرضى بما قدّر له الله تعالى ، سواءً أوجب ذلك سروره أم حزنه .

بل إنّ الرضا المذكور ، باعتبار وقوعه مقابل عطاء الحقّ تعالى ، يفيد معنى آخر نظير رضا الفقير بما يزيل فقره ، ورضا الجائع بما يسدّ جوعه ، وذلك هو الرضا بعطاء الحقّ تعالى دونما تحديد .

وقد وعد الله تعالى طائفة من عباده بعطاء يماثل هذا العطاء ،كما جاء في قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ *

١ـ الآية ١٧ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ.[1]

وإذا كان الجزاء في حقّ المؤمنين على هذا النحو ، وكان رضاهم به رضاً بلا قيد ولا شرط ، فما ظنّك بما يتعلّق برسول الله صلّى الله عليه وآله ، مع لحاظ أن آية **فَتَرْضَىٰ** قد وردت في مقام الامتنان والاختصاص ! من المحتّم أن يكون الأمر أعلى مقاماً ممّا ورد في شأن المؤمنين ، وأوسع وأعظم .

ونعلم من جهة أُخرى أنّ الله سبحانه وصف رسوله الكريم فقال : **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**.[2]

فصادق بكلامه على مراتب رحمة النبيّ ، وشهد برأفته بالمؤمنين . فكيف ـ والحال هذه ـ سيرضى رسول الله صلّى الله عليه وآله ويطيّب خاطره بالتنعّم في نعيم الجنّة ، والانشغال بالتنزّه في جِنانها مسروراً محبوراً ، وكيف يتلذّذ بأنواع لذائذ الجنان السرمديّة ؛ بينما ترزح طائفة من المؤمنين مغلولة في دركات السعير ، ممتحنةً في طبقات جهنّم ، مع اعتراف أُولئك المؤمنين بربوبيّة الحقّ تعالى ، وإقرارهم برسالة نبيّه المصطفى وبما جاء به من عند ربّه ، بسبب ذنوب قد ارتكبوها عند غلبة الجهل عليهم وبسبب اتّباعهم النفس الأمّارة وسقوطهم في حبائل الشيطان ، وتدنّسهم في خاتمة المطاف بتلك الذنوب ، دون أن يطرأ عليهم عناد ولا استكبار لا جحود ولا مبارزة لذات الحقّ القدسيّة !

ونجد في أنفسنا بالوجدان أنّنا حين ننظر إلى الأيّام التي سلفتْ من

١ـ الآيتان ٧ و٨، من السورة ٩٨ : البيّنة .

٢ـ الآية ١٢٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

أعمارنا ، ونتأمّل في تقصيرنا عن الارتقاء في الكمالات ، وننحو بـاللائمة على أنفسنا في هذا التقصير والتفريط ، ونوبّخها على عدم جدّها في السعي ، ثمّ نلتفت إلى جهلها آنذاك ، وإلى غرور الشباب ونقصان التـجارب لديـها حينذاك ، عندها سيخمد لهيب ما استعر في نفوسنا ومـا اضـطرم فـيها مـن سَوْرة اللوم والتـوبيخ ، بـتأثير الرحـمة النـاقصة التـي أودعـها الخـالق فـي وجودنا وادّخرها في فطرتنا .

فكيف سيكون الأمر فيما يتعلّق برحمة الربّ الرحـيم الرؤوف فـي موقفٍ لا يكبو بالإنسان إلّا جهله وضعفه ، وفي مـقامٍ تـتجلّى فـيه كـرامـة رسوله الأكرم ونبيّه المكرّم الذي نعته بالرحمة والرأفة بالمؤمنين ، ويأتـي فيه المؤمن المبتلى الذي قد أنشب الموت براثنه فيه عند احتضاره بسـبب وَبال أفعاله ، وشاهد بأُمّ عينيه المحن وتجرّع الغصص حتّى بلغ هذا الموقف الأخير من مواقف يوم القيامة .

أفيمكن أن يكون ظهور الرحمة والرضا المـطلقينِ مـن هـذا النـبيّ المبعوث رحمةً للعالمين شيئاً غير الشفاعة الكبرى للمؤمنين ؟

روى عليّ بن إبراهيم في تفسيره ، بسنده المتّصل عن المـفضّل بـن عمر ، أنّه سمع أبا عبد الله (الصادق) عـليه السـلام يـقول فـي قـول الله : **وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا.**[1]

قال : **رَبُّ الأَرْضِ إمَامُ الأَرْضِ. قُلْتُ : فَإذَا خَرَجَ يَكُونُ مَاذَا ؟**

قَالَ : إذاً يَسْتَغْنِي النَّاسُ عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَنُورِ القَمَرِ ، وَيَجْتَزِؤُونَ بِنُورِ الإمَامِ.[2]

١ـ الآية ٦٩، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ «تفسير القمّيّ» ص ٥٨١.

وورد كذلك في «تفسير عليّ بن إبراهيم» عن أبيه ، عن عبد الله بن المغيرة ، عن ابن سنان ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قال :

كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ.

فسألنا النبيّ صلّى الله عليه وآله عن الوسيلة ؛ فقال :

هي درجتي في الجنّة ، وهي ألف مرقاة جوهر ،[1] إلى مرقاة زبرجد ، إلى مرقاة لؤلؤة ، إلى مرقاة ذهب . فيؤتى بها يوم القيامة حتّى تُنصب مع درجة النبيّين ، فهي في درجة النبيّين كالقمر بين الكواكب ، فلا يبقى يومئذٍ نبيّ ولا شهيد ولا صدّيق إلّا قال : طوبى لمن كانت هذه درجته ! فينادي المنادي ، ويسمع النداء جميع النبيّين والصدّيقين والشهداء والمؤمنين : هذه درجة محمّد صلّى الله عليه وآله . فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : فأقبلُ يومئذٍ متّزراً بريطة[2] من نور ، عَلَيّ تاج الملك وإكليل الكرامة ، وعليّ بن أبي طالب أمامي وبيده لوائي وهو لواء الحمد ، مكتوب عليه : **لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، المُفْلِحُونَ هُمُ الفَائِزُونَ بِاللهِ.** فإذا مررنا بالنبيّين قالوا : هذان مَلَكان لم نعرفهما ولم نرهما ، وإذا مررنا بالملائكة قالوا : هذان نبيّان مرسلان ، حتّى أعلو الدرجة وعليّ يتبعني ، فإذا صرتُ في أعلى الدرجة منها وعليّ أسفل مني بيده لوائي ، فلا يبقى يومئذٍ نبيٌّ ولا مؤمن إلّا رفعوا رؤوسهم إليّ يقولون : طوبى لهذين العبدينِ ما أكرمهما على الله !

فينادي المنادي يسمع النبيّون وجميع الخلائق : هذا حبيبي محمّد ،

١ـ لعلّ المراد بالجوهر هنا الياقوت ، أو جوهر آخر لم يصرّح به .

٢ـ الريطة : كلّ ملاءة ليست بلفقتين .

وهذا وليّي عليّ بن أبي طالب ؛ طوبى لمن أحبّه ، وويلٌ لمن أبغضه وكذب عليه .

ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : يا عليّ ! فلا يبقى يومئذٍ في مشهد القيامة أحد يحبّك إلّا استروح إلى هذا الكلام وابيضّ وجهه وفرح قلبه ؛ ولا يبقى أحد ممّن عاداك ونصب لك حرباً أو جحد لك حقّاً إلّا اسودّ وجهه واضطربت قدماه . فبينا أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إليّ ، أمّا أحدهما فرضوان خازن الجنّة ، وأمّا الآخر فمالك خازن النار ، فيدنو رضوان ويسلّم عَلَيّ ويقول : **السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَهِ** ؛ فأردّ عليه وأقول : أيّها الملك الطيّب الريح ، الحسن الوجه ، الكريم على ربّه ، مَن أنت ؟ فيقول : أنا رضوان خازن الجنّة ، أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح الجنّة فخُذها يا **مُحَمَّدُ !** فأقول : قد قبلتُ ذلك من ربّي ، فله الحمد على ما أنعم به عَلَيّ ، ادفعها إلى أخي **عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب** ، فيدفعها إلى عليّ ويرجع رضوان ؛ ثمّ يدنو مالك خازن النار فيسلّم ويقول : **السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا حَبِيبَ اللَهِ** ؛ فأقول له : وعليك السلام أيّها المَلَك ، ما أنكر رؤيتك وأقبح وجهك ! مَن أنت ؟ فيقول : أنا مالك خازن النار ، أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح النار . فأقول : قد قبلتُ ذلك من ربّي ، فله الحمد على ما أنعم به عَلَيّ وفضّلني به ، ادفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب ! فيدفعها إليه . ثمّ يرجع مالك ، فيقبل عَلِيٌّ ومعه مفاتيح الجنّة ومقاليد النار حتّى يقعد على عجزة جهنّم ويأخذ زمامها بيده ، وقد علا زفيرها ، واشتدّ حرّها ، وكثر تطاير شررها ، فتنادي جهنّم : يا عَلِيّ ! جُزني ، فقد أطفأ نورُك لهبي . فيقول عليّ لها : ذَري هذا وليّي ، وخُذي هذا عدوّي ؛ فلجهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعةً لعليّ من غُلام أحدكم لصاحبه ؛ فإن شاء يذهب بها يمنة ، وإن شاء يذهب بها يسرة ؛ ولجهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعةً لعليّ من جميع الخلائق **وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَئِذٍ قَسِيمُ الجَنَّةِ**

وَالنَّارِ.[1]

ونقل الشيخ الصدوق هذه الرواية في «معاني الأخبار» و«الأمالي» عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن العبّاس بن معروف (عن عبد الله بن المغيرة ـ «معاني الأخبار») عن أبي حفص العبديّ، عن أبي هارون العبديّ، عن أبي سعيد الخدريّ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.[2] كما رواه الصفّار في «بصائر الدرجات» عن أحمد بن محمّد، عن العبّاس بن معروف، عن عبد الله بن المغيرة، عن أبي هارون العبديّ، عن أبي سعيد الخدريّ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.[3]

ويتّضح من روايتي الصدوق في «معاني الأخبار» و«الأمالي» ومن رواية الصفّار في «بصائر الدرجات» عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ هذه الرواية قد رويت عن أبي سعيد الخدريّ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ بَيدَ أنّ رواية عليّ بن إبراهيم التي رواها عن الإمام الصادق عليه السلام تتضمّن جملة «فسألنا النبيّ» وهي راجعة إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو إلى أحد الصحابة الذين رووها عن رسول الله.

وجاء في «تفسير عليّ بن إبراهيم» في ذيل الآية: **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**،[4] عن أبيه إبراهيم، عن سليمان الديلميّ، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام، قال:

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧، ص ٣٢٦ و٣٢٧؛ وأصل الرواية في «تفسير القمّيّ» ص ٦٤٤ و٦٤٥.

٢ـ «معاني الأخبار» ص ١١٦ و١١٧، باب معنى الوسيلة، طبعة الحيدريّة؛ و«أمالي الصدوق» ص ٧١ و٧٢.

٣ـ «بصائر الدرجات» الباب الثامن عشر من الجزء الثامن، ص ١٢٢ و١٢٣.

٤ـ الآية ١٨٥، من السورة ٣: آل عمران.

إذا كان يوم القيامة دُعي محمّد فيُكسى حُلّة ورديّة ، ثمّ يُقام عن يمين العرش ؛ ثمّ يُدعى بإبراهيم فيُكسى حلّة بيضاء فيقام عن يسار العرش ؛ ثمّ يُدعى بعليّ أمير المؤمنين فيُكسى حلّة ورديّة فيُقام عن يمين النبيّ ، ثمّ يُدعى بإسماعيل فيُكسى حلّة بيضاء فيقام عند يسار إبراهيم ، ثمّ يُدعى بالحسن فيُكسى حلّة وردية فيُقام عن يمين أمير المؤمنين، ثمّ يُدعى بالحسين فيُكسى حلّة ورديّة فيُقام عن يمين الحسن ، ثمّ يُدعى بالأئمّة فيُكسون حللاً ورديّة فيقام كلّ واحد عن يمين صاحبه ، ثمّ يدعى بالشيعة ، فيقومون أمامهم ، ثمّ يُدعى بفاطمة عليه السلام ونسائها من ذرّيّتها وشيعتها فيدخلون الجنّة بغير حساب ، ثمّ ينادي منادٍ من بطنان العرش من قبل ربّ العزّة والأُفق الأعلى ؛ نِعم الأب أبوك يا محمّد وهو إبراهيم ، ونِعم الأخ أخوك وهو عليّ بن أبي طالب ، ونِعم السّبطان سبطاك وهما الحسن والحسين ، ونِعم الجنين جنينُك وهو مُحسن ، ونعم الأئمّة الراشدون ذرّيّتك وهم فلان وفلان ، ونِعم الشيعة شيعتك .

أَلَا إِنَّ مُحَمَّداً وَوَصِيَّهُ وَسِبْطَيْهِ وَالأَئِمَّةَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ هُمُ الفَائِزُونَ!

ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى الجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: «فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ».[1]

يقول العيّاشيّ في تفسيره : عن يحيى بن مساور : قلتُ (للإمام الصادق عليه السلام) : حدّثني في عليّ حديثاً ؛ فقال : أشرحه لك أم

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ١١٦ و١١٧ . ووردت في هذه النسخة المطبوعة بلفظ «يُدعى بإسماعيل فيُكسى حلّة بيضاء فيُقام عن يمين أمير المؤمنين عليه السلام» أمّا في نسخة المجلسيّ من «تفسير القمّيّ» التي نقل عنها في «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٣٢٨ ، الطبعة الحروفيّة ، فقد أوردها بلفظ ، «يُدعى بإسماعيل فيُكسى حلّة بيضاء فيُقام عند يسار إبراهيم» . ويغلب الظنّ أنّ نسخة المجلسيّ أصحّ .

أجمعه ؟

قلتُ : بل اجمعه !

فقال : عليٌّ بابُ هدى ، مَن تقدّمه كان كافراً ، ومن تخلّف عنه كان كافراً .

قلتُ : زِدني !

قال : إذا كان يوم القيامة نُصب منبر عن يمين العرش له أربع وعشرون مرقاة ، فيأتي عليّ وبيده اللواء حتّى يركبه ويُعرض الخلائق عليه ، فمَن عرفه دخل الجنّة ، ومَن أنكره دخل النار .

قلتُ له : توجدنيه من كتاب الله ؟

قال : نعم ؛ أما تقرأ هذه الآية ، يقول تبارك وتعالى :

«فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ». هُوَ وَاللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.[1]

كما روى العيّاشيّ نظير هذه الرواية بسند آخر عن محمّد بن حسّان الكوفي ، عن محمّد بن جعفر ، عن أبيه عليه السلام .[2]

وروي في «تفسير فرات بن إبراهيم» عن عبيد بن كثير ، معنعناً عن أبي هريرة ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال :

أَتَانِي جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أُبَشِّرُكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا تَجُوزُ عَلَى الصِّرَاطِ ؟ قَالَ ، قُلْتُ لَهُ : بَلَى ! قَالَ: تَجُوزُ بِنُورِ اللَهِ ، وَيَجُوزُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنُورِكَ ، وَنُورُكَ مِنْ نُورِ اللَهِ !

وَيَجُوزُ أُمَّتُكَ بِنُورِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنُورُ عَلِيٍّ مِنْ نُورِكَ ، وَمَنْ

---

١ ـ «بحار الأنوار» ج ٧، ص ٣٣٠، نقلاً عن «تفسير العيّاشيّ» الطبعة الحروفيّة.

٢ـ «بحار الأنوار» ص ٣٣١، الطبعة الحروفيّة.

لَمْ يَجْعَلِ اللهِ لَهُ مَعَ عَلِيٍّ عَلَيهِ السَّلَامُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.[1]

وعلى أيّة حال ، فقد جاء في الأحاديث التي أوردناها في هذا المجال في شأن الوسيلة ، أنّ الوسيلة منبر في الجنّة مختصّ برسول الله وأمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام . والأحاديث في الباب متضافرة ، إلّا أنّنا استشهدنا بعددٍ منها كأمثلة .

وهناك أحاديث أُخرى في أنّ **لواء الحمد** يوم القيامة في يد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام . ونورد فيما يلي عدّة نماذج من هذه الأحاديث :

يروي الشيخ الصدوق في «الأمالي» عن محمّد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقانيّ ، عن الحسن بن عليّ العدويّ ، عن الحسين بن أحمد الطفاويّ ، عن قيس بن الربيع ، عن سعد بن الخفّاف ، عن عطيّة العوفيّ الكوفيّ ، عن مخدوج بن زيد الذهليّ ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله آخى بين المسلمين ، ثمّ قال : يا عليّ ! أنت أخي ، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي ؛ أما علمتَ يا عليّ أنّه أوّل مَن يُدعى به يوم القيامة يُدعى بي ، فأقوم عن يمين العرش فأُكسى حلّة خضراء من حلل الجنّة ، ثمّ يُدعى بأبينا إبراهيم عليه السلام فيقوم عن يمين العرش في ظلّه فيُكسى حلّة خضراء من حلل الجنّة ، ثمّ يُدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض ، فيقومون سماطينِ عن يمين العرش في ظلّه ويُكسون حللاً خضراً من حلل الجنّة ؛ ألا وإنّي أُخبرك يا عليّ أنّ أُمّتي أوّل الأُمم يُحاسبون يوم القيامة . ثمّ أُبشّرك يا عليّ أنّ أوّل من يُدعى يوم القيامة يُدعى بك ، هذا لقرابتك منّي ومنزلتك عندي ، فيُدفع إليك لوائي وهو لواء الحمد ، فتسير به

١ ـ «تفسير فرات» ص ١٠٤ و١٠٥.

بين السماطين ، وأنّ آدم وجميع مَن خَلَق الله يستظلّون بظلّ لوائي يوم القيامة وطوله مسيرة ألف سنة ، سنانه [1] ياقوتة حمراء ، قصبه فضّة بيضاء ، زجّه [2] دُرّة خضراء ، له ثلاث ذوائب من نور : ذؤابة في المشرق ، وذؤابة في المغرب ، وذؤابة في وسط الدنيا ، مكتوب عليها ثلاثة أسطر ، الأوّل : **بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ، والآخر : **الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ** ، والثالث : **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَهِ** ؛ طول كلّ سطر مسيرة ألف سنة وعرضه مسيرة ألف سنة ؛ فتسير باللواء والحسن عن يمينك والحسين عن يسارك حتّى تقف بيني وبين إبراهيم في ظلّ العرش ، فتُكسى حلّة خضراء من حلل الجنّة ، ثمّ ينادي منادٍ من عند العرش :

نِعم الأب أبوك إبراهيم ، ونِعم الأخ أخوك عليّ . ألا وإنّي أُبشّرك يا عليّ إنّك تُدعى إذا دُعيتُ ، وتُكسى إذا كُسيتُ ، وتُحيّا إذا حُيّيتُ .[3]

ويروي الصدوق في «عيون أخبار الرضا» عن أبيه ، عن الحسن بن أحمد المالكيّ ، عن أبيه ، عن إبراهيم بن أبي محمود ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليهم السلام ، قال :

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا عَلِيُّ! أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ وَبِيَدِكَ لِوَائِي ، وَهُوَ لِوَاءُ الحَمْدِ ، وَهُوَ سَبْعُونَ شُقَّةً ، الشُّقَّةُ مِنْهُ أَوْسَعُ مِنَ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ.[4]

وروى في «علل الشرايع» بسنده المتّصل عن أمير المؤمنين عليه

١ـ السنان : حديدة مدبّبة في رأس الرمح .

٢ـ الزجّ : حديدة في أسفل السنان ، من شأنها تثبيته .

٣ـ «أمالي الصدوق» المجلس ٥٢ ؛ وفي الطبعة الحجريّة : ص ١٩٥ ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ١ و ٢ .

٤ـ «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٤ ، عن «عيون أخبار الرضا» .

السلام ، قَالَ :

قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ !

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ! أَدْخُلَها قَبْلَكَ ؟!

قَالَ: نَعَمْ ، لِأَنَّكَ صَاحِبُ لِوَائِي فِي الدُّنْيَا ، وَصَاحِبُ اللِّوَاءِ هُوَ المُتَقَدِّمُ.

ثُمَّ قَالَ : يَا عَلِيُّ ! كَأَنِّي بِكَ وَقَدْ دَخَلْتَ الجَنَّةَ وَبِيَدِكَ لِوَائِي وَهُوَ لِوَاءُ الحَمْدِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ.[1]

أجل ، وحاصل ما تفيده طائفة من الأخبار هو أنّ النبيّ الأكرم هو صاحب الوسيلة ولواء الحمد يوم القيامة ، وأنّ الوسيلة هي منبر كبير ذو ألف مرقاة ، ما بين المرقاة والمرقاة عدوة الفَرَس الجواد ، وأنّ كلّ مرقاة من جوهر خاصّ يختلف عن جوهر المرقاة الأُخرى ؛ وأنّ الرسول الأكرم يرقى منبر الوسيلة حتّى يقف في ذروته ، ويقف أمير المؤمنين أدنى منه بمرقاة . وأنّ هذا المنبر منصوب مقابل عرش الله عزّ وجلّ ، وأنّ الأنبياء يتوزّعون على درجات المنبر كلاً حسب درجته ، بينما يتوزّع الصدّيقون والصالحون والشهداء على درجاته ، وأنّ مَن حاز درجة أعلى في القُرب يقف على مرقاة تعلو مرقاة من يليه درجةً في القُرب . ويقف سائر الناس من أصناف المؤمنين أسفل المنبر في العرصات (وهي أرض فسيحة مستوية) ويحتشد الخلائق من الأوّلين والآخرين حول المنبر يتطاولون ناظرين إلى رسول الله ،كما يرفع الأنبياء الواقفون على درجات منبر الوسيلة في درجاتهم المعيّنة أبصارهم تلقاء رسول الله ، فتحار أعينهم من سطوع نور طلعته وطلعة وصيّه وخليفته بلا فصل وحامل لوائه في التوحيد :

١ـ «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٦، عن «علل الشرايع».

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ذلك النور المتوهّج الشبيه بنور البدر ليلة تمامه ، نور يخطف الأفئدة وينعش الأرواح ويلفت إليه قلوب الأنبياء والصدّيقين ، ثمّ يأتي جبرئيل : الملك المقرّب من ملائكة السماوات بلواء الحمد فيضعه في يد رسول الله ، فيسلّمه رسول الله إلى أمير المؤمنين عليه السلام الواقف أدنى منه بمرقاة ، وهو لواء الحمد الذي يطبق مشرق العالم ومغربه ، لأنّ طوله مسيرة ألف سنة ؛ وسنانه من الياقوت الأحمر ، وزجّه من الدرّ الأخضر ، وقصبه من الفضّة البيضاء ، مكتوب على ذوائبه الثلاث :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد للّه ربّ العالمين ، ولا إله إلّا الله ، محمّد رسول الله .

وينبغي أن نرى الآن ما معنى الوسيلة واللواء ؟ ولماذا يقف الرسول الأكرم على ذروته ويقف أمير المؤمنين أدنى منه بمرقاة ؟ ولِمَ سُمّي ذلك المنبر بالوسيلة ؟ ولِمَ سُمّي ذلك اللواء بلواء الحمد ؟ ولِمَ لَمْ يُدعى بلواء التكبير ، أو لواء التسبيح ، أو لواء التهليل ؟ ولِمَ يسلّم رسول الله ذلك اللواء لأميرالمؤمنين ؟ ولماذا يتوزّع الأنبياء على درجات المنبر ويقف كلّ منهم في درجة معيّنة ؟ ولماذا يحتشد جميع المؤمنين في عرصات القيامة حول ذلك المنبر ، وهم يحدّقون بأنظارهم على رسول الله وخليفته ؟ هذه مجموعة من الحقائق ينبغي تسليط الضوء عليها .

يُطلق لفظ الوسيلة على ما يستعين به المرء على بلوغ مقصده ؛ وربّما كانت الألف مرقاة تعبيراً عن الحجب الألف التي تحجب النفس عن مقام المعرفة المطلقة للحقّ تعالى ، أو عن أسماء الحقّ المقدّسة التي يبلغ عددها ألف اسم . ولقد تخطّى رسول الله صلّى الله عليه وآله جميع الحُجب واستقرّ في الحجاب الأخير (وهو الحجاب الأقرب) ، بحيث لم يعد يوجد

شيء متصوّر بينه وبين الذات القدسيّة للحقّ عزّ وجلّ ، وبحيث نهل رويّاً من جميع أسماء وصفات الله جلّ وعلا ، وفني في تلك الأسماء وتحقّق بحقيقتها ، ثمّ فني في الاسم الأعظم للذات الأحديّة ، وهو مقام العبوديّة المطلقة والولاية الكلّيّة الإلهيّة . أمّا سائر الأنبياء فهم أدنى درجة من رسول الله ومن أمير المؤمنين ، حيث فني كلّ منهم في أحد أسماء الحقّ تعالى ، فاستقرّ في تلك الدرجة .

ولمّا كانت درجات منبر الوسيلة تزداد شمولاً كلّما قربت من الذروة ، فإنّ من فني من الأنبياء في الأسماء الكلّيّة سيقف في درجة أعلى ، وصولاً إلى اسم العليم والقدير والحي واسم الله الأكمل والأشمل من جميع الأسماء الأُخرى ، وهي معدودة من أُصول الأسماء الإلهيّة .

وعليه فيمكن القول إنّ هذا المنبر مخروطيّ الشكل ، يحتشد على درجته الأُولى (وهي قاعدة المخروط) كثير من الخلائق ، من الأنبياء والصدّيقين والشهداء ؛ أمّا الدرجة التي تعلوها وتقلّ عنها مساحة وتزيد عليها قدرةً وعظمة وحياة ، فيقف عليها عدد أقلّ . وهكذا تزداد القدرة والعلم والحياة كلّما رقينا درجات المنبر ، بينما يقلّ عدد الواقفين على تلك الدرجات وصولاً إلى الدرجة الأخيرة في ذروة المنبر ، حيث يتعذّر وجود سعة غير سعة رسول الله ، إذ هناك نقطة واحدة فقط هي **نُقْطَةُ الوَحْدَةِ بَيْنَ قَوْسَي الأَحَدِيَّةِ وَالوَاحِدِيَّةِ**.

أمّا من جهة العلم والقدرة والحياة ، فهي مجمع أنواع العلم والقدرة والحياة ، والمفيضة لهذه الأسماء والصفات الكلّيّة الإلهيّة على جميع المخروط وعلى جميع عالم المُلك والملكوت . وهناك مقام غيب الغيوب والكنز المخفيّ وعالم العماء وسرّ الهُويّة ، وتحقّق اسم هو ومبدأ تحقّق الولاية والظهور . وأمّا المرقاة الأسفل منها ، فهي أوّل نقطة ظهور وتجلّي

الأسماء والصفات وعالم الولاية الكلّيّة الإلهيّة ، وهي المقام المقدّس لمولى الموالي أمير المؤمنين الذي يكتسب ـ بواسطة رسول الله ـ من الذات القدسيّة للحضرة الأحديّة ، ويفيضه على عالم الملك والملكوت .

ويمثّل وجود رسول الله عدسةً مجهريّة صغيرة ينعكس من خلالها النور وصور الأجرام السماويّة على عدسة أكبر منها تمثّل محلّ الظهور والتجلّي.

فعليّ عليه السلام ـ إذاً ـ هو ظهور رسول الله ، بينما يمثل رسول الله باطن هذا الظاهر .كما أنّ أمير المؤمنين الواقف على درجة أدنى من الذروة بمرقاة يكتسب حقيقة العلم والحياة والقدرة من مقام بين بين ، أي بين الذات والاسم (وهو موضع حقيقة رسول الله) . فأمير المؤمنين ـ من ثمّ ـ يجسّد أوّل تجلّ للولاية واقع بين البطون والظهور ، ويفيض تلك الولاية على جميع الأنبياء والأولياء ، وهؤلاء يفيضون بدورهم على من يقف أدنى منهم ، وصولاً إلى جميع الخلائق الحافّين بمنبر الوسيلة ، وأُولئك يفيضون بالواسطة إلى مَن في النار وإلى الواقفين على مبعدة من منبر الوسيلة .

وليست أفضليّة خاتم النبيّين وخليفته خاتم الوصيّين وشرف مقامهما أمراً اعتبارياً صورياً ، بل هي أمر متحقّق بواسطة السعة الوجوديّة والقرب الذاتيّ وكشف الحجب النورانيّة ، وبواسطة تخطّي جميع الأسماء والصفات من خلال المجاهدة والرياضة القائمتيْن على أساس العلم والمشيئة الأزليّة الإلهيّة .

أمّا كون هذه الوسيلة وهذا اللواء يماثلان سائر المنابر والألوية المعهودة في هذا العالم ، أو هما معنى صرف تشبيه مجرّد من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، فقد مرّ بحث ذلك مفصّلاً في باب صراط جهنّم الذي

يقود إلى الجنّة ،[1] حيث علمنا أنّهما لا يماثلان المنابر والألوية المادّيّة ، كما علمنا أنّ الميزان والصراط لا يشبهان الموازين والجسور المادّيّة ،كما أنّهما ليسا معنى مجرّداً وتشبيهاً وكناية من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، بل إنّ الميزان والصراط موجودان حقيقة ، وإنّ الوسيلة واللواء موجودان حقيقة ،كلّ ما في الأمر أنّها متناسبة مع ذلك العالم ، لأنّ المنبر واللواء المعهودين هما في عالم الصورة ، أمّا إذا تخطينا عالم الصورة ، فليس ثمّة عنوان للمنبر ولا للواء يميّزان أحدهما عن الآخر . وستتجسّد حقيقة هذه الوسيلة وحقيقة هذا اللواء في صور تتناسب مع ذلك العالم وتنسجم معه .

وعلينا أن لا ننسى تناسب تحقّق وجودها مع ذلك العالم ، وبغير ذلك فإنّ إشكالات كثيرة سترد في هذا المجال .

وعلى سبيل المثال ، فقد جاء في باب الوسيلة في رواية «تفسير عليّ ابن إبراهيم» ـ كما مرّ ـ عبارة : **حَتَّى يَقْعُدَ عَلَى عُجْزَةِ جَهَنَّمَ وَيَأْخُذَ زِمَامَهَا بِيَدِهِ ، وَقَدْ عَلَا زَفِيرُهَا** ... إلى قوله : **فَإنْ شَاءَ يَذْهَبُ بِهَا يَمْنَةً ، وَإنْ شَاءَ يَذْهَبُ بِهَا يَسْرَةً.**

وحاصل المطلب أنّ جهنّم يُجاء بها يوم القيامة ،كما في القرآن الكريم : **وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ.**[2]

ويكون لجهنّم لجام وزمام ، فيستوي عليٌّ أمير المؤمنين على ظهرها ويُمسك بيده زمامها ، فإن شاء ذهبَ بها يميناً ، وإن شاء ساقها شمالاً ، فتبتلع أعداءَ اللهِ ورسولِهِ وأعداء مقام الولاية .

١ـ انظر «معرفة المعاد» ج ٨، المجلس ٥٣.

٢ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٨٩: الفجر.

وليس في أمر المجيء بجهنّم وإمساك عليّ بزمامها شكّ ، ولكن هل هي مثل الرواحل الدنيويّة كالناقة والبغل ، ليمتطيها عليّ ويمسك بلجامها كما في الأنعام الدنيويّة ؟ من المسلّم أنّ الأمر ليس على هذا النحو ، بل تلك الراحلة وظهرها ولجامها وحركتها يميناً وشمالاً متناسبة بأجمعها مع ذلك العالم . وكما أنّ ذلك العالم مغاير لهذا العالم ، إذ هناك غيب وهنا شهود ، وهناك باطن وهنا ظاهر ؛ فإنّ الأمر يجري كذلك على جميع موجودات ذلك العالم وأحكامه ، فهي متناسبة مع ذلك العالم ومنسجمة معه . وقد جاء في بحث الشفاعة :

فَيَأْتِي دَارَ الرَّحْمَنِ وَهِيَ عَدْنٌ وَإِنَّ بَابَهَا سَعَتُهُ بُعْدُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ فَيُحَرِّكُ حَلْقَةً مِنَ الحَلَقِ فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا! ـ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ ـ فَيَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ ! فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ! قَالَ: فَيُفْتَحُ لِي. قَالَ: فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي مَجَّدْتُهُ تَمْجِيداً لَمْ يُمَجِّدْهُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلِي وَلَا يُمَجِّدُهُ أَحَدٌ كَانَ بَعْدِي. إِلَى أَنْ يَقُولُ: ثُمَّ يُؤْتَى بِنَا فَيَجْلِسُ عَلَى العَرْشِ رَبُّنَا.[1]

وليس من ريب في اشتمال هذه العبارات على قدر كبير من الحقائق . ولكن ، أيمكن الجمود على ظاهر هذه العبارات ، والقول ـ من ثمّ ـ بأنّ بيت الله يماثل البيوت الدنيويّة أو هو أكبر منها ؟ وبأنّ حلقة بابه كحلقات البيوت ؟ وبأنّ الله موجود في بيته ، وأنّه ينادي : مَن الطارق ؟ وبأنّ نظر رسول الله يقع على الله ؟ أفهل الله جسم له صورة ؟ وهل يشبه هذا

١ـ انظر «معرفة المعاد» ج ٩ ، المجلس الحادي والستّون ؛ الرواية الواردة عن «تفسير العيّاشيّ» ؛ وقد روى المرحوم المجلسيّ هذه الرواية في «البحار» ج ٨ ، ص ٤٥ إلى ٤٧ ، الطبعة الحروفيّة ، بنفس اللفظ الذي أوردناه . أمّا أصل الرواية في «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٣١٠ إلى ٣١٣ فقد ورد بلفظ : «فنجلس على عرش ربّنا» .

النظر ما هو معهود عندنا ! وهل يجلس الله على عرش سلطانه وحكومته ؟ وهل يناظر عرشه هذه العروش ؟ وهل يماثل جلوسه جلوس غيره ؟

ليس الأمر على هذا النحو ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، لأنّ ذلك يستلزم محدوديّة الله وتعيّنه وتجسيمه ؛ **وَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيرَاً** .

ليس الله موجوداً في بيته ، وليس عرشه مثل عروش هذا العالم ، بل عالم المشيئة والإرادة هو عرش الله تعالى ، كما أنّ جلوسه هو استيلاؤه وإحاطته . ويحصل نظر رسول الله بالباطن والملكوت إلى حقيقة ذات ما لا اسم له ولا رسم . أمّا حلقة الباب فكناية عن تمسّك النبيّ بصفة الرحمة والعطف والغفران ، لأنّ للّه أسماءً يُعدّ كلّ منها بمنزلة حلقة ، فإن دُعي أحدها ، فُتح للداعي من تلك الجهة .

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .[1]

ولهذا لم يجد المرحوم المجلسيّ رضوان الله عليه مع شدّة جموده في باب المعارف الإلهيّة ، بدأً من أن يقول في ذيل هذه الرواية :

«فإذا نظرتُ إلى ربّي» أي إلى عرشه ، أو إلى كرامته ، أو إلى نور من أنوار عظمته . والجلوس على العرش كناية عن ظهور الحكم والأمر من عند العرش و«تكلّم الله» عبارة عن خلق الكلام هناك .[2]

وعلى أيّة حال ، فإنّه ينبغي رفع اليد عن الجمود على المعاني الظاهريّة في جميع المعارف ، ولا اختصاص في هذا الأمر بذات الله

١ـ الآية ١١٠ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٤٧ ، الطبعة الحروفيّة .

وأسمائه ، وذلك أوّلاً : لأنّ الألفاظ وُضعت للمعاني الكلّيّة . وثانياً : لأنّ الرواية الواردة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : **إنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ**،[1] تفتح لنا أبواباً من المعارف ، لأنّها تحرّرنا ـ من جهة ـ من الجمود ومن حمل الألفاظ في المعارف الإلهيّة على المعاني المادّيّة والطبيعيّة . ولا تسمح لنا ـ من جهة أُخرى ـ بحمل تلك الأُمور على المعاني الصرفة كلّيّاً . وعلينا أن نعدّ تلك الأُمور معانٍ متصوّرة بما يناسب ذلك العالم .

والآن وقد اتّضحت هذه المطالب ، يتبيّن أنّ الوسيلة هي حقّاً منبر ذو ألف مرقاة ، إلّا أنّه منبر ذو درجات يتناسب مع ذلك العالم .

كما أنّ اللواء هو عَلَم ذو سنان وزجّ وقصبة وذؤابة ، إلّا أنّه متناسب كذلك مع ذلك العالم . جعلنا الله بحقّ محمّد وآله الطاهرين من المنضوين تحت ذلك اللواء كي نراه ونتأمّله .

وهذا اللواء يُسلَّم في الوهلة الأُولى بِيَدِ رسولِ الله ، وهو لواء الحمد ، لأنّ المقام المحمود ـ كما قلنا ـ مختصّ به صلّى الله عليه وآله ، وهو المقام الذي يبلغه حمد كلّ حامد لكلّ محمود .

وقد ذكرنا سابقاً أنّ العباد المخلَصين دون غيرهم يمكنهم حمد الذات القدسيّة بمقتضى قوله تعالى : **سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ**.[2]

١ـ «أُصول الكافي» ج ١، ص ٢٣؛ و«تحف العقول» ص ٣٧؛ و«بحار الأنوار» في الطبعة القديمة (الكمبانيّ) : ص ٤١ (الروضة)؛ وفي الطبعة الحروفيّة: ج ٧٧، ص ١٤٠، عن «تحف العقول» .

٢ـ الآيتان ١٥٩ و١٦٠، من السورة ٣٧: الصافات .

ذلك أنّ حمد باقي الخلائق يقترن بالتسبيح والتنزيه والتقديس ، أمّا العباد المخلَصون الذين تخطّوا جميع شوائب الغرور والعُجب والأنانيّة ، وعلموا أنّ وجودهم ملك مطلق للحضرة الأحديّة ، والذين أفنوا وجودهم ودكّوه في ذات الله القدسيّة ، فلم يعودوا يرون لأنفسهم وجوداً مقابل وجوده عزّ وجلّ ، والذين اكتسبت وجوداتهم سعة وجوده تعالى ، فإنّهم هم الذين يحمدونه سبحانه كما يليق بشأنه .

لكنّ درجة المخلَصين هذه التي حازها الأنبياء وكثير من أولياء الله الذين بلغوا درجة الخلوص ، تمثّل نهاية السفر الأوّل من الأسفار الأربعة إلى الله تعالى ، وهو سفر غايته الله تعالى ، كما أنّه ليس سفراً لا متناهياً .

أمّا المقام المحمود فهو مقام آخر أعلى من هذا المقام وأسمى ، وهو عبارة عن إكمال الأسفار الأربعة ، وإكمال السفر الرابع وهو السفر في الخلق بالحقّ ، حيث إنّ السالك يرى آنذاك الله تعالى في كلّ موجود من الموجودات ، ويسير في عالم الكثرات بنور الله عزّ وجلّ .

بَيدَ أنّ البقاء بالله ليس على درجة واحدة لدى جميع الأفراد ، فالبعض يمتلك هذا البقاء محدوداً في محيط وجوده وضمن دائرة أفكاره وآرائه وعلومه ، ثمّ يزداد الأمر لدى الأفراد ، حتّى نصل إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فنلحظ أنّه كان مع كلّ موجود ، أي أنّه كان مع جميع ما سوى الله من عالم المُلك والملكوت ، من العقول والأرواح والنفوس العلويّة والسفليّة وموجودات عالم الصورة وعالم الطبع ، بل كان حقيقة تلك الموجودات أوّلاً وبالذات ، ثمّ طرأ الوجود على تلك الموجودات ثانياً وبالعرض . وهذا هو المقام المحمود .

وقد سبق أن نوّهنا بأنّ هذا المقام هو مقام يرجع إليه كلّ حمد من كلّ حامد موجّه إلى كلّ محمود . أي أنّنا لو شممنا وردةً فحمدناها ، فإنّ حقيقة

الحمد سترجع إلى رسول اللـه . أي أنّ حـقيقة وجـود الورد وجـمال الورد ورائحته الزكيّة وطراوته هي بأجمعها رسول الله صلّى الله عليه وآله .

ولو أطرينا بلبلاً أو شمساً أو قمراً ، أو امتدحنا جمال العالم المملوء طراوةً وعشقاً وبهجة ، والمكتظّ علماً وحياة وقدرة ، لعاد جميع مدحنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله الذي يجسّد حقيقة تلك الأُمور .

إنّ وجود النبيّ ونفسه الواسعة من الشمول والإحاطة بحيث إنّه مع كلّ موجود من الملكوت والباطن ومن الملك والظاهر ، وهذا هو مقام الولايـة الكلّيّة الذي نعتقد به في أئمّتنا عليهم السلام .

ولو كنّا في شرق العالم أو غربه ؛ فـي سـهوله أو جـباله ؛ أحـراراً أو مكبّلين في أعـماق السجون ، ثمّ ندبنا الإمام ونـاديناه ، لأدرك نـداءنـا وردّ علينا .

ولا يمكن تصوّر هذا المعنى إلّا إذا كان الإمام مُقارناً لوجودنا ، وكان له المعيّة مع وجود جميع الموجودات . فهو آنذاك سيكون معنا وأقربَ إلينا من أنـفسنا ، لأنّـنا حـين نشـير إلى أنـفسنا ، فـإنّنا سـنشير إلى الإمـام أوّلاً وبالذات ، ثمّ إلى ذواتنا ثانياً وبالعَرَض .

إنّ الإمام مع كلّ قطرة مطر تهطل من السماء ، وكلّ ذرّة تلمع في ضوء الشمس ، وكلّ مدرة ملقاة على الأرض ، وكلّ كوكب ونـجم ، وصـولاً إلى المجموعة الشمسيّة والمجرّات .

وهكذا الأمر بالنسبة إلى سيطرة الإمام وإحاطته النفسيّة بـعالم البـقاء بالله تعالى ، وهذا هو معنى الولاية التكوينيّة . وهو مقـام لم يبلغه أيّ نـبيّ من الأنبياء ، حتّى شيخ النبيّين : نوح ، وحتّى حامل لواء التوحيد : إبراهيم .

وأوّل من حاز هذا المقام ، ونال ـ بإذن الله ونوره ـ مثل هذه السيطرة على عالم البقاء هو الوجود المقدّس لخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ، ويليه

تلميذه الأوحد في نهجه : عليّ بن أبي طالب ، الذي اختصّ بلقب إمرة المؤمنين . ولذا ، فقد تسلّم لواء الحمد من يد رسول الله . ثمّ تسلسل ذلك المقام العظيم والولاية الكبرى في سبطي رسول الله : الحسن والحسين ، وفي التسعة من ذرّيّة الحسين ، الواحد تلو الآخر ، انتهاءً **بِقَائِمِ آلِ مُحَمَّدٍ : الحُجَّةِ بْنِ الحَسَنِ العَسْكَرِيِّ** أرواحنا فداه ، حيث ينحصر قطب دائرة الإمكان ومحور الولاية التكوينيّة والتشريعيّة في ذاته المقدّسة .

ولو كنتم في منزلكم فقلتم : يا صاحب الزمان ! لكان معكم . ولو كنتم في المسجد أو في الصحراء : في الجوّ أو البحر ، غافلين أو منتبهين ، في حال العبادة أو التجارة ، وفي كلّ حال ، فإنّه معكم حقّاً ، ليس بالمعيّة العلميّة فقط ، بل بالمعيّة الحقّة الحقيقيّة .

وهذا باب من المعارف الإلهيّة فُتح ببركة رسول الله في آله وأُمّته ، وهو باب لم يسبق فتحه في الأُمم السالفة التي لم تستطع أن تذهب إلى أبعد ممّا وصل إليه أنبياءهم من الدرجة العلميّة والعرفانيّة . ولم يكن السير في هذا السبيل ميسوراً لأُولئكم الأنبياء ، وهو ـ من باب أولى ـ غير ميسور على أُمم أولئكم الأنبياء .

أمّا في أُمّة خاتم النبيّين فقد فُتح سبيل هذا الباب ، فاقتحم هؤلاء الأعلام منهل عالم التشريع والبقاء من خلال الخلوص والعبوديّة والمجاهدة ، وأشبهت سعتهم الوجوديّة سعة رسول الله ، فكانوا مع كلّ موجود من الموجودات .

أمّا الآن ، وقد اتّضح هذا المطلب ، فقد استبان لنا سبب تسمية ذلك اللواء بلواء الحمد ، لأنّ التكبير : **اللَّهُ أَكْبَرُ** ، والتسبيح : **سُبْحَانَ اللهِ** والتهليل : **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** ، وسائر الأذكار الأُخرى تفتقر إلى مثل هذه السعة في عالم البقاء . ويمكن نتيجة لذلك أن يكون الحائز على ذلك المقام غير ممتلك

لمقام الحمد .

وقد علمنا لماذا صار عليّ بن أبي طالب هو الحامل للواء الحمد ، إذ أُفيض عليه من رسول الله ، فأضحى صاحب مقام الولاية الكبرى ، ذلك المقام الذي توارثه الأئمّة الواحد عن الآخر .

وقد علمنا أيضاً سبب انضواء الأنبياء تحت لواء الحمد المحمّديّ والعلويّ ، وذلك لعدم بلوغ أيّ منهم لهذا المقام ، فصار أملهم في فيوضات رحمة الحضرة السبحانيّة منحصراً من خلال محمّد وعليّ .

وعلمنا سبب تحلّق المؤمنين (من غير الشهداء والصدّيقين والصالحين) حول المنبر ، لأنّهم لم يتخطّوا الحجب النورانيّة ، ولعجزهم عن إفناء أنفسهم في أحد أسماء الحقّ تعالى .

كما تبيّن لنا سبب كتابة **بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَهِ** على لواء الحمد ؛ لأنّ لهذا اللواء هيمنة على جميع العوالم ، فهو يعطي ـ باسم رحمانيّة الحقّ ورحيميّته ـ كلّ موجود احتياجاته الوجوديّة ، ويحقّق حمد الله في كلّ موجود ذي حُسن (وكلّ الموجودات ذوات حُسن) ، ويُعلن نداء وحدانيّة الله ورسالة نبيّه في جميع العوالم .

كانت هذه جهات مستنبطة من لواء الحمد ، ولربّما سيخطر في ذهن القارئ الكريم ، إثر التفكّر والتأمّل والتدبّر في المعارف الإلهيّة ، مطالبُ أُخرى غيرها تجعله يتمتّع بتلك المعارف الإلهيّة ؛ **رَزَقَنَا اللَهُ وَإِيَّاكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ** .

اى ختم پيمبران مرسل حلواى پسين ومِلح اوّل[1]

١ـ للشاعر حكيم النظاميّ . يقول : «يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، ويا حلاوة الأوّل ⇐

اى خـاک تـو تـوتياى بينش	روشـن بـه تـو چشم آفـرينش
اى سَـيّد بـارگاه كَـونَين	نَسّـابهٔ شـهر قـاب قَـوسَيْن
اى صدر نشين عقل وجان هم	مـحراب زمـين وآسـمان هـم
اى شش جهت از تو خيره مانده	بـر هـفت فـلك، جَـنبيَه[1] رانـده
سر خيل توئى وجمله خيل‌اند	مـقصود تـوئى هـمه طُـفَيل‌انـد
سـلطان سـرير كـايناتى	شـاهنشه كشـور حـياتى
اى كُـنْيه ونـام تـو مُـؤيّد	بُـو القـاسم وأحـمد ومُـحَمّد[2]

صَلَواتُ اللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَحَمَلَةِ عَرْشِهِ وَجَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا أَصْلِ الوُجُودِ، وَعَيْنِ الشَّاهِدِ وَالمَشْهُودِ، أَوَّلِ الأَوَائِلِ وَأَدَلِّ الدَّلَائِلِ، وَمَبْدَأِ الأَنْوَارِ الأَزَلِيِّ، وَمُنْتَهَى العُرُوجِ الكَمَالِيِّ، غَايَةِ الغَايَاتِ، المُتَعَيِّنِ بِالنَّشَئَاتِ، أَبِ الأَكْوَانِ بِفَاعِلِيَّةٍ، وَأُمِّ الإمْكَانِ بِقَابِلِيَّةٍ، المَثَلِ الأَعْلَى الإلَهِيِّ، هَيُولَى العَوَالِمِ الغَيْرِ المُتَنَاهِي، رُوحِ الأَرْوَاحِ وَنُورِ الأَشْبَاحِ، فَالِقِ إصْبَاحِ الغَيْبِ، رَافِعِ ظُلْمَةِ الرَّيْبِ، مَحْتِدِ التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ، رَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ، سَيِّدِنَا فِي الوُجُودِ، صَاحِبِ لِوَاءِ الحَمْدِ وَالمَقَامِ

⇦ ومِلح الآخر!».

١ـ جنبيه: في «لغت نامه دهخدا»: اسم سلاح يُدعى «جمدر»، كما يُدعى في بلاد الهند «كنار» ـ انتهى. وهو على وزن تثنيه.

٢ـ يقول: «يا من غدا تراب أقدامك كحل العيون، لقد أضاء بك الوجود وقرّت عينه.
يا سيّد الكونين والعالمين، ويا نسّابة مدينة قاب قوسين.
أيّها المتصدّر للعقل والروح معاً، ويا محراب الأرض والسماء معاً.
يا من حارت فيك الجهات الستّ، ويا من شُقت بسلاحك الأفلاك السبعة.
أنت الطليعة ومَن عداك تابع؛ أنت المقصد وكلّ من سواك متطفلّ.
أنت السلطان المتربّع على عرش الكائنات، والملك المتوّج في دولة الوجود والحياة.
يا مَن كُنيّت بأبي القاسم المؤيّد، ودُعيت بأحمد ومحمّد».

المَحْمُودِ، المُبْرَقَعِ بِالعِمَاءِ، حَبِيبِ اللَهِ مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ (وَآلِهِ) وَسَلَّمَ.



المجلس السادس والستون

ساقي حوض الكوثر، وأنهار الجنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ.[1]

قال الشيخ الطبرسيّ رحمة الله عليه في تفسير هذه الآية :

خاطب سبحانه نبيّه صلّى الله عليه وآله على وجه التعداد لنعمه عليه فقال :

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ.

اختلفوا في تفسيره ، فقيل هو نهر في الجنّة ؛ عن عائشة و(عبد الله) ابن عمر .

قال ابن عبّاس : لمّا نزلت (إنّا أعطينك الكوثر) ، صعد رسول الله صلّى الله عليه وآله المنبر فقرأها على الناس ، فلمّا نزل ، قالوا : يا رسول الله ! ما هذا الذي أعطاك الله ؟

قال : نهر في الجنّة أشدّ بياضاً من اللبن ، وأشدّ استقامة من القدح ، حافتاه قباب الدرّ والياقوت ، ترده طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت .

١ـ الآية ١ ، من السورة ١٠٨ : الكوثر.

قالوا : يا رسول الله ! ما أنعم تلك الطير .

قال : أفلا أُخبركم بأنعم منها ؟

قالوا : بلى .

قال : من أكل الطائر وشرب الماء وفاز برضوان الله .

وروي عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنّه قال : نهر في الجنّة أعطاه الله نبيّه صلّى الله عليه وآله عوضاً من ابنه .

وقيل : هو حوض النبيّ صلّى الله عليه وآله الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة ؛ عن عطاء .

وقال أنس : بينا رسول الله صلّى الله عليه وآله ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءة، ثمّ رفع رأسه مُبتسماً ، فقلتُ : ما أضحكك يا رسول الله ؟

قال : أُنزلت عَلَيَّ آنفاً سورة ، فقرأ سورة الكوثر ؛ ثمّ قال : أتدرون ما الكوثر ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنّه نهر وعدنيه عليه ربّي خيراً كثيراً ، هو حوضي ترد عليه أُمّتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، فيختلج القرن منهم ، فأقول : يا ربّ ! إنّهم من أُمّتي ! فيُقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ؛ أورده مسلم في الصحيح .

وقيل : الكوثر الخير الكثير ؛ عن ابن عبّاس وابن جبير ومجاهد .

وقيل : هو النبوّة والكتاب ؛ عن عكرمة .

وقيل : هو القرآن ؛ عن الحسن .

وقيل : هو كثرة الأصحاب والأشياع ؛ عن أبي بكر بن عيّاش .

وقيل : هو كثرة النسل والذرّيّة ، وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام بحيث لا يُحصى عددهم ، واتّصل إلى يوم القيامة مددهم .

وقيل : هو الشفاعة ؛ رووه عن الصادق عليه السلام .

واللفظ يحتمل للكلّ ، فيجب أن يُحمل على جميع ما ذُكر من الأقوال ، فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى الخير الكثير في الدنيا ، ووعده الخير الكثير في الآخرة ، وجميع هذه الأقوال تفصيل للجملة التي هي الخير الكثير في الدارين .[1]

وروى الشيخ المفيد في «المجالس» ومحمّد بن أبي القاسم الطبريّ الشيعيّ في «بشارة المصطفى» والشيخ الطوسيّ في «الأمالي» عن المفيد ، عن ابن قولويه ، عن الحسين بن أحمد بن عامر ، عن المعلّى بن محمّد ، عن محمّد بن جمهور العميّ ، عن ابن محبوب ، عن أبي محمّد الوابشيّ ، عن أبي الورد ، قال : سمعتُ أبا جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام يقول :

إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الناس في صعيد واحد من الأوّلين والآخرين عراة حفاة ، فيقفون على طريق المحشر حتّى يعرقوا عرقاً شديداً وتشتدّ أنفاسهم ، فيمكثون بذلك ما شاء الله ، وذلك قوله : **فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**.[2]

قال : ثمّ يُنادي منادٍ من تلقاء العرش : أين النبيّ الأُمّيّ ؟

قال : فيقول الناس : قد أسمعتَ فسمِّ باسمه !

فينادي : أين نبيّ الرحمة **محمّد بن عبد الله** ؟

قال : فيقوم رسول الله صلّى الله عليه وآله فيتقدّم أمام الناس كلّهم ، حتّى ينتهي إلى حوضٍ طوله ما بين **أَيْلَة وصَنْعَاء** ، فيقف عليه ؛ ثمّ يُنادى بصاحبكم ، فيقوم أمام الناس فيقف معه ؛ ثمّ يؤذن للناس فيمرّون .

١ـ «مجمع البيان» ج ٥، ص ٥٤٩، طبعة صيدا.

٢ـ الآية ١٠٨، من السورة ٢٠: طه.

قال أبو جعفر عليه السلام : فبين واردٍ يومئذٍ وبين مصروف ، فإذا رأى رسول الله صلّى الله عليه واله مَن يُصرف عنه من محبّينا بكى وقال : يا ربِّ شيعةُ عليّ !

قال : فيبعث إليه مَلَكاً ، فيقول له :

يا محمّد ! ما يُبكيك ؟

فيقول صلّى الله عليه وآله : وكيف لا أبكي وأُناس من شيعة عليّ بن أبي طالب أراهم قد صُرفوا تلقاء أصحاب النار ومُنعوا من ورود حوضي .

قال : فيقول الله عزّ وجلّ له : يا محمّد ! قد وهبتُهم لك ، وصفحتُ لك عن ذنوبهم ، وألحقتهم بك ومن كانوا يتولّونه من ذرّيّتك ، وجعلتُهم في زُمرتك ، وأوردتُهم حوضك ، وقبلتُ شفاعتك فيهم ، وأكرمتُهم بذلك .

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : فكم مِن باكٍ يومئذٍ وباكية ينادون **يَا مُحَمَّدَاهُ** ! إذا رأوا ذلك ، فلا يبقى أحد يومئذٍ كان يتولّانا ويحبّنا إلّا كان من حزبنا ومعنا وورد حوضنا .[1]

ورواه بمضمونه عليّ بن إبراهيم في تفسيره ، في ذيل الآية الكريمة : **وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا** ؛ عن أبيه إبراهيم بن هاشم ، عن ابن محبوب ، عن الوابشيّ ، عن أبي الورد .[2]

وروى المفيد في «المجالس» عن عليّ بن هلال (بلال ـ خ ل) المهلبيّ ، عن أحمد بن الحسين البغداديّ ، عن محمّد بن إسماعيل ، عن محمّد بن الصلت ، عن أبي كُدينة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبير ، عن عبد الله بن

١ـ «بشارة المصطفى» ص ٣، طبعة النجف ؛ و«مجالس المفيد» ص ١٧٠ و١٧١ ؛ و«أمالي الطوسيّ» ص ٤١ ، الطبعة الحجريّة .

٢ـ «تفسير القمّيّ» ، ص ٤٢٣ .

عبّاس ؛ وروى الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» عن الشيخ المفيد ؛ وروى صاحب كتاب «بشارة المصطفى» عن الشيخ علي بن الشيخ الطوسيّ ، عن أبيه ، عن الشيخ المفيد ، عن محمّد بن إسماعيل بنفس سلسلة السند إلى ابن عبّاس ، قال :

لمّا نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله : **إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ** ؛ قال له عليٌّ بن أبي طالب : ما هو الكوثر ، يا رسول الله ؟

قال : نهر أكرمني الله به .

قال عليّ عليه السلام : إنّ هذا لنهر شريف ، فانعته لنا يا رسول الله .

قال : نعم يا عليّ ؛ الكوثر نهر يجري تحت عرش الله تعالى ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، حَصاه الزبرجد والياقوت والمرجان ، حشيشه الزعفران ، ترابه المسك الأذفر ، قواعده تحت عرش الله عزّ وجلّ ، ثمّ ضرب رسول الله صلّى الله عليه وآله يده على جنب أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : يا عليّ ! إنّ هذا النهر لي ولك ولمحبيك من بعدي .[1]

وروى المرحوم الصدوق في «عيون أخبار الرضا» و«الأمالي» عن أبيه ، عن سعد بن عبد الله ، عن إبراهيم بن هاشم ، عن عليّ بن معبد ، عن الحسين بن خالد ، عن أبي الحسن (الرضا) عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، **قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِحَوْضِي فَلَا أَوْرَدَهُ اللَهُ حَوْضِي** ـ الخبر .[2]

١ـ «مجالس المفيد» المجلس ٣٥، ص ١٧٣ ؛ و«أمالي الطوسيّ» ص ٤٣ ؛ و«بشارة المصطفى» ص ٥ و٦ ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨، ص ١٨ .

٢ـ «عيون أخبار الرضا» ص ٩١، الطبعة الحجريّة ؛ و«أمالي الصدوق» ص ٥، ⇦

وروى المرحوم الصدوق في «الأمالي» عن حمزة بن محمّد العلويّ ، عن عليّ ، عن أبيه ، عن عليّ بن معبد ، عن الحسين بن خالد ، عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :

يَا عَلِيُّ ! أَنْتَ أَخِي وَوَزِيرِي وَصَاحِبُ لِوَائِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ! وَأَنْتَ صَاحِبُ حَوْضِي ! مَنْ أَحَبَّكَ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَبْغَضَنِي ![1]

كما روى الصدوق في «الأمالي» عن ماجيلويه ، عن عمّه ، عن محمّد ابن عليّ القرشيّ ، عن محمّد بن سنان ، عن المفضّل ، عن أبي عبد الله (الصادق) ، عن آبائه عليهم السلام ، قال :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : (في حديث طويل) **مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ اليَوْمِ** (أي يوم القيامة) **فَلْيَتَوَلَّ وَلِيِّي ، وَلْيَتَّبِعْ وَصِيِّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَإِنَّهُ صَاحِبُ حَوْضِي ، يَذُودُ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ ، وَيَسْقِي أَوْلِيَاءَهُ ، فَمَنْ لَمْ يُسْقَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ عَطْشَاناً وَلَمْ يَرْوَ أَبَداً ؛ وَمَنْ سُقِيَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَشْقَ وَلَمْ يَظْمَأْ أَبَداً .**[2]

وجاء في مقدّمة «تفسير عليّ بن إبراهيم» :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حِجَّةِ الوَدَاعِ فِي مَسْجِدِ الخَيْفِ : إنِّي فَرَطُكُمْ وَإنَّكُمْ وَارِدُونَ عَلَيَّ الحَوْضِ ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ بُصْرَى

⇦ المجلس الأوّل ، الطبعة الحجريّة .

١ـ «أمالي الصدوق» ص ٣٧ ، المجلس ١٤ ، الطبعة الحجريّة . كما أوردها الصدوق في «عيون أخبار الرضا» الباب ٢٨ ، بنفس السند . والمراد بحمزة بن محمّد العلويّ : حمزة بن محمّد بن أحمد بن جعفر بن محمّد بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب . والمراد بعليّ : عليّ بن إبراهيم .

٢ـ «أمالي الصدوق» ص ١٦٨ ، المجلس ٤٧ ؛ و«بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ١٩ .

وَصَنْعَاءَ، فِيهِ قِدْحَانٌ مِنْ فِضَّةٍ عَدَدَ النُّجُومِ. أَلَا وَإِنِّي سَائِلُكُمْ عَنِ الثَّقَلَيْنِ!

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَهِ وَمَا الثَّقَلَانِ؟

قَالَ: كِتَابُ اللَهِ: الثَّقَلُ الأَكْبَرُ؛ طَرَفٌ بِيَدِ اللَهِ، وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَزِلُّوا! وَالثَّقَلُ الأَصْغَرُ عِتْرَتِي وَأَهْلُ بَيْتِي؛ فَإِنَّهُ قَدْ نَبَّأَنِيَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ كَإِصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ -وَجَمَعَ بَيْنَ سَبَّابَتَيْهِ- وَلَا أَقُولُ كَهَاتَيْنِ -وَجَمَعَ بَيْنَ سَبَّابَتِهِ وَالوُسْطَى- فَتَفْضُلُ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ.[1]

وأورد الصدوق في «الخصال» في حديث الأربعمائة :[2]

قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَنَا مَعَ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَعِي عِتْرَتِي عَلَى الحَوْضِ؛ فَمَنْ أَرَادَنَا فَلْيَأْخُذْ بِقَوْلِنَا وَلْيَعْمَلْ بِعَمَلِنَا، فَإِنَّ لِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ نَجِيباً، وَلَنَا شَفَاعَةٌ وَلِأَهْلِ مَوَدَّتِنَا شَفَاعَةٌ، فَتَنَافَسُوا فِي لِقَائِنَا عَلَى الحَوْضِ، فَإِنَّا نَذُودُ عَنْهُ أَعْدَاءَنَا، وَنَسْقِي مِنْهُ أَحِبَّاءَنَا وَأَوْلِيَاءَنَا؛ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَداً. حَوْضُنَا مُتْرَعٌ فِيهِ شِعْبَانِ يَنْصَبَّانِ مِنَ الجَنَّةِ: أَحَدُهُمَا مِنْ تَسْنِيمٍ، وَالآخَرُ مِنْ مَعِينٍ؛ عَلَى حَافَتَيْهِ الزَّعْفَرَانُ، وَحَصَاهُ اللُّؤْلُؤُ

١ـ «تفسير القمّيّ» ص ٤ و٥.

الفَرَط ـ بفتح الفاء والراء ـ مَن يتقدّم القوم إلى الوِرْد. وهو اسم للمفرد والجمع؛ يُقال: رَجُلٌ فَرَطٌ وقَوْمٌ فَرَطٌ.

وحِجَّة الوَداع ـ بكسر الحاء ـ على وزن فِعْلَة، لبيان النوع والكيفيّة. وليست بفتح الحاء بمعنى عمل سنة واحدة. أي أنّ الحِجّة هي نوع الحجّ الذي فعله رسول الله في آخر حياته الشريفة.

٢ـ حديث الأربعمائة هو حديث ذكر فيه أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه في مجلس واحد أربعمائة أمرٍ لإصلاح دين المؤمن ودنياه.

وَاليَاقُوتُ ، وَهُوَ الكَوْثَرُ ـ الخبر .[١]

وروى الطوسيّ في «الأمالي» بسنده المتّصل عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول على المنبر : ما بال أقوام يقولون إنَّ رَحِمَ رَسولِ الله لا تشفع (لا تنفع ـ خ ل) يوم القيامة ؟

بلى والله ؛ إنّ رحمي لموصلة في الدنيا والآخرة ، وإنّي أيّها الناس فرطكم يوم القيامة على الحوض ، فإذا جئتم قال الرجل : يا رسول الله ! أنا فلان بن فلان . فأقول : أمّا النسب فقد عرفته ، لكنّكم أخذتم بعدي ذات الشمال وارتددتُم على أعقابكم القهقرى .[٢]

وروى المفيد في «الأمالي» والطوسيّ في «الأماليّ» بسنده المتّصل عن عبد الرحمن بن قيس الرحبيّ ، قال :كنتُ جالساً مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام على باب القصر ، حتّى ألجأته الشمس إلى حائط القصر ، فوثب ليدخل ، فقام رجل من هَمْدان فتعلّق بثوبه وقال : يا أمير المؤمنين ، حدِّثني حديثاً جامعاً ينفعني اللهُ به .

قال : أو لم يكن فيَّ حديث كثير ؟

قال: بلى ، ولكن حدّثني حديثاً ينفعني الله به .

قال : حدّثني خليلي رسول الله صلّى الله عليه وآله :

إنِّي أَرِدُ أَنَا وَشِيعَتِي الحَوْضَ رُوَاءً مَرْوِيِّينَ مُبْيَضَّةً وُجُوهُهُمْ؛ وَيَرِدُ عَدُوُّنَا ظِمَاءً مُظَمَّئِينَ مُسْوَدَّةً وُجُوهُهُمْ؛ خُذْهَا إلَيْكَ قَصِيرَةً مِنْ طَوِيلَةٍ؛[٣] **أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكَ مَا اكْتَسَبْتَ. أَرْسِلْنِي يَا أَخَا هَمْدَانَ؛ ثُمَّ دَخَلَ**

١ـ «الخصال» ج ٢ ، ص ١٦٣ ، الطبعة الحجريّة .

٢ـ «أمالي الطوسيّ» ص ٥٧ و٥٨ ، الطبعة الحجريّة .

٣ـ مَثَل عربيّ . والقصيرة هي التَّمْرة ، والطويلة هي النخلة . يقصد : خُذها إليك كلمة قصيرة جامعة نافعة . (م)

القَصْرَ.[1]

وروى ابن شهرآشوب ، عن الحافظ أبي نعيم الأصبهانيّ ، بسنده عن عطيّة ، عن أنس ، قال : دخلتُ على رسول الله ، فقال : قد أُعطيتُ الكوثر .

فقلتُ : يا رسول الله ! وما الكوثر ؟

قال : نهر في الجنّة ، عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب ، لا يشرب أحد منه فيظمأ ، ولا يتوضّأ أحد منه فيشعث ، لا يشربه إنسان أخْفَرَ[2] ذمّتي ولا قَتَلَ أهل بيتي.[3]

وعن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله :

يَذُودُ عَلِيٌّ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ لَيْسَ مِنْ شِيعَتِهِ؛ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً.[4]

وعن طارق ، قال : **قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :**

وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَأَقْمَعَنَّ بِيَدَيَّ هَاتَيْنِ مِنَ الحَوْضِ أَعْدَاءَنَا إذَا وَرَدَتْهُ أَحِبَّاؤُنَا.[5]

وروى أحمد بن حنبل في «الفضائل» نحواً منه عن **أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ.**[6]

وفي أخبار أبي رافع من خمسة طرق ؛ قال النبيّ :

يَا عَلِيُّ ! تَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ وَشِيعَتُكَ رِوَاءً مَرْوِيِّينَ ، وَيَرِدُ عَلَيْكَ عَدُوُّكَ ظِمَاءً مُقْمَحِينَ.[7]

١ـ «أمالي الطوسيّ» ص ٧٢؛ و«أمالي المفيد» ص ٢٠٠ .

٢ـ أخفر الذمّة : نقض العهد وغدر . (م)

٣ إلى ٦ـ «المناقب» ج ١ ، ص ٣٥٠، الطبعة الحجريّة .

٧ـ «مناقب ابن شهر آشوب» ج ١ ، ص ٣٥٠، الطبعة الحجريّة . والإقماح : رفع الرأس وغضّ البصر . قَمَحَ البعير : إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء . (م)

وجاء في تفسير قوله تعالى : **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** [١] يعني : سيِّدُهُم عليّ بن أبي طالب ؛ والدليل على أنّ الربّ بمعنى السيّد قوله تعالى : **اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ**. [٢]

وفي «الفائق» للزمخشريّ ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم قال لعليّ :

أَنْتَ الذَّائِدُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ تَذُودُ عَنْهُ الرِّجَالَ كَمَا يُذَادُ البَعِيرُ الصَّادِي ، أَي الَّذِي بِهِ الصَّيَدُ ، والصَّيَدُ دَاءٌ يَلْوِي عُنُقَهُ. [٣]

والصَّيَد : داء يصيب الإبل في رؤوسها ، فلا تقدر أن تلوي معه أعناقها ، وهو من الأمراض المسرية ، لذا يحرص رعاة الإبل المبتلاة بالصيد على ذودها عن المنهل .

وقال الصدوق في كتابه «العقائد» في الحوض :

اعتقادنا في الحوض أنّه حقّ وأنّ عرضه ما بين أيلة وصنعاء ، وهو للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، وأنّ فيها من الأباريق عدد نجوم السماء ، وأنّ الساقي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، يسقي منه أولياءه ، ويذود عنه أعداءه ، ومَن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله :

لَيَخْتَلَجَنَّ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِي دُونِي وَأَنَا عَلَى الحَوْضِ ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ

١ـ «الآية ٢١ ، من السورة ٧٦: الدهر.

٢ـ «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٣٥٠ ، الطبعة الحجريّة ، والآية هي الآية ٤٢ ، من السورة ١٢: يوسف.

٣ـ «المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، الطبعة الحجريّة .

ذَاتَ الشِّمَالَ، فَأُنَادِي: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، أَصْحَابِي ! فَيُقَالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ.[1]

أجل، فالروايات الواردة، عن طريقي الشيعة والعامّة، كثيرة في اختصاص حوض الكوثر بأمير المؤمنين عليه السلام، وتفيد بأجمعها على أنّ شيعة أمير المؤمنين ومحبّيه يشربون من حوض الكوثر، وأنّ المنافقين وأعداء أهل البيت يُذادون عنه، وأنّ من شرب من حوض الكوثر ارتوى ولم يظمأ أبداً، ومن ارتمس فيه طَهُر وابيضّ وجهه واكتسب قلبه جلاءً وصفاءً، لأنّ جنس ذلك الماء طاهر مطهّر. أمّا من يُذاد عنه فإنّ وجهه يسودّ، وبدنه سيكون مدنّساً تخرج منه الروائح الكريهة العفنة، وسيبقى كبده ظمآناً لاهباً.

وإجمالاً، فإنّ الواردين على حوض الكوثر هم المرتبطون بالولاية، كما أنّ المذودين عنه هم غير المرتبطين بتلك الولاية.

ونرى الآن حقيقة ذلك الحوض وماهيّة ذلك الماء اللتين يُترقّب من خلالهما هذه الآثار والخواصّ، ويُشاهد فيهما هذه الأُمور الخاصّة.

لقد علمنا في الأبحاث السابقة أنّ الآخرة تمثّل ظهوراً لعالم الدنيا، بحيث تتجلّى في صورها الملكوتيّة والحقيقيّة. وأنّ الماء هو العلّة في حياة كلّ حيّ، لقوله تعالى: **وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.**[2]

كما ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ المَاءُ.**[3]

١ـ «عقائد الصدوق» ص ٨٥.

٢ـ الآية ٣٠، من السورة ٢١: الأنبياء.

٣ـ ورد هذا المعنى في الروايات بمضامين مختلفة، منها: أوّل ما خلق الله الماء، ⇦

ولو ضممنا هذه الرواية مع غيرها من الروايات ، مثل : **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ العَقْلُ**. و**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورُ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ**. لاتضّح أنّ المراد من الماء في الرواية الأُولى هو مادّة الحياة المتمثّلة في العقل والعلم .

وعلى هذا الأساس فقد ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أنّ الله تعالى يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات **جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ**؛[1] ذلك أنّ المؤمنين قد اكتسبوا العلوم والمعارف الإلهيّة من خلال الإيمان المتلازم مع العمل الصالح ، لذا فإنّ في ذلك العالم أنهاراً جارية دائمة في الجنّة . وهذه الأنهار هي العلوم والمعارف المتدفّقة باستمرار في نفوسهم . فقلب المؤمن هو محلّ تفيض منه على الدوام الرشحات العلميّة والعرفانيّة ، وهو منبع جريان العلوم والإلهامات الربّانيّة .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ.[2]

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ.[3]

كلّ ما في الأمر أنّ تلك العلوم والمعارف الإلهيّة قد تكون صافية

⇐ أو القلم ، أو اللوح ، أو العقل ، أو النور . ويقول مؤلّف «مرصاد العباد» ص ٤٦ و٥٢ : أوّل ما خلق الله العقل . ويقول في ص ٥٢ : أوّل ما خلق الله القلم . ويقول في ص ٣٧ و١٣٣ و١٥٩ : أوّل ما خلق الله روحي .

أمّا أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه العالي فيرى أنّ الأقوى والأكثر صراحة في جميع هذه الروايات هو كلام رسول الله لجابر : أوّل ما خلق الله نور نبيّك يا جابر . («بحار الأنوار» ج ١٥ ، ص ٢٤).

١ـ وردت هذه الآية بمضامين مختلفة في ثمانية وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، مضمونها أنّ الله تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يُدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار .

٢ـ الآية ٤٥ ، من السورة ١٥ : الحجر ؛ والآية ١٥ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

٣ـ الآية ٤١ ، من السورة ٧٧ : المرسلات .

لا تشوبها شائبة من الآراء والأفكار الشخصيّة ، فتتجلّى في عالم الملكوت في هيئة ماء صاف زلال رقراق أشبه بالدموع المنهمرة .

ولأنّ المقرّبين من ساحة الله تعالى يستخرجون العلوم والمعارف من ينابيعها ، من خلال التفكّر والذكر والعبادة والعبوديّة والتسليم والرضا والتفويض ، وبواسطة السهر والقيام في الليل الحالك البهيم ، والصيام والمجاهدة في النهار القائظ اللاهب ، فحالهم أشبه بالعيون التي تفجّرها أيدي الباحثين الهاوية بالفؤوس والمطارق ، وذلك من خلال البحوث العقليّة النظريّة والعلميّة التي تستخرج تلك المعارف من زوايا الخفاء ، وتكشف عنها حُجب الآمال والأماني . وهي كما وُصفت بأ نّها :

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا.[1]

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ.[2]

وقد أوردنا في الجزء الأوّل من «معرفة المعاد» المجلس العاشر ، أنّ الأنهار الأربعة الجارية في الجنّة : من لبنٍ لم يتغيّر طعمه ، ومن ماءً غير آسن ، ومن عسلٍ مصفّى ، ومن خمر وشراب لذّة للشاربين ، هي عبارة عن التجلّيات والظهور الملكوتي للعلوم التي يحصل عليها المبتدئون في السير والسلوك ، والضعفاء في الطريق إلى الله ، لأنّ اللبن هو طعام الطفل ، فتكون تلك العلوم من العلوم الخالصة ، والمعرفة بالله التي لا تشوبها شائبة ، لأن حياة القلب بالعلم والمعرفة .

وعدم تغيّر الطعم عائد إلى عدم تلوّث تلك العلوم بالأفكار والآراء النفسانيّة والشيطانيّة ، وبواردات عالم القدس والبوارق النورانيّة واللذائذ

١ـ الآية ٦ ، من السورة ٧٦: الدهر.

٢ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٨٣: المطفّفين.

التي تحصل للسالكين المتوسّطين خلال الأحوال المختلفة ، فتثير فيهم الوجد والالتفات .

أمّا تصفية العسل فعبارة عن عدم تكدّر تلك العلوم بالموادّ الشمعيّة التي قد تحصل من تسويلات النفس . ثمّ إنّ السالك يتعرّض لتجلّيات الجمال وعشق الذات ، فينسى نفسه ويمّحي في أنوار الله تعالى .

ولمّا كان تجلّي الجلال يطهّر السالك من جميع التعلّقات الدنيويّة من التعيّن والمال وحبّ الجاه والوجود ، فقد دُعي لذلك بالشراب الطهور ، **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**؛[1] لأنّ الطهور لا يعني الطاهر فحسب ، بل هو أيضاً بمعنى المطهّر . وهذه العلوم والمعارف الجلاليّة تحرق السالك وتُفنيه أمام عظمة الحقّ وقهّاريته وكبريائه .

وقد عبّر حافظ الشيرازيّ عنه بالشراب المرّ ، في قوله :

شراب تلخ مى‌خواهم كه مرد افكن بود زورش
كه تا يكدم بياسايم ز دنيا وشر وشورش[2]

وهذه الجذبات الجلاليّة الثمينة هي التي تحقّق ثمرة قضاء العمر في السلوك ، ألا وهي نيل مقام الفناء في الله تعالى ، حيث ورد :

جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الحَقِّ تُوَازِي عِبَادَةَ الثَّقَلَيْنِ .[3]

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ٧٦: الدهر .

٢ـ «ديوان حافظ» ص ١٢٥ ، طبعة پژمان ، سنة ١٣١٨ .

يقول : «أبغي شراباً مُرّاً يطوّح بالرجل ، لأرتاح هُنيهة من شرّ الدنيا وشرورها» .

٣ـ تكرّرت هذه الجملة في كتب أصحاب السلوك . وقد أوردها الشيخ نجم الدين الرازيّ في كتاب «مرصاد العباد» ، في الصفحات ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٣٦٩ ، ٥١١؛ وفي كتاب «عشق و عقل» (= العشق والعقل) ص ٦٤. وقد نقل المعلّق والمصحّح والشارح للكتاب في ص ١٠٩ و ١١٠ عن مصحّح كتاب «فيه ما فيه» مثنوي أنّ هذه الجملة من كلام أبي القاسم ⇐

وإذا اقترنت هذه العلوم والمعارف بحرارة الطلب، وبقي العشق حيّاً لدى السالك، فإنّ قدراً من الزنجبيل (وهو مادّة تثير الحرارة) سيضاف إلى تلك العلوم. **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا.**[1]

وحين يشاء الله تعالى منحهم قدراً من السكينة من خلال تجلّيات الجمال، فإنّه يصبّ في كأسهم قدراً من عين الكافور، وهو مادّة باردة. **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا.**[2]

وفي المقابل، فلو اقترن إدراك العلوم بالإنكار والجحود والاستكبار، فإنّ تلك العلوم ستستحيل في هيئة ماء حميم يصبّ في الأفواه، لا يؤدّي إلّا إلى إلهاب العطش وإزدياد حرقة الظمأ:

تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ.[3]

أمّا الأبرار، فيُسقون من عين التسنيم التي تُمزج بالرحيق المختوم،[4]

⇐ إبراهيم بن محمّد النصر آباديّ. وقد أوردها جامي في ترجمة إبراهيم بن الأدهم باختلاف يسير: جذبة من جذبات الحقّ تربي عمل الثقلين وقد أورد أبو سعيد أبو الخير هذه العبارة بلفظ الشيخ باختلاف يسير («أسرار التوحيد» ص ٢٤٧، طبعة طهران). وقال مولانا جلال الدين في «مثنوي»:

اين چنين سيرى است مستثنى ز جنس كان فزود از اجتهاد جن وانس

اين چنين جذبى است نى هر جذب عام كه نهادش فضل احمد و السلام

يقول: «إنّ مثل هذا السير والسلوك مستثنى من الجنس، لأنّه يفوق اجتهاد الجنّ والإنس.

وهذا الجذب لا يشبه عموم الجذب، لأنّ أساسه فضل أحمد، والسلام».

١ـ الآية ١٧، من السورة ٧٦: الدهر.

٢ـ الآية ٥، من السورة ٧٦: الدهر.

٣ـ الآيتان ٤ و٥، من السورة ٨٨: الغاشية.

٤ـ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ** ⇐

وهي عين تنبع من الأعراف ؛ والأعراف ـ كما سيأتي لاحقاً ـ حجاب بين الجنّة والنار يقف عليه الأئمّة الطاهرون الحاكمون على الجنّة والنار .

وتجري عين التسنيم تحت أقدام أمير المؤمنين عليه السلام ، وتصبّ في حوض الكوثر . أمّا ماء الكوثر ، فهو مزيج من عين التسنيم وعين المعين ، وهو ماء مُحيي نافع لتطهير قلوب المذنبين .

وبينما يجسّد الماء المعين العلوم والمعارف الإلهيّة ، فإنّ ماء التسنيم يمثّل الولاية والمحبّة ، وحين يُمزجان ينتج منها مزاج من العلوم الإلهيّة مقترن بالولاية (التي هي حقيقة التوحيد) . وذلك المزاج هو الذي يُطفئ ظمأ الأكباد الحرّى ، فمن شرب منه ارتوى فلم يظمأ أبداً ، ومن لم يشرب منه لم يروه أيّ شراب غيره .

أجل ، لقد كان عليّ باب علم النبيّ : **أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا** .[1]

وكان عليّ صاحب ولاية رسول الله ، إذ قال له : **أَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ مِنْ بَعْدِي** .[2]

فمن اقترب من مقام الولاية ، ونهل من علم أمير المؤمنين وولايته ،

⇐ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ . (الآيات ٢٢ إلى ٢٦ ، من السورة ٨٣ : المطفّفين) .

١ـ «كنز العمّال» ج ١٢ ، ص ٢٠١ ، الحديث ١١٣٠ ، طبعة الهند ، سنة ١٣٨٤ هـ ؛ و«وسائل الشيعة» ج ١٨ ، ص ٥٢ ، الطبعة الحروفيّة .

٢ـ هذه الجملة من كلمات رسول الله المشهورة ، وقد نقلها أعلام المحدّثين والمؤرّخين ، ونوردها الآن ضمن حديث العشيرة الذي دعا فيه أمير المؤمنين بأمرٍ من رسول الله عشيرة النبيّ في مجلسٍ خاطبهم فيه رسول الله قائلاً :

أيّكم ينتدب أن يكون أخي ووزيري ووصيّي وخليفتي في أُمّتي ووليّ كلّ مؤمن بعدي ؟ فسكت القوم حتّى أعادها ثلاثاً ؛ فقال عليّ : أنا يا رسول الله . («الغدير» ج ٢ ، ص ٢٨٢) .

شرب من حوض الكوثر .

وعليّ عليه السلام هو معدن العلم ، والمتجسّد بالحقّ والحقيقة ، وهو منبع الولاية والعبوديّة المحضة . فمن عاداه ولم يعظّم مقامه ، ولم يفِ بعهده وميثاقه ، شطّ عن الحقّ وابتعد ، وجاء عطشاناً يلتهب كبده ظمأً ، لا سبيل له للدنوّ من الحوض ، لأنّ ماء الكوثر محرّم على الكافرين والمعاندين .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ.[1]

إنّ عالم الآخرة هو عالم ظهور الحقيقة ، فمن لم يتّخذ لنفسه سبيلاً في الدنيا من خلال الإيمان والعمل الصالح وطاعة الأئمّة الأطهار عليهم السلام وتولّيهم ، سوف يُحرم من الدنوّ من منهل ماء الحياة المعنويّة ومن شُحنة الولاية الدافعة . وبينما يسودّ وجهه وهو يتلظّى عطشاً ، يأتي أصحاب الولاية والمحبّون رواءً بوجوه مبيضّة مُشرقة . ومن هنا فإنّ **حَوْضَ الكَوْثَرِ هُوَ مَقَامُ ظُهُورِ الوَلَايَةِ وَتَجَلِّيهَا.**

كان هذا مجملاً لما يمكن بيانه عن الكوثر وساقيه مولى الموالي عليه السلام ، أمّا حقائقه فلا يتّسع لها لفظ وعبارة ، ولا ترقى إليها الأفكار ، ولا تتجسّد في هيئة معيّنة .

أمّا أنّ ذلك الحوض يمتدّ ما بين أيلة وصنعاء ، وأنّ الأقداح على ضفتيه بعدد نجوم السماء ، وأنّ حصباءه من الياقوت ، ونباته من الزعفران ، وأنّ السرادقات على جانبيه من الزبرجد والياقوت والدرّ ، وسائر خصوصيّات الحوض ، فهي أُمور صحيحة بأجمعها ومحفوظة في مواضعها

١ـ الآية ٤٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

في عالم الملكوت ، إلّا أنّها بأجمعها تمثّل ظهور تلك الحقيقة لمقام العلم والولاية ؛ **رَزَقَنَا اللهُ وَإيَّاكُمْ أَنْ نَرْوَى مِنَ الحَوْضِ رِوَاءً مَرْوِيِّينَ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ** .

كلّ ما في الأمر أنّ علينا السعي لزيادة سعتنا واستفادتنا من ذلك الحوض من خلال تقوية ارتباطنا .

ومن المناسب أن نورد هنا رؤيا للإمام الرضا عليه السلام رُويت عنه ، من أجل أن تتّضح أهمّيّة حوض الكوثر وقيمة مقام الولاية والتمسّك بالولاية ، وقيمة القصيدة الغرّاء لشاعر أهل البيت **السيّد إسماعيل الحِمْيريّ** .

يقول العلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار» :[1]

وجدتُ في بعض تأليفات أصحابنا أنّه روى بإسناده عن سهل بن ذبيان ، قال : دخلتُ على الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في بعض الأيّام ، قبل أن يدخل عليه أحد من الناس ؛ فقال لي : مرحباً بك يابن ذبيان ، الساعة أراد رسولنا أن يأتيك لتحضر عندنا .

فقلت : لماذا يابن رسول الله ؟

فقال : لمنام رأيتُه البارحة وقد أزعجني وأرّقني .

فقلتُ : خيراً يكون إن شاء الله تعالى .

فقال : يابن ذبيان ! رأيتُ كأنّي قد نُصب لي سُلّم فيه مائة مرقاة ، فصعدتُ إلى أعلاه .

فقلتُ : يا مولاي ! أهنيّك بطول العمر ، وربّما تعيش مائة سنة ، لكلّ

١ـ «بحار الأنوار» المجلّد الحادي عشر ، ص ٢٠٣ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ) ؛ وج ٤٧ ، ص ٣٢٨ إلى ٣٣٢ ، الطبعة الجديدة .

مرقاة سنة .

فقال لي عليه السلام : ما شاء اللهُ كان .

ثمّ قال : يابن ذبيان ! فلمّا صعدتُ إلى أعلى السلّم رأيتُ كأنّي دخلتُ في قُبّة خضراء يُرى ظاهرها من باطنها ، ورأيتُ جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله جالساً فيها ، وإلى يمينه وشماله غلامان حسنان ، يُشرق النور من وجهيهما ، ورأيتُ امرأة بهيّة الخلقة ، ورأيتُ بين يديه شخصاً بهيّ الخلقة جالساً عنده ، ورأيتُ رجلاً واقفاً بين يديه وهو يقرأ هذه القصيدة «**لِأُمِّ عَمْرٍو بِاللِّوَى مَرْبَعٌ**» فلمّا رآني النبيّ صلّى الله عليه وآله قال لي : مرحباً بك يا ولدي يا عليّ بن موسى الرضا ، سَلِّمْ على أبيك عليّ ! فسلّمتُ عليه . ثمّ قال لي : سلّم على أُمّك فاطمة الزهراء ! فسلّمت عليها . فقال لي : وسلّم على أبويك [1] الحسن والحسين ! فسلّمتُ عليهما ، ثمّ قال لي : وسلّم على شاعرنا ومادحنا في دار دنيا السيّد إسماعيل الحِميريّ ! فسلّمتُ عليه وجلستُ . فالتفت النبيّ إلى السيّد إسماعيل ، فقال له : عُد إلى ما كنّا فيه من إنشاد القصيدة ، فأنشد يقول :

لِأُمِّ عَمْـرٍو بِاللِّـوَى مَـرْبَعٌ طَـامِـسَـةٌ أَعْـلَامُـهُ بَلْـقَعُ

فبكى النبيّ صلّى الله عليه وآله ؛ فلمّا بلغ إلى قوله :

*** وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ إذْ تَطْلَعُ ***

١ـ لأنّ أُمّ الإمام الباقر عليه السلام هي فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبى . لذا قيل للإمام الباقر (ابن الخيرتين) أي من جهة أبيه وأُمّه . فهو عليه السلام حسينيّ الأب ، حسنيّ الأُم ؛ والإمام الحسن والإمام الحسين جدّاه . وقد صار الأئمّة الطاهرون من الباقر عليه السلام إلى صاحب الأمر ينحدرون من نسل الحسنين . ونرى ـ لهذه الجهة ـ أنّه قد ورد في بعض الزيارات تعبير (يابن الحسن) و(يابن الحسين) . وعلى هذا الأساس فقد خاطب رسولُ الله الإمام الرضا في عالم الرؤيا وأمره أن يسلّم على أبويه الحسن والحسين عليهما السلام .

بكى النبيّ صلّى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام معه ومَن معه .
ولمّا بلغ إلى قوله :

قَالُوا لَهُ لَوْ شِئْتَ أَعْلَمْتَنَا　　إِلَى مَنِ الغَايَةُ وَالمَفْزَعُ

رفع النبيّ صلّى الله عليه وآله يديه ، وقال :

إلهي ! أنت الشاهد عَلَيَّ وعليهم أنّي أعلمتُهم والمفزع عَلِيُّ بن أبي طالب ، وأشار بيده إليه ، وهو جالس بين يديه صلوات الله عليه .

قال عليّ بن موسى الرضا عليه السلام : فلمّا فرغ السيّد إسماعيل الحِميريّ من إنشاد القصيدة ، التفتَ النبيّ صلّى الله وآله إليّ وقال لي :

يا عليّ بن موسى ! احفظ هذه القصيدة ، ومُرْ شيعتنا بحفظها ، وأعلمهم أنّ من حفظها وأدمن قراءتها ضمنتُ له الجنّة على الله تعالى .

قال الرضا عليه السلام : ولم يزل يكرّرها عَلَيَّ حتّى حفظتها منه ، والقصيدة هذه :

لِأُمِّ عَمْرٍو[1] بِاللِّوَى[2] مَرْبَعُ[3]　　طَامِسَةٌ[4] أَعْلَامُهُ بَلْقَعُ[5]
تَرُوحُ عَنْهُ الطَّيْرُ وَحْشِيَّةً　　وَالأُسْدُ مِنْ خِيفَتِهِ تَفْزَعُ
بِرَسْمِ[6] دَارٍ مَا بِهَا مُؤْنِسٌ　　إِلَّا صِلَالٌ[7] فِي الثَّرَى وُقَّعُ

١ـ أم عمرو : كناية عن المحبوبة .
٢ـ اللِّوى : بالكسر والقصر : منقطع الرمل ، وهو ما التوى من الرمل .
٣ـ المربع : الموضع الذي يرتبع فيه في الربيع . ربعُ بني فلان : محلّتهم .
٤ـ الطموس : الدروس .
٥ـ البلقع : الأرض القفر .
٦ـ رسم الدار : آثارها .
٧ـ الصِّلال : جميع الصِّل : الحيّة التي لا تنفع فيها الرُّقيّة .

رُقْشٌ[1] يَخَافُ المَوْتُ مِنْ نَفْثِهَا[2] ... وَالسُّمُّ فِي أَنْيَابِهَا مُنْقَعُ

لَمَّا وَقَفْنَ العِيْسُ[3] فِي رَسْمِهِ ... وَالعَيْنُ مِنْ عِرْفَانِهِ تَدْمَعُ

ذَكَرْتُ مَا قَدْ كُنْتُ أَلْهُو بِهِ ... فَبِتُّ وَالقَلْبُ شَجٍ[4] مُوجَعُ

كَأَنَّ بِالنَّارِ لِمَا شَفَّنِي[5] ... مِنْ حُبِّ أَرْوَى[6] كَبِدِي تَلْذَعُ[7]

عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ أَتَوْا أَحْمَداً ... بِخُطَّةٍ لَيْسَ لَهَا مَوْضِعُ

قَالُوا لَهُ لَوْ شِئْتَ أَعْلَمْتَنَا ... إِلَى مَنِ الغَايَةُ وَالمَفْزَعُ

إِذَا تُوُفِّيتَ وَفَارَقْتَنَا ... وَفِيهِمُ فِي المُلْكِ مَنْ يَطْمَعُ

فَقَالَ لَوْ أَعْلَمْتُكُمْ مَفْزَعاً ... مَاذَا عَسَيْتُمْ فِيهِ أَنْ تَصْنَعُوا

صَنِيعَ أَهْلِ العِجْلِ إِذْ فَارَقُوا ... هَارُونَ فَالتَّرْكُ لَهُ أَوْدَعُ[8]

وفِي الَّذِي قَالَ بَيَانٌ لِمَنْ ... كَانَ إِذَا يَعْقِلُ أَوْ يَسْمَعُ

ثُمَّ أَتَتْهُ بَعْدَ ذَا عَزْمَةٌ[9] ... مِنْ رَبِّهِ لَيْسَ لَهَا مَدْفَعُ

أَبْلِغْ وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ مُبْلِغاً ... وَاللَّهُ مِنْهُمْ عَاصِمٌ يَمْنَعُ

فَعِنْدَهَا قَامَ النَّبِيُّ الَّذِي ... كَانَ بِمَا يَأْمُرُهُ يَصْدَعُ[10]

١ـ الرُّقش بالضمّ: جمع الرقشاء: الأفعى المرقّطة.

٢ـ النفث: النفخ.

٣ـ العيس: جمع عيساء، الإبل البيضاء التي يشوب بياضها شُقرة.

٤ـ شجى شجواً: أحزنه وأطربه (وهو من الأضداد).

٥ـ شفّ: أهزل

٦ـ أروى: اسم المحبوبة.

٧ـ لذع فلاناً بكلامه: أوجعه وآلمه. تلذع: تُحرق.

٨ـ أَوْدَعُ لَكم: من الدَّعَة وهي الراحة واليُسر. (فالتَّرْكُ له أودع) يعني: إن كنتم تصنعون مثل صنيعهم، فالترك لهذا السؤال أودع لكم.

٩ـ العَزْمة: الثبات والنيّة والصبر. أي الأمر من جانب الله تعالى.

١٠ـ صَدَع بالأمر: أعلنه وأظهره.

يَـخْطُبُ مَأْمُـوراً وَفِـي كَفِّهِ كَـفُّ عَـلِيٍّ نُـورُهَا يَـلْمَعُ
رَافِـعُهَا أَكْـرِمْ بِكَـفِّ الَّـذِي يَـرْفَعُ وَالكَـفِّ الَّـذِي يُـرْفَعُ
يَـقُولُ وَالأَمْـلَاكُ مِـنْ حَـوْلِهِ وَاللَـهُ فِـيهِمْ شَـاهِدٌ يَسْـمَعُ
مَـنْ كُـنْتُ مَـوْلَاهُ فَـهَذَا لَـهُ مَوْلَىً فَلَمْ يَرْضَوْا وَلَـمْ يَـقْنَعُوا
فَـاتَّهَمُوهُ وَحَـتَتْ[1] مِـنْهُمُ عَلَى خِـلَافِ الصَّـادِقِ الأَضْـلَعُ
وَضَـلَّ قَـوْمٌ غَـاظَهُمْ فِـعْلُهُ كَأَنَّـمَا آنَـافُهُمْ تُـجْدَعُ[2]
حَـتَّى إذَا وَارَوْهُ فِـي قَـبْرِهِ وَانْـصَرَفُوا عَـنْ دَفْـنِهِ ضَـيَّعُوا
مَـا قَـالَ بِـالأَمْسِ وَأَوْصَـى بِـهِ وَاشْـتَرُوا الضُّـرَّ بِـمَا يَـنْفَعُ
وَقَـطَّعُوا أَرْحَـامَهُ بَـعْدَهُ فَسَـوْفَ يُـجْزَوْنَ بِـمَا قَـطَّعُوا
وَأَزْمَـعُوا[3] غَـدْراً بِـمَوْلَاهُمُ تَـبّاً لِـمَا كَـانُوا بِـهِ أَزْمَـعُوا
لَا هُـمْ عَـلَيْهِ يَـرِدُوا حَـوْضَهُ غَـداً وَلَا هُـوْ فِـيهِمْ يَشْـفَعُ
حَوْضٌ لَـهُ مَـا بَـيْنَ صَـنْعَا إلَـى أَيْـلَةٍ[4] أَرْضِ الشَّـامِ أَوْ أَوْسَـعُ
يُـنْصَبُ فِـيهِ عَـلَمٌ لِـلْهُدَى وَالحَـوْضُ مِـنْ مَـاءٍ لَـهُ مُـتْرَعُ[5]
يَـفِيضُ مِـنْ رَحْـمَتِهِ كَـوْثَرٌ أَبْـيَضُ كَـالفِضَّةِ أَوْ أَنْـصَعُ
حَـصَاهُ يَـاقُوتٌ وَمَـرْجَانَةٌ وَلُـؤْلُؤٌ لَـمْ تَـجْنِهِ[6] أَصْـبَعُ
بَـطْحَاؤُهُ مِسْكٌ وَحَـافَاتُهُ يَـهْتَزُّ مِـنْهَا مَـوْفِقٌ[7] مُـونِعُ[8]

١ـ سُكِّنَتْ تاء حَتَتَ الثانية للضرورة الشعريّة . وحَتَّ الشجرة : أسقط ورقها وقشرها . وحَتَّ الشيء عن الثوب : حكّه وأزاله .

٢ـ جَدَع ـ جدعاً الأنف وما شاكله : قَطَعه .

٣ـ أزمع الأمر : أرادهُ وعزم عليه .

٤ـ أيلة : بلدة صغيرة من ساحل بحر القلزم قرب الشام .

٥ ـ أترع الإناء : ملأه .

٦ـ جنى جنياً ؛ وجنى الثمر : تناوله من شجرته .

٧ـ الموفِق : الجميل .

٨ـ يَنَعَ وَأَينع الثمر : طاب وأدرك وحان قِطافه .

أَخْـضَرَ مَا دُونَ الوَرَى نَاضِرٌ وَفَـاقِعٌ[١] أَصْـفَرَ مَـا يَـطْلَعُ
وَالعِـطْرُ وَالرَّيْـحَانُ أَنْـوَاعُـهُ تَسْـطَعُ إِنْ هَـبَّتْ بِـهِ زَعْـزَعُ[٢]
رِيـحٌ مِـنَ الجَـنَّةِ مَأْمُـورَةٌ ذَاهِـبَةٌ لَـيْسَ لَـهَا مَـرْجِعُ
إِذَا مَـرَتْهُ فَـاحَ مِـنْ رِيـحِهِ أَزْكَـى مِنَ المِسْكِ إِذَا يَسْطَعُ
فِـيهِ أَبَـارِيقُ وَقِـدْحَانُهُ يَـذُبُّ عَنْهُ الرَّجُـلُ الأَصْـلَعُ[٣]
يَـذُبُّ عَـنْهُ ابْـنُ أَبِـي طَـالِبٍ ذَبّاً كَـجَرْبَى[٤] إِبِـلٍ شُـرَّعُ[٥]
إِذَا دَنَـوْا مِـنْهُ لِكَـيْ يَشْـرَبُوا قِـيلَ لَـهُمْ تَـبّاً لَكُـمْ فَـارْجِعُوا
دُونَكُـم[٦] فَـالْتَمِسُوا مَـنْهَلاً يُـرْوِيكُمُ أَوْ مَـطْعَماً يُشْـبِعُ
هَـذَا لِـمَنْ وَالَـى بَنِي أَحْـمَدٍ وَلَـمْ يَكُـنْ غَـيْرَهُمُ يَـتْبَعُ
فَـالفَوْزُ لِـلشَّارِبِ مِـنْ حَـوْضِهِ وَالذُّلُّ وَالوَيْـلُ لِـمَنْ يُـمْنَعُ
فَـالنَّاسُ يَـوْمَ الحَشْـرِ رَايَـاتُهُمْ خَـمْسٌ فَـمِنْهَا هَـالِكٌ أَرْبَـعُ
فَـرَايَـةُ العِـجْلِ وَفِـرْعَوْنُهَا وَسَـامِرِيُّ الأُمَّـةِ المُشْـنِعُ[٧]
وَرَايَـةٌ يَـقْدُمُهَا أَدْلَـمٌ عَـبْدٌ لَـئِيمٌ لُكَـعٌ أَكْـوَعُ[٨]

١ـ الفاقع: صفة للون الأصفر، وهو الخالص الصافي من الألوان.

٢ـ سطع الغبار أو الرائحة أو النور: ارتفع وانتشر. وزعزعه، زعزعةً: حرّكه بشدة، ريحٌ زعزع: شديدة.

٣ـ الأصلع: هو ما انحسر مقدّم شعره عن جبينه.

٤ـ الجَرَب: مرض يصيب الإبل. وهو من الأمراض المسريّة، لذا يعمد رعاة الإبل إلى طرد الإبل الجربى. وذودها عن الماء لئلّا يُصاب غيرها.

٥ـ شَرَع شَرْعاً وشروعاً في الماء: ورده أو شرب منه بكفّيه. والجمع شُرّع.

٦ـ دونك: اسم فعل بمعنى خُذ، وهو متصرف، فيقال: دونكما ودونكم. إلّا أنّه في القصيدة ورد ظرفاً بمعنى عِند.

٧ـ شنعه: استقبحه. شَنُعَ وشَنِيعَ وأَشْنَعَ: قَبح، فهو شنيع ومُشنِع.

٨ـ دَلِمَ: اشتدّ سواده. واللكع: اللؤم والحمق. واللكع: اللئيم والعبد الأحمق. ⇦

وَرَايَــــةٌ يَــــقْدُمُهَا حَـــبْتَرٌ[1] لِــلزُّورِ وَالبُــهْتَانِ قَــدْ أَبْـدَعُوا
وَرَايَــــةٌ يَــــقْدُمُهَا نَــــعْثَلٌ[2] لَا بَـــرَّدَ اللّـــهُ لَـــهُ مَــضْجَعُ[3]
أَرْبَـــعَةٌ فِـــي سَـــقَرٍ أُودِعُـــوا لَـــيْسَ لَـهُمْ مِـنْ قَـعْرِهَا مَـطْلَعُ
وَرَايَــــةٌ يَــــقْدُمُهَا حَـــيْدَرٌ وَوَجْـــهُهُ كَـــالشَّمْسِ إِذْ تَـــطْلُعُ
غَداً يُـلَاقِي المُـصْطَفَى حَـيْدَرٌ وَرَايَـــةُ الحَـــمْدِ لَـــهُ تُـــرْفَعُ
مَــــوْلَىً لَـــهُ الجَـــنَّةُ مَأْمُـــورَةٌ وَالنَّـــارُ مِـــنْ إِجْـــلَالِهِ تَـــفْزَعُ
إِمَــــامُ صِــــدْقٍ وَلَـــهُ شِـــيعَةٌ يُرْوَوا مِنَ الحَوْضِ وَلَمْ يُـمْنَعُوا
بِــذَاكَ جَـاءَ الوَحْـيُ مِـنْ رَبِّـنَا يَــا شِيعَةَ الحَـقِّ فَـلَا تَـجْزَعُوا
الحِـــمْيَرِي مَـادِحُكُمْ لَـمْ يَـزَلْ وَلَـــوْ يُـــقَطَّعْ أَصْـــبَعاً أَصْـــبَعُ
وَبَعْدَهُ صَـلُّوا عَـلَى المُـصْطَفَى وَصِـــــنْوِهِ حَـــيْدَرَةِ[4] الأَصْـــلَعُ

وقد اقتفى السيّد إسماعيل الحميريّ المعاصر لزمن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذه القصيدة التي أنشأها على أُسلوب الشعراء العرب وملوك الفصاحة والبلاغة حين يعبّرون عن أسفهم وأساهم على الأيّام الغابرة والعمر المنصرم، وحين يتلهّفون على المباهج واللذائذ التي

⇦ وكَوِع يكوع كوعاً: عظم كوعه أو التوى أو اعوجّ فهو أكوع. والكاع والكوع: طرف الزند ممّا يلي الإبهام. وجمعه: أكواع.

١ـ في «صحاح اللغة»: الحَبتر بالفتح: القصير، مثل بَحْتَر. وفي «لسان العرب»: الحبتر والحباتر بمعنى القصير، مثل حَتْرَب وبُحْتُرٌ، ومؤنّثة بُحترة. والحبتر من أسماء الثعلب وقد اختار المجلسيّ رحمه الله هذا المعنى وقال: الحبتر هو الثعلب. وذلك في رواية نقلها في كتاب العدل والمعاد .(انظر «بحار الأنوار» ج ٨، ص ٣٠١، الطبعة الحروفيّة).

٢ـ نعثل: شيخ أحمق.

٣ـ كذا في النسخة، والصحيح (مضجعاً) بالنصب.

٤ـ حيدر وحيدرة: من أسماء الأسد، وهو من أسماء أمير المؤمنين عليه السلام.

مرّت عليهم في منازل المحبّة ، ثمّ عصفت بها الأيّام فانقضت .

فهو يذكر ـ من باب الاستعارة ـ المنزل الداثر للحبيب وقد أضحى في وادٍ مقفر لا ماء فيه ، وقد تهدّم سقفه وانهارت أعمدته ؛ إيماءةً منه إلى أنّ البناء المعنويّ العامر قد استحال إلى مثل هذه الأطلال ، وإلى أنّ أساس المحبّة والمودّة قد انطمس وانهار وتلاشى .

ثمّ إنّه ، على أساس فنّ الغزل ، يشبّه بالعشق تلك اللذّة المعنويّة وذلك الهيام بالمقصود ، ويشبّه ذلك المحبوب بالمعشوقة ، ثمّ يتحدّث عن مسكن الحبيب ومأواه من خلال حديثه عن المربع الذي أضحى خربة بلقعا ، دون أن يتطرّق إلى ذكر وجه الشبه بينهما .

ثم يعرّج على ذكر تلك النعم الزائلة والرحمة المنقطعة ، فيفصّل في بيانها .

ويريد المرحوم السيّد الحِميريّ في هذا المجال ذكر قصّة حقّانيّة أمير المؤمنين عليه السّلام ومظلوميّته ، مروراً بنصبه في غدير خُم بالإمارة والإمامة والولاية ، ومخالفة المعاندين ، وانتهاءً بغصب الخلافة ونصب العداء لأهل البيت الطاهرين ، ثمّ مجيء حكومات ضالّة جائرة . ثمّ يذكر عاقبة الاستمساك بالولاية وعقاب الابتعاد عنها في إشارة إلى الرواية الواردة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في ظهور حوض الكوثر في موقف عرصات القيامة وخصائصه ومزاياه ، مؤكداً على أنّ تلك النعمة والكوثر والتسنيم والنسيم العليل والرياحين العطرة والجواهر النفيسة مختصّة بمحبّي أمير المؤمنين وشيعته وأتباعه ، وأنّهم هم الذين يرتوون من حوض الكوثر ؛ أمّا المنافقون والمعاندون من أعداء أهل البيت ومنكري فضائلهم ، فليس لهم من ماء الكوثر نصيب .

لذا ، فإنّه يذكر أوّلاً منزل محبوبته الخياليّة «أروى» متغزّلاً بها ، ثمّ

يذكر اندثار ذلك البناء وانطماس أثر ذلك المنزل الذي استحال مأوى للأفاعي والصِّلال التي لا رُقية لسمّها ، ويذكر وقوف القافلة عند عبورها على تلك الأطلال . ثمّ يعرّج على ذكر تلك النعم الضائعة ، وذلك الصفاء وتلك المحبّة اللذين استحالا عداوة وضغناً ، فيتحسّر على ذلك ويأسف له ، ثمّ يتعرّض لبيان ذلك مفصّلاً .

وقد أورد المجلسيّ رضوان الله عليه هذه القصيدة في «بحار الأنوار» المجلّد الحادي عشر ، ص ٢٠٢ إلى ٢٠٤ ؛كما ذكر السيّد الشهيد القاضي نور الله الشوشتريّ ترجمة السيّد الحميريّ في كتابه «مجالس المؤمنين» ص ٤٦٢ إلى ٤٦٤ ، وذكر هذه القصيدة في ص ٤٦٥ . وأوردهاكذلك الحاجّ الميرزا حسين النوريّ في «دار السلام» ج ١ ، ص ٤٤ .كما أورد العلّامة الأمينيّ ترجمة السيّد الحميريّ في كتابه «الغدير» ج ٢ ، ص ٢١٣ إلى ٢٨٩ ، ونقل له في ص ٢١٩ ثلاثاً وعشرين قصيدة غديريّة ،كانت هذه القصيدة عاشرتها . وأوردها كذلك أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» ج ٣ ، ص ٣٠٩ . وطُبعت أيضاً في آخر كتاب «المعلّقات السبع» .

هذا وقد وردت القصيدة في «ديوان الحميريّ» ص ٢٦٢ نقلاً عن كتاب «ظرافة الأحلام» ، وذكر بأن رواية كتاب «ظرافة الأحلام» منقّحة ومنقولة من نسخة خطّيّة يرجع تأريخ كتابتها إلى ما قبل ستمائة سنة ، وأنّ مجموع أبيات القصيدة كان خمسين بيتاً . إلّا أنّ المرحوم المجلسيّ في «بحار الأنوار» والمرحوم النوريّ في «دار السلام» قد أوردا أربعة وخمسين بيتاً ، ولم يكن البيت السادس والثلاثون من ضمنها ، وهو قوله :

إذَا مَــرَتْهُ فَـاحَ مِـنْ رِيـحِهِ أَزْكَى مِنَ المِسْكِ إذَا يَسْطَعُ

وقد صرّح العلّامة الأمينيّ في «الغدير» بأنّ مجموع الأبيات واحد وخمسون بيتاً ، حيث لم يذكر الأبيات السادس والثلاثين ، السادس

والأربعين ، الثامن والأربعين ، الخمسين والبيت الحادي والخمسين ، لكنّه ـ من جهة أُخرى ـ أورد أحد الأبيات مكرّراً بمضمونين . فقد أورد البيت

هَذَا لِمَنْ وَالَى بَنِي أَحْمَدَا وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَهُمْ يَتْبَعُ

ثمّ أورد :

هَذَا لِمَن وَالَى بَنِي أَحْمَدَا وَالحُبُّ فِي غَيْرِهِمُ لَا يَنْفَعُ

فكان مجموع أبيات القصيدة واحداً وخمسين بيتاً . أمّا في «ديوان الحميريّ» حيث نُقلت هذه الأشعار عن «طرافة الأحلام» ، فقد أورد واحداً وخمسين بيتاً ،كان منها البيت السادس والثلاثون ، السادس والأربعون ، السابع والأربعون ، الثامن والأربعون ، الرابع والخمسون والبيت الخامس والخمسون .

وأرى أنّ أقرب هذه النقول هو نقل رواية «مجالس المؤمنين» التي لم تورد البيتين السادس والأربعين والسابع والأربعين ،لوضوح أنّ الحميريّ يريد الإشارة إلى رايات الضلال الأربع التي رفعها أربعة أشخاص ،كان آخرهم معاوية بن أبي سفيان ، بينما لو احتسبنا البيتين السادس والأربعين والسابع والأربعين ضمن القصيدة ، لانفرط عقدها لعدّة جهات ، وللزم أن نعدّ السامريّ عطف تفسير على العجل ، وهو خلاف المعهود .

أمّا مؤلّف «مجالس المؤمنين» وكما سبقت الإشارة ، فلم يورد البيت السادس من القصيدة ،كما أنّ مؤلّف «طرافة الأحلام» لم يورد البيتين السادس والأربعين والسابع والأربعين . وكان ترتيب الأبيات حسب نقل «طرافة الأحلام» على النحو التالي :

فَالنَّاسُ يَوْمَ الحَشْرِ رَايَاتُهُمْ خَمْسٌ فَمِنْهُمْ هَالِكٌ أَرْبَعُ
قَائِدُهَا العِجْلُ وَفِرْعَوْنُهَا وَسَامِرِيُّ الأُمَّةِ المُفْظِعُ
وَمَارِقٌ مِنْ دِينِهِ مَخْدِجٌ أَسْوَدُ عَبْدٍ لُكَعٌ أَوْكَعُ

وَرَايَـــةٌ قَـائِدُهَا وَجْـهُهُ كَأَنَّـهُ الشَّـمْسُ إذَا تَـطْلَعُ

وبناء على ما قيل فإنّ هذا التسلسل واضح ، ويكون المراد من المارق من الدين والمخدج والعبد الأسود اللكع الأوكع : معاوية الذي اجتمعت فيه هذه الصفات . ويشهد على كلامنا الرواية التي رواها العلاّمة المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ١١ ، ص ٢٠٢ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ) ، والتي لم يرد فيها البيتان السادس والأربعون والسابع والأربعون .

يروي العلاّمة المجلسيّ عن «رجال الكشّيّ» ، عن نصر بن الصباح ، عن إسحاق بن محمّد البصريّ ، عن عليّ بن إسماعيل ، عن فضيل الرسّان ، قال : دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام بعد ما قُتل زيد بن عليّ ، فأُدخلت بيتاً جوف بيت ، فقال لي :

يَا فُضَيْلُ ! قُتِلَ عَمِّي زَيْدٌ !

قُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ !

قَالَ : رَحِمَهُ اللَّهُ ! أَمَا إنَّهُ كَانَ مُؤْمِناً ، وَكَانَ عَارِفاً ، وَكَانَ عَالِماً ، وَكَانَ صَدُوقاً ؛ أَمَا إنَّهُ لَوْ ظَفَرَ لَوَفَى ! أَمَا إنَّهُ لَوْ مَلَكَ لَعَرَفَ كَيْفَ يَضَعُهَا .

قلتُ : يا سيّدي ! ألا أنشدك شعراً ؟

قال : أمهل ! ثمّ أمر بستور فسُدلت ، وبأبواب ففتحت ؛ ثمّ قال : أنشد ! فأنشدتُه :

لِأُمِّ عَـمْرٍو بِاللِّوَى مَـرْبَعُ طَـامِسَةٌ أَعْـلَامُهُ بَـلْقَعُ

الأبيات ... إلى قوله :

وَرَايَـــةٌ قَـائِدُهَا وَجْـهُهُ كَأَنَّهُ الشَّـمْسُ إذَا تَـطْلَعُ

قال : سمعتُ نحيباً من وراء الستر . وقال : مَن قال هذا الشعر ؟

قلتُ : السيّد ابن محمّد الحميريّ . فقال : رحمه الله !

فقلتُ : إنّي رأيتُه يشرب النبيذ . فقال : رحمه الله !

قلتُ : إنّي رأيته يشرب النبيذ الرستاق .

قال : تعني الخمر ؟

قلتُ : نعم .

قال : رحمه الله ، وما ذلك على الله أن يغفر لمحبّ عليّ عليه السلام !

أجل ، فقدكان الشاهد من ذكر هذه الرواية هو أنّ أشعار الحميريّ التي نقلها المجلسيّ برواية الفضيل في محضر الإمام الصادق عليه السلام لم تتضمّن البيتين السادس والأربعين والسابع والأربعين ، وأنّها وردت حسب التسلسل الذي رجّحناه . ويلزم أن نشير هنا إلى أربع فوائد :

الفائدة الأُولى : أن القاضي نور الله قد نقل هذه القصيدة في «مجالس المؤمنين» كما قد سبقت الإشارة إليه ، إلّا أنّه أوّلاً لم يحذو في نقله رؤيا الإمام الرضا عليه السلام حذو المجلسيّ حين نسبها إلى بعض مؤلّفات الأصحاب ، بل رواها عن **أبي عمر الكشّيّ** في كتاب رجاله ، عن **سهل بن ذبيان**.

وثانياً فإنّ تفصيل الرؤيا التي نقلها يختلف في عدّة موارد مع تفاصيل مثيلتها التي نقلها المجلسيّ . منها : أنّ سهل بن ذبيان يقول فيها :[1]

«فرأيتُه (أي رأيت الإمام الرضا عليه السلام) متفكّراً منكساً رأسه ، فلمّا رآني قال ... إلى آخره» .

ومنها : قول الرضا عليه السلام : دخلتُ في قبّة خضراء فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله جالساً فيها وإلى يمينه غلام حسن الوجه جالس على رُكبة شيخ كبير قد تدلّى حاجباه على عينيه فحجبهما ، وذلك الشيخ هو

١ـ لم أعثر عليه في «رجال الكشّيّ» المطبوع ، فترجمتُ ما نقله المؤلّف عن «مجالس المؤمنين» ، لذا اقتضى التنويه . (م)

السيّد إسماعيل الحميريّ . ومنها : لمّا وصل السيّد الحميريّ إلى قوله :

قَالُوا لَهُ لَوْ شِئْتَ أَعْـلَمْتَنَا إِلَى مَنِ الغَـايَةُ وَالمَـفْزَعُ

رفع النبيّ صلّى الله عليه وآله يده إلى السماء ، وقال :

إِلَهِي وَسَيِّدِي ! أَنْتَ الشَّاهِدُ عَلَيْهِمْ وَعَلَيَّ أَنَّنِي قَدْ أَعْلَمْتُهُمْ أَنَّ الغَايَةَ وَالمَفْزَعَ إِلَيْهِ ـ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ـ وَقَالَ : يَا عَلِيُّ ! احْفَظْ هَذِهِ القَصِيدَةَ وَمُرْ شِيعَتَنَا بِحِفْظِهَا !

بينما كان السياق في رواية المجلسيّ أنّ رسول الله لمّا قال :

إِلَهِي ! أَنْتَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ أَنِّي أَعْلَمْتُهُمْ أَنَّ الغَايَةَ وَالمَـفْزَعَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ـ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَيْهِ (أي إلى أمير المؤمنين) **ـ وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَ يَدَيْهِ صَلَوَاتُ اللَهِ عَلَيْهِ .**

ثمّ التفت النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى الإمام الرضا عليه السلام وأمره بحفظ القصيدة وبأن يأمر الشيعة بحفظها ، ولم يأمر بذلك أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان قد ارتحل عن الدنيا آنذاك .

أجل ، إنّ المرحوم النوريّ قد أشار في كتابه «دار السلام» إلى اختلاف رواية المجلسيّ عن رواية القاضي نور الله ، ثمّ قال : ولكنّي لم أجد هذه الحكاية في «رجال الكشّيّ» وعندي منه عدّة نسخ ، ولا نقلها غيره عنه ؛ ويُحتمل بعيداً أنّه عثر على نسخة أصل الكشّيّ التي اختصرها الشيخ الطوسيّ ، والمختصر هو المتداول بين العلماء ، وليس من الأصل عين أثر .

الفائدة الثانية : من المسلّم أنّ هناك روايتين وردتا في أمر قصيدة السيّد الحميريّ العينيّة ، أولاهما : رواية العلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار» [١] عن بعض مؤلّفات الأصحاب ، عن سهل بن ذبيان الذي نقل رؤيا

---

١ ـ «بحار الأنوار» ج ١١ ، ص ٢٠٣ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ) ؛ وج ٤٧ ، ⇦

الإمام الرضا عليه السلام ؛ وقد نقل القاضي نور الله في «مجالس المؤمنين» نفس قصّة الرؤيا ونسبها إلى «رجال الكشّيّ» .[1]

وثانيتهما : رواية العلّامة المجلسيّ عن «رجال الكشّيّ» عن نصر بن الصباح ، عن إسحاق بن محمّد البصريّ ، عن عليّ بن إسماعيل ، عن الفضيل بن الزبير الرسّان ،[2] وهذه الرواية المسندة موجودة في نسخ «رجال الكشّيّ» الحاليّة ،[3] بَيدَ أنّها تخلو من ذكر الرؤيا . وقد ورد فيها اثنا عشر بيتاً من القصيدة ، أنشدها الفضيل عند الإمام الصادق عليه السلام .

يقول العلّامة الأمينيّ : «ونقله (أي نقل المنام) الشيخ أبو علي (المامقانيّ) في رجاله «منتهى المقال» ص ١٤٣ ، عن «عيون الأخبار» لشيخنا الصدوق ، وتبعه الشيخ المعاصر (المامقانيّ) في «تنقيح المقال» ج ١ ، ص ٥٩ ، والسيّد الأمين في «أعيان الشيعة» ج ١٣ ، ص ١٧٠ ؛ ولم نجده في نسخ «العيون» المخطوطة والمطبوعة .[4]

الفائدة الثالثة : أورد كثير من العلماء الأعلام شروحاً لقصيدة الحميريّ العينيّة ؛ فقد ذكر أُستاذنا وشيخنا في علم الرجال والدراية والحديث : العلّامة الحاجّ الشيخ آقا بزرك الطهرانيّ ستّة عشر شرحاً بالعربيّة والفارسيّة والأُرديّة عن الأعلام ، تحت رقم ١٥١٠ إلى ١٥٢٣ ،[5]

⇐ ص ٣٢٨ إلى ٣٣٢ ، الطبعة الحروفيّة .

١ـ «مجالس المؤمنين» ص ٤٦٤ و٤٦٥ ، الطبعة الحجريّة .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ١١ ، ص ٢٠٢ ، الطبعة القديمة ؛ وج ٤٧ ، ص ٣٢٥ و٣٢٦ ، الطبعة الحروفيّة .

٣ـ «رجال الكشّيّ» ص ١٨٤ و١٨٥ ، طبعة بمبي ، وص ٢٨٥ و٢٨٦ ، طبعة جامعة مشهد .

٤ـ «الغدير» ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

٥ـ «الذريعة» ج ١٤ ، ص ٩ إلى ١١ . وعلى الرغم من أنّ الشروح المرقّمة هي أربعة ⇐

وذكر العلّامة الأمينيّ في «الغدير» خمسة عشر شرحاً لها ، ونوّه بقوله في الهامش : هذه الشروح وقفتُ على بعضها ، ونقلتُ جملةً منها عن «الذريعة» ؛ وقال : وخمّسها جمع من العلماء والأُدباء منهم : شيخنا الحرّ العامليّ صاحب «الوسائل» وحفيده الشيخ عبد الغنيّ العامليّ ، والشيخ حسن بن مجلي الخطّيّ ، والسيّد على النقي النقويّ الهنديّ .[1]

الفائدة الرابعة : جاء في هذه القصيدة أنّ سعة حوض الكوثر ما بين **أيلة وصنعاء** أو أوسع ، حيث ورد ذلك في كثير من الروايات : وورد في بعض الروايات ، كرواية الثقلين التي أوردناها عن مقدّمة «تفسير عليّ بن إبراهيم» أنّ سعته ما بين **بصرى وصنعاء** . **وأيلة** كما في معجم البلدان بلد على ساحل بحر القلزم قرب الشام . وقيل بأنّها منتهى أرض الحجاز وأوّل أرض الشام .

وفي «لغت نامه دهخدا»[2] : **قلزم** بلد بين مصر ومكّة ، بالقرب من جبل الطور ؛ يُنسب إليها بحر القلزم لوقوعه على ساحلها . (عن «منتهى الإرب» نقلاً عن «أقرب الموارد») .

وفي «المعجم» : **بُصرى** : بلد في أطراف الشام ، وهي قصبة قرية حوران ؛ **وصنعاء** : بلدة باليمن .

فيكون المراد من بحر القلزم ـ إذاً ـ هو البحر الأحمر الذي يمتدّ ما بين بحر الروم والبحر الأبيض المتوسط إلى باب المندب . ولمّا كان وقوع بلدة القلزم المصريّة قرب هذا البحر ، فقد دُعي بـ «بحر القلزم» .

⇐ عشر شرحاً ، إلّا أنّه يذكر بينها شرحينِ آخرين لم يرقّمهما ، فيكون مجموع تلك الشروح ستّة عشر شرحاً .

١ـ «الغدير» ج ٢ ، ص ٢٢٣ إلى ٢٢٥ .

٢ـ معجم لغويّ بالفارسيّة يُنسب إلى مؤلّفه «دهخدا» . وقد ترجمنا ما ورد فيه . (م)

أمّا **أيلة** فليست في مصر ، بل هي واقعة على الجانب الآخر من البحر ، إلى اليسار ممّن يسافر بحراً من فلسطين إلى مكّة ، على مقربة من ساحل البحر الأحمر ، وهي من أراضي الشام .

وبطبيعة الحال ، فإنّ مثل هذا الحوض الذي تمتدّ سعته ما بين أيلة وصنعاء ، سيكون عرضه كبيراً أيضاً ، لذا فإنّه سيمرّ في جانبه الشماليّ على بُصرى (من نواحي دمشق) . ولن يكون هناك ثمّة تعارض بين الروايات .

و**أيلة** و**بصرى** موضعان قريبان من بعضهما ، ذكرت بعض الروايات أحدهما كحدّ لسعة الحوض ، بينما ذكرت الروايات الأُخرى الثاني ، وهما يعبّران عن حقيقة واحدة لها عنوانان .

ولمّا كانت صنعاء من نواحي اليمن الواقعة إلى الجنوب من بلاد الحجاز ، فيتّضح أنّ الحوض يستغرق جميع أرض الحجاز ، ابتداءً من الشام إلى أقصى نقطة في الجنوب . وهذا تشبيه لطيف جدّاً للتعبير عن سعة مقام الولاية ، كما أنّ الأقداح والأباريق الموجودة بعدد النجوم يدلّ أيضاً على هذه السعة .

(وَصَلَوَاتُ اللَهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَحَمَلَةِ عَرْشِهِ وَجَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ) : عَلَى سِرِّ الأَسْرَارِ ، وَمَشْرِقِ الأَنْوَارِ ، المُهَنْدِسِ فِي الغُيُوبِ اللَاهُوتِيَّةِ ، السَّيَّاحِ فِي الفَيَافِي الجَبَرُوتِيَّةِ ، المُصَوِّرِ لِلْهَيُولَى المَلَكُوتِيَّةِ ، الوَالِي لِلْوِلَايَةِ النَّاسُوتِيَّةِ ، أُنْمُوذَجِ الوَاقِعِ وَشَخْصِ الإطْلَاقِ المُنْطَبِعِ فِي مَرَايَا الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ ، سِرِّ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ، سَيِّدِ الأَوْصِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ ، صُورَةِ الأَمَانَةِ الإلَهِيَّةِ ، مَادَّةِ العُلُومِ الغَيْرِ المُتَنَاهِيَةِ ، الظَّاهِرِ بِالبُرْهَانِ ، البَاطِنِ بِالقُدْرَةِ وَالشَّانِ ، بَسْمَلَةِ كِتَابِ المَوْجُودِ ، فَاتِحَةِ مُصْحَفِ الوُجُودِ ، حَقِيقَةِ النُّقْطَةِ البَائِيَّةِ ، المُتَحَقِّقِ بِالمَرَايَا الإنْسَانِيَّةِ ، حَيْدَرِ آجَامِ الإبْدَاعِ ، الكَرَّارِ فِي مَعَارِجِ الاخْتِرَاعِ ، السِّرِّ الجَلِيِّ ، وَالنَّجْمِ الثَّاقِبِ عَلِيِّ بْنِ

أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.[1]

نه مراست قدرتِ آنكه دم زنم از جلال تـو يـا عـلى

نه مرا زبان، كه بيان كـنم صـفت كـمال تـو يـا عـلى

شده مات عقل مُوحّدين ، همه در جمال تو يا على

چو نيافت غير تو آگهى ، ز بـيان حـال تـو يـا عـلى

نَبَرد به وصف تو ره كسى ، مگر از مقال تو يا على [2]

* * *

توئى آنكه غير وجود خود، به شهود وغيب نديده‌اى

همه ديده‌اى نه چنين بود شه من تـو ديـدهٔ ديـده‌اى

فقرات نفس شكسـته‌اى ، شـبُحات وهـم دريـده‌اى

ز حدود فصل گذشته‌اى، به صعود وصل رسـيده‌اى

ز فناى ذات به ذات حق بـود اتّـصل تـو يـا عـلى [3]

* * *

١ـ مقطع من الصلوات المعروفة لمحيي الدين بن عربي ، التي شرحها المرحوم الملّا صالح الموسويّ الخلخاليّ بالفارسيّة وطُبعت طباعة حجريّة بالحجم الصغير الجيبيّ ، ص ١٤١ و١٤٢.

٢ـ مقتطفات من قصيدة فؤاد الكرمانيّ في ديوان «شمع جمع» ص ٨٦ إلى ٩٠، أنشدها في مدح أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول : «ليس لي من قدرة للحديث عن جلالك يا عليّ ، ولا قدرة على البيان لأصف كمالك .

لقد أبهت جمالُك يا عليّ عقولَ الموحّدين ، إذ لم تجد إلّاك عنواناً لوصفك .

ولم يهتدِ أحد إلى وصفك سبيلاً ، إلّا بكلامك ومقالك» .

٣ـ يقول : «يا مَن لم ترَ في عالم الغيب والشهود غيرَ وجودك ، لقد نظر إليك الجميع بأبصارهم ، أمّا أنت يا أميري فقد كنت نور الأبصار .

⇦

چو عقول وافئده را نشد ملكوت سـرّ تـو مـنكشف
ز بيان وصف تو هر كسى، رقم گـمان زده مـختلف
همه گفته‌اند ونگفته شد ز كتاب فـضل تـو يک الف
فُصَحاى دهر به عجز خود، ز اداى وصف تو معترف
بُلغاى عصر به نطق خود شده‌اند لال تـو يـا عـلى [1]

* * *

نه فرشته يافته در بشر چو تو ذو الكرم چو تو ذو العفا
نه بشر شنيده فرشته را، به چنين صفت، به چنين صفا
به خدا ظهور عجائبى، چو تو نيست در بشر از خـدا
كـه تـعجّب است بـحقّ ز تـو آن قـناعت وايـن سـخا
به طراز سورهٔ هَلْ أتى چه نكوست فال تـو يـا عـلى [2]

* * *

⇐ لقد حطّمت فقرات النفس، وهتكت شبحات الوهـم، وتـخطّيت حـدود الفـصل، وبلغتَ ذروة الوصال.

وصار وصلك من فناء ذاتك في ذات الحقّ تعالى».

١ـ يقول: «عجزت العقول والأفئدة عن كشف سرّ ملكوتك، فتفرّق واصفوك طرائق قدداً.

ولقد مدحوك فلم يُذكر بعدُ من كتاب فضلك أَلِفٌ واحد؛ واعـترف فـصحاء الدهـر بعجزهم عن وصفك.

وألجم بلغاءَ العصر الخرسُ في نطقهم أمامك يا عليّ».

٢ـ يقول: «لم يجد الملائكةُ في البشر كمثلك كريماً عفوّاً؛ ولم يسمع البشر بـمَلَك بنعتك وصفاتك.

فواللهِ ليس في البشر من ظهور عجائب كعجائبك؛ وبحقّ الحقّ إنّ ممّا يـثير العـجب قناعتك وسخاءك. ⇐

نـرسيد كشـتيِ هـمّتم ز يَـم غـمت بـه كـنارهاى
بشكست فُـلْك مـرا فَـلَك بـه حـجارهاى ز اشـارهاى
به همين خوشم كه نشستهام به شكستهاى وبه پارهاى
چكنم ز غرق شدن مرا نه علاج هست ونه چـارهاى
مگرم ز غيب مدد كند يكـى از رجـال تـو يـا عـلى[1]

* * *

⇦ فما أسعد نجمك يا عليّ حين ينزل فيك أمثال سورة «هل أتى»!».

١ـ يقول: «لم ترسُ سفينة همّتي في يم غمّك على ساحل؛ فقد كسر الفَلَك بصخرة فُلكي بإشارةٍ واحدة.

لكنّي سعيد بجلوسي على قطعة حطام خشبيّة، لا أعلم وجه الحيلة، إذ لا مناص من الغرق.

إلّا إذا أسعفني من الغيب أحد رجالك يا عليّ».

فهرس التأليفات



بسم الله الرّحمن الرّحيم

تقوم مؤسّسة ترجمة و نشر

(دورة العُلوم و المعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

بنشر وترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة المعارف :

معرفة الله (١) (الله شناسى) ثلاثة أجزاء

معرفة الإمام (٢) (امام شناسى) ثمانية عشر جزء

معرفة المعاد (٣) (معاد شناسى) عشرة أجزاء

دورة العلوم :

الأخلاق و الحكمة و العرفان (٤)

١ ـ رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالهٔ سير و سلوک منسوب به بحر العلوم)

٢ ـ رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب
(رسالهٔ لُبّ اللباب در سير و سلوك أُولى الألباب)

٣ ـ التوحيد العلميّ والعينيّ (توحيد علمى و عينى)

٤ ـ الشمس الساطعة (مهر تابان)

٥ ـ الروح المجرّد (روح مجرد)

الأبحاث التفسيريّة (٥)

١ ـ رسالةٌ بَديعةٌ في تفسير آية «ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ»

٢ ـ رسالة جديدة في بناء الإسلام على الشهور القمريّة (رسالهٔ نوين)

الأبحاث العلميّة والفقهيّة (٦)

١ ـ رسالة حول مسألة رؤية الهلال

٢ ـ وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام
(وظيفهٔ فرد مسلمان در احياى حكومت اسلام)

٣ ـ ولاية الفقيه في حكومة الإسلام أربعة أجزاء
(ولايت فقيه در حكومت اسلام)

٤ ـ نور ملكوت القرآن (نور ملكوت قرآن) أربعة أجزاء

٥ ـ نظرةٌ على مقالة بسط وقبض نظريّة الشريعة للدكتور عبد الكريم سروش
(نگرشى بر مقالهٔ بسط و قبض تئوريک شريعت دكتر عبدالكريم سروش)

٦ ـ الرسالة النكاحيّة : تحديد النسل ضربة قاصمة لكيان المسلمين (وقد طبع الكتاب في طبعته الأُولى بهذا العنوان : «الحدّ من عدد السكّان ضربة قاصمة لكيان المسلمين»)
(رسالهٔ نكاحيّة :كاهش جمعيّت ، ضربه‌اى سهمگين بر پيكر مسلمين)

٧ ـ رسالة مسوّدة القانون الأساسيّ (نامهٔ پيش نويس قانون أساسى)

فهرس التأليفات

الأبحاث التأريخيّة (٧)

١ ـ لَمَعات الحُسين عليه السلام

٢ ـ الهديّة الغديريّة : رسالتان قاتمة ومشرقة

(هديّهٔ غديريّه : دو نامهٔ سياه و سپيد)

هذه هي مجموعة من الكتب التي أُلّفت من قِبل المؤلّف قدّس سرّه ، والتي بادرت « مؤسّسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة » إلى ترجمتها وتقديمها تدريجيّاً إلى القرّاء المحترمين ، وهناك مجموعة أُخرى للمؤلّف لم تنشر بعد .

وللحصول على نظرة إجماليّة لهذه المؤلّفات ، يمكنكم الرجوع إلى نهاية الجزء الأوّل من هذا الكتاب .





